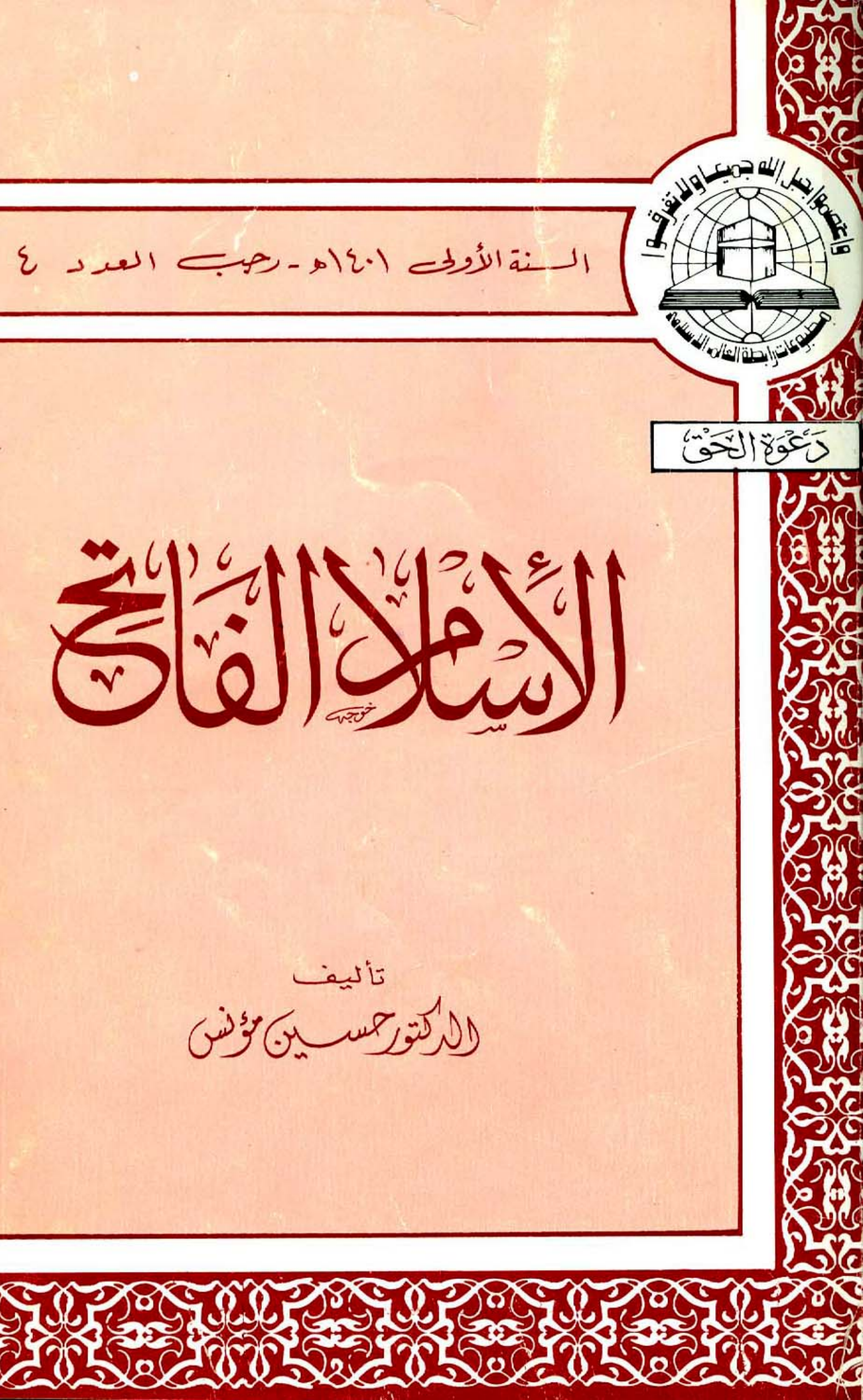

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا
مطبوعات رابطة العالم الإسلامي
دعوة الحق
السنة الأولى ١٤٠١هـ - رجب العدد ٤
الإسلام الفاتح
تأليف
الدكتور حسين مؤنس



دعوة الحق
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي



الدكتور حسين مؤنس

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبيه وصفيه خاتم المرسلين

وبعـــد :

فإني نظرت في مصوَّر الأرض أتقرَّي ما زُوِي للإسلام من جوانب هذا الكوكب فأحسست أولَ الأمر بالرضى والاطمئنان ، فقد بلغَت رسالة الإسلام من نواحي هذه الأرض مبلغاً ترضى عنه النفس ويطمئن له القلب .

وتفكرت في نفسي في الحساب الختامي لما كسب الإسلام وخسر من البلاد والعباد في صراع الزمان إلى يومنا هذا ، فوجدت أن نتيجة الحساب تدعو إلى الاستبشار ، فإننا في صراعنا الطويل لم نخسر من الكثير الذي كسبناه إلا القليل : خسرنا الأندلس وصقلية ومعظم جزائر البحر المتوسط ، ولكننا عوضنا هذه الخسائر بمكاسب أخرى ، فأدخلنا دولة الروم وبلادها رحاب الإسلام بعد طول صبر وعناء ، وامتد الإسلام بنفسه ففتح إفريقية المدارية وجزءاً كبيراً من إفريقية الاستوائية ، ومد ذراعه المباركة فوصلت إلى المحيط الهادي وضمت إلى أُسرة الإسلام بلاد أندونيسيا وماليزيا وجزءاً لا بأس به من جزائر الفليبين .

ثم ردَّدت الفكر فشعرت بشيء من تأنيب الضمير ، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق ليدخُلَ فيه أبناء آدم أجمعين ، ورسول الله صلوات الله عليه وسلم عندما أنشأ أُمة الإسلام في المدينة وبدأ مغازيه استطاع في عشر سنوات أو نحوها أن يدخل في الإسلام جزيرة العرب كلها ، وهي وحدها سُدس مساحة عالم الإسلام ، وكان المأمول بعد انتقاله

إلى الرفيق الأعلى أن نواصل مغازيه حتّى لا تبقى على وجه الأرض نفس إلا وقد ملأها نور الإسلام .

ولكننا توانينا وقصّرنا ، ووقفنا بالمغازي عند جزء من الطريق الطويل . وصرفتنا بعد ذلك شئون الدنيا عن الغرض الأسمى ، ولكننا لسنا بعد في آخر الزمان ، ولا زالت أمة الإسلام بخير ، والله سبحانه وتعالى يبعث في قلوب أهلها من الغيرة والحمية وفحولة الأجيال الأولى ، فتواصل الدعوة حتّى تحقق الرجاء ونلقى ربنا يوم الميعاد وقد قمنا بحق الله تعالى علينا ، حتّى لا نقف صامتين وقد أظلنا الخزْي عندما نذكر قول الله تعالى في سورة التوبة : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

وأعدت النظر في المصور الجغرافي لأرى ما فتحنا بجهادنا وما فتح الإسلام بنفسه بالحكمة والموعظة الحسنة فخشعت نفسي ، لأنني وجدت أن الإسلام فتح بنفسه أضعاف ما فتحنا ، وأن دعوة الحق في تاريخنا كانت أمضى من كل سلاح ، حتّى البلاد التّي خضنا المعارك لندخلها كان الإسلام هو الذي فتح قلوب أهلها واستقر فيها وجعل بلادهم دياره . .

ورأيت الإسلام منذ أكرم الله الأرض به فاتحاً مظفراً يجد طريقه إلى القلوب كما ينساب الماء الطيب في الأرض فيحييها فتخضر وتخرج ثمراً زكياً .

عن هذا الإسلام الفاتح أكتب هذه الصفحات وأهديها لدعوة الحق ، لأن « دعوة الحق » هي البداية وهي النهاية وهي النور والهداية وهي نعمة الله الكبرى على عباده ، له الحمد والمنة ، وهو على كل خير مستعان .

القاهرة ، جمادي الأولى ١٤٠٠ هـ
مارس ١٩٨٠ م

د· حسين مؤنس

(الباب الأول)

مداخل الاسلام ومسالكه

طبيعة فتوح الاسلام :

ديوان الفتوح الإسلامية حافل بأسماء عظماء الفاتحين ، وأولهم وأجلهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الفاتح الأكبر ، بَشّر بالرسالة والقلوبُ من حوله مغاليقُ عليها أقفالها ، فما زال يدعو ويهدي حتّى فض أقفال القلوب ، فانساب فيها نور الهدى ، وأشرقت بضياء الإسلام ، وخالطتها بشاشته فرحبت وسمت وصفت وخلصت من جهل الجاهلين ، وتكونت حوله صلوات الله عليه في المدينة تلك العصبة من أولي القُوى ممن نقلهم نور الإسلام والأسوة الحسنة برسوله من ضياع الجاهلية والشرك إلى هدى الإيمان والإسلام ، فائتسوا برسولهم الكريم ولزموا غـَرْزَه فأفادوا وانتقلوا من هباء الجاهلية الهالكة إلى غـَنـَاء الإسلام الباقي ، فساروا مع رسولهم ما عاش فيهم ، فلما لحق بالرفيق الأعلى ساروا في آثاره وبدأوا من القاعدة المكينة الّتي بناها الرسول وهي جزيرة العرب الموحـَّدة الموحّدة ، وأنشأوا نواة عالم الإسلام الفسيح الزاهر .

وكانت القاعدة الّتي سار عليها الرسول صلوات الله عليه في نشر الدعوة هي الّتي رسمها له القرآن الكريم في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من « سورة النحل » ، وهي السادسة عشرة من سور القرآن : « ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إنَّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » ، لأن الإسلام نعمة من الله على عباده ، والنعم لا تفرض على الناس وإنما ينالها من يستحقها منهم ، ومن هنا فإن الدعوة إلى الإسلام لا تكون إلا بالحكمة أي بأفضل الطرق وأحكمها لإيصالها إلى القلوب ،

ثم الموعظة الحسنة والجدل الرفيق ، فإذا اقتنع الإنسان بهذا الطريق كان بها وشملته نعمة الإسلام ، لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بمن كتبت عليه الضلالة فهو لا يهتدي إلا إذا شاء الله ، ويعلم المهتدين الذين تفتحت قلوبهم فهم يدخلون فيه طواعية .

ولهذا فنحن عندما نتحدث عن المغازي لا نتحدث عن حروب بالمعنى الصحيح للحروب ، فإن المسلمين لم يحاربوا شعباً قط ليدخلوه في الإسلام ، وإنما هم قاموا بفتوح ، وذلك تطبيقاً لقوله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا » صدق الله العظيم

فهنا الآيات تتحدث عن النصر أولا ثم الفتح ، النصر على القوى التي تحول دون وصول الإسلام إلى الناس ، ثم يفتح الله سبحانه وتعالى بعد ذلك القلوب لتلقي نعمة الإسلام .

وفي كل مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم والحروب التي تمت خلال القرن الهجري الأول لم يحارب المسلمون قوماً أو أمة أو شعباً ، إنما هم حاربوا القوى التي تحول دون وصول الإسلام إلى الناس . فقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة معه أئمة الكفر في مكة ولكنه لم يحارب أهل مكة ، وعندما استسلم رؤساء المكيين دخلت قوات الإسلام مكة دون حرب ، وعندما نادى منادي الإسلام بأن من دخل الحرم آمن ومن دخل بيته آمن ومن دخل بيت أبي سفيان آمن ، لم يطلب إلى أحد أن يدخل الإسلام ، بل قال الرسول صلوات الله عليه لأهل مكة « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فانفتحت بذلك قلوب من بقي على الشرك منهم للإسلام فأسلموا .

وكذلك كان الأمر مع بقية البلاد التي فتحها العرب : كانت الحرب على الرؤساء ، الذين كانوا يحولون بين أهل عشيرتهم ودخول الإسلام ، فلما تم النصر عليهم جاء الفتح كما قالت الآية الكريمة .

والفتوح في العصر الراشدي وما بعده ما كانت قط حروباً على شعوب وإنما على أعداء الشعوب ، فلم يحارب العرب أهل الشام أو أهل مصر ، وإنما حاربوا الروم الذين كانوا يسخرون أهل الشام وأهل مصر لمصالحهم ومصالح دولتهم ، وكانوا يعارضون دخول الإسلام تلك البلاد حفاظاً على مصالحهم ، فلما انكسرت شوكة الروم ترك العرب أهل الشام وأهل مصر ليتعرفوا على الإسلام ويدخلوا فيه إذا أرادوا . وعندما فتح المسلمون العراقَ وفارس لم يحاربوا أهلَ العراق أو أهلَ فارس ، وإنما حاربوا الأكاسرة ورجالَهم ممن كانوا يستعبدون شعبي العراق وإيران ولا يريدون أن تصل إليهم رسالة الإسلام ، فلما قضى المسلمون على قوة الأكاسرة وأوصلوا الإسلام إلى أهل العراق وفارس تركوهم أحراراً يختار كل إنسان منهم لنفسه الهدى أو الضلالة ، كما قدر الله عليه .

ومن هنا فإننا نخطئ عندما نقول أن هناك بلاداً فتحت بحرب وأخرى فتحت بغير حرب لأن الحروب لم تكن للإستيلاء على البلاد ، بل لانتزاعها من غاصبيها وردها إلى أهلها وتركهم بعد ذلك أحراراً في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا ولا إكراه في الدين .

أما ما يتحدث عنه الفقهاء من أرض الصلح وأرض العَنوة فلا يتعلق بالبلاد نفسها بل بأملاك المستفيدين بالبلاد وأراضيها قبل الإسلام ، فإن أحكام العنوة لم تطبق إلا على أملاك القياصرة والأكاسرة وسدنة بيوت النّار والأملاك الخاصة لمن فر من كبار رجال الدين في مصر والعراق والشام ، فقد كان أولئك الرجال يملكون أراضي شاسعة ملكاً خاصاً لا صلة له بالدين ، فاستصفت ذلك كله دولة الإسلام وتركته لمن يريد من أهل الزرع ليزرعه ويؤدي عنه العشر لبيت مال المسلمين ، أو يزرعه مناصفة أو مقاسمة أو على أي شرط أحبه ورضيه ، وتلك هي أراضي الصوافي والضياع التي تحدثنا عنها النصوص ،

أما أراضي الزرع التي كانت بأيدي الناس فلم يمسها المسلمون ، وإنما اكتفوا من أهلها بخراجها وهو العُشر على وجه التقريب ، فما عرف فلاح آمن مسالم في أي أرض مفتوحة شيئاً يسمى صلحاً ولا عنوة ، وإنما هو حق دولة الإسلام وهو عشر المحصول يؤديه وهو آمن . ولم يمس المسلمون بيتاً لعبد مسالم من عباد الله سواء آمن أم لم يؤمن ، وإنما أخذت قصور الظالمين ، وكلها مال مغصوب ، واستخدمت لصالح جماعة المسلمين ، وما عدا ذلك فهي الجزية ولا زيادة .

وعلى الرغم مما نقرأه من شروط وحدود في كتب « الأموال » وخاصة كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام فإننا إذا وصلنا سنة مائة للهجرة ، وهي منتصف خلافة الإمام العادل عمر بن عبد العزيز ، وجدنا أهل مملكة الإسلام جميعاً ، عرباً أم غير عرب ، مسلمين أم غير مسلمين – يؤدون العشر على المحصول في أرض الزرع التي تسقى دون جهد ونصف العشر في الأراضي التي تسقى بجهد ، أما أرض الموات والاستصلاح وأراضي المرعى والكلأ فما كان يتحصل منها شيء ، إنما هي زكاة المال ولا زيادة ، حتى تثمر ، وتخرج من حكم أرض الموات إلى أرض الثمر .

• • •

ولقد غزا الفرس والرومان البلاد وأكلوا أموال أهلها واستصفوا خيراتها لأنفسهم حتى كان طعام أهل روما ثم القسطنطينية من قمح مصر والشام يجبى من أهله بالقهر ويوزع عليهم دون جهد يبذلونه ، وقد جمع القياصرة وعمالهم وقوادهم الأموال الطائلة من دماء الناس ، وعاشوا عليها قروناً متطاولة ، أما العرب فهم الشعب الوحيد الذي جاد بدمه وخاض المعارك وفتح البلاد ثم لم يخرج آخر الأمر إلا بثواب الله ، وهو أبرك وأبقى ، وفي نهاية الفتوح لا نجد العرب أصحابَ أموال أو ثروات طائلة ، بل لعلهم كانوا أقل أموالا من غيرهم من أهل البلاد التي فتحوها ، أما الذين استفادوا من نعمة الإسلام

وعدله فكانوا غير العرب من أهل البلاد المفتوحة ، ولقد عجب الجاحظ في « البيان والتبيين » من قلة أموال العرب في العراق وخراسان بالقياس إلى ما احتجن الأعاجم من الأموال وما حازوا من العقار ، وقد عاب الجاحظ ذلك على العرب واتّهمهم بالإسراف وقلة التدبير ، ولم يكن الجاحظ مصيباً في ذلك . فإن العرب لا ينقصهم التدبير ، ولكنهم لم يمدوا يداً إلى أموال أهل البلاد المفتوحة ولم ينصرفوا إلى شئون الكسب والمعاش انصرافاً تاماً كما فعل غيرهم وتلك شهادة للعرب ، فقد جاهدوا ونصحوا ونصروا ثم لم يفوزوا بعد ذلك بشيء يذكر من خيرات الدنيا ، وهم في هذا حالة فريدة في التاريخ .

نقول هذا لنبطل ببرهان الواقع التاريخي قول القائلين إن الإسلام انتشر بحد السيف ، فما رُفع سيف على رجل ليدخل الإسلام ، ولا أسلمت أمة وعلى رقاب أهلها سيف ، إنما كان السيف لأهل السيوف المسلولة على الإسلام وأهله ولمن وقف في طريق الدعوة ، وإذا كان الله سبحانه قد زوى الأرض للإسلام ، فقد كان ذلك عن طريق الإسلام نفسه ، هو الذي فتح القلوب وغزا الأفئدة . ولقد أعز الله دينه فلم يجعل لأحد عليه فضلا ، وإنما الفضل لله وحده وللإسلام ، وصدق الله سبحانه وتعالى حيث قال : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . (الحجرات ١٧)

أولاً :

مداخل الاسلام

● الداعية الأسوة

ولقد سلك الإسلام في انتشاره في الأرض مسالك شتّى ، ودخل إلى القلوب من مداخل كثيرة ، فما كانت الفتوح إلا إحدى وسائل المسلمين لفتح الطريق أمام الدين ليدخل إلى القلوب ، فأما المدخل الأكبر فكانت الكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة يحملها المسلم المؤمن إلى غير المؤمن ، ويبين له فضائل الإسلام وما يَفتح لمعتنقه من أبواب الخير والأمل واطمئنان النفس ، فيستجيب الرجل للإسلام ويدخل فيه عن طيب نفس وعن أمل في عظيم رحمة الله وثوابه العريض .

وقد يكون هذا الداعية من أهل الدين والعلم فيدفعه دينه إلى أن يَهَبَ نفسه للدعوة ، فيخرج بها في بلاد الكفر داعياً معلماً ، فتنشأ على يديه جماعة إسلامية تتحول بدورها إلى مركز تنتشر منه أنوار الدعوة .

وقد يكون الداعية مؤمناً عادياً مشتغلا بالتجارة أو حرفة من الحرف ، يرحل إلى بلاد الكفر طلباً للمعاش ، فإذا لقي غير المؤمنين دعاهم للإيمان بما يؤمن به فتبعوه وأصبحوا مسلمين ، وسنأتي في هذا المبحث بأمثلة كثيرة على ذلك .

ولكن أوسع مداخل الدعوة وأوفاها بالغرض كانت الأسوة الحسنة ، أي أن يكون المسلم الوافد على أهل الكفر من أهل الدين المتين والخلق القويم ، وليس من الضروري أن يكون متفقهاً في العلم متبحراً فيه ، ولكن خلقه الكريم ، وحسن معاملته للناس ونظافته وحسن سمته وتعاونه مع غيره تحبب

الناس فيه وفي دينه ، فلا يزالون في إعجاب به حتى تهوى أفئدتهم إلى ما يؤمن به ليكونوا مثله .

وكان هذا من أقوى أسباب انتشار الإسلام خلال القرن الهجري الأول ، فقد كان العرب الذين استقروا في البلاد المفتوحة قوماً على خلق وحسن سمت وإيمان بالإسلام عميق . حقاً لقد وقعت بين بعضهم وبعض حروب ومنازعات في الأمصار وخاصة في إيران والمغرب والأندلس ، ولكن هذه المنازعات اقتصرت عليهم فحسب ، فلم ينل أذاها غيرهم ، ولم يعتدوا على أهل البلاد ولا هم غصبوهم أرضاً أو عقاراً ، ولا تصرفوا معهم تصرفاً غير سليم . ففي إيران مثلا ، حيث بلغت العداوة بين الشامية واليمنية مداها لم يقحم العرب من حواليهم في خصوماتهم ، ولا هم تحاربوا في أراضيهم ولا هم انتزعوا شيئاً مما كان بأيديهم ، وإنما كان نزولهم في أراضي الصفايا أي الأراضي التي كانت ملكاً لكسرى وآل بيته والمرازبة ، وهم كانوا كبار الدولة الساسانية القائمين بعسف الناس، ونزلوا كذلك فيما كان موقوفاً على بيوت النار أو مملوكاً لِسَدَنَتِها .

● نظام الولاء وأثره في انتشار الاسلام :

ونظام الولاء نفسه يدل على قيام نوع من المؤاخاة بين العرب وأهل البلاد فإن الولاء لحمة كلحمة النسب ، ومولى القوم منهم ، فإذا كانت جماعات أهل فارس قد رغبت في الدخول في ولاء تميم أو ربيعة أو تُجيب أو هَمْدان ، فمعنى ذلك أنها أنِست من أولئك العرب أُخُوَّةً ومحبة وحسنَ عشرة حببتهم إليهم ، فرغبوا في أن يكونوا أولياءهم .

وجدير بنا أن نقف هنا هنيهة عند ظاهرة الولاء التي لم يدرسها مؤرخو الإسلام حق دراستها مع أنها ظاهرة إسلامية مرتبطة أشد الارتباط بطبيعة

الإسلام وأخلاقياته ، وكانت كذلك من أكبر الأسباب في إسلام الناس طواعية واختياراً في إيران وبلاد الترك ثم في بلاد المغرب والأندلس .

ذلك أن أهل القرى حينما ملَك الأكاسرة من أرض العراق وإيران كانوا من حيث الوضع القانوني والإجتماعي رقيقاً واقنان أرضٍ للبيت الساساني ، وكان كسرى إذا أعطى رجلا من رجاله أرضاً أخذها بفلاحيها ، أي أن رقهم ينتقل إلى المالك الجديد ، فكان الناس عبيداً لكسرى وأهل بيته وللمقطَعين من المرازبة والدّهاقين والأصْبَهْبَذِينَ وهم رؤساء القرى وجباة أموالها ، فكان الفلاح يزرع الأرض ولا يصيبه من خيرها إلا ما يقيم أوده ، والباقي يذهب لصاحب الأرض وهو سيده ومالك رقه .

وكان أهل القرى قد ألفوا هذا الوضع بتوالي القرون ، وأصبح عندهم أساس الوضع الاجتماعي لكل منهم ، لأن الإنسان لا يعيش قط في فراغ ، ولا بد أن يرتبط بالنظام القائم بخيط قانونيٍّ مّا ، ولو كان هذا الخيط قيد رق في رقبته ، لأنه يجعله على أي حال عبد فلان أو ملك فلان ، فإذا عدا عليه عاد لجأ إلى صاحب رقه ليحميه أو ليؤمنه في بيته وأهله ، وهذا الوضع على ما فيه من إجحاف بالناس كان يعطي الفقراء والمزارعين وضعاً قانونياً أو هوية اجتماعية لا غنى لهم عنها .

فلما جاء الإسلام وأطاح بالأكاسرة والمرازبة والدهاقين أصبح أولئك الفلاحون في فراغ اجتماعي : فالأرض ليست أرضهم ، ولم يعد لهم وضع معين في المجتمع لأن سادتهم قد انتهى أمرهم ، وأصبح حالهم كحال الواحد منا إذا فَقَدَ جواز سفره في بلد غريب ليست له فيه سفارة أو قنصلية ، هنا يفقد الإنسان هويته القانونية ، أي أن أهل القرى فقدوا هويتهم عقب الفتح العربي .

وكانت دولة الإسلام تستطيع أن تحل محل الأكاسرة ورجالهم وتعتبر هؤلاء الناس رقيقاً لها ، كما فعل الساسانيون عندما حلوا محل الأكمينيين في تلك البلاد .

ولكن الإسلام لا يقر هذا النوع من الرق ، ثم إن نفس العربي المسلم عافته ، فلم تَدَّعِ دولة الخلافة ولا جماعات العرب في المهاجر مِلكَ رقاب الناس ، وهنا ظهر الولاء : اجتمع أهل كل ناحية ودخلوا في ولاء من أرادوا ممن نزل في أرضهم من قبائل العرب ، فصاروا في ولاء تميم أو معدّ أو ربيعة أو شيبان أو عبد قيس ، ومنهم من دخل في ولاء الفاتح فنسمع عن موالي خالد بن الوليد وموالي موسى بن نصير وموالي عبد الله بن عامر ، ومنهم من دخل في ولاء الخليفة القائم فنسمع عن موالي عبد الملك بن مروان وموالي الوليد وموالي هشام بن عبد الملك ، ومنهم من دخل في ولاء قريش عامة ، فنسمع عن موالي قريش ، وهؤلاء هم الذين يقال عنهم في كتب التراجم « مولاهم » وبذلك أصبحوا أعضاء في الجماعة الإسلامية الجديدة . لأن الولاء لم يكن انتقال رق أو تملك رقبة وإنما كان إقامة وضع قانوني لأولئك الناس في دولة الإسلام . وما دامت القرية من القرى قد دخلت في ولاء أحد من العرب فقد أصبح لأهلها وضع قانوني معترف به في الخريطة الاجتماعية والسياسية لدولة الإسلام .

وكان هذا الولاء في حقيقة الأمر تحريراً للناس ورفعاً لهم إلى مقام المواطنين في دولة الإسلام ، فإن الولاء يشترط الإسلام، فلا يدخل أعجمي في ولاء عربي إلا إذا أسلم، ومعنى ذلك أن الولاء، وهو نظام عربي إسلامي كان إدخالا للناس في الإسلام ثم تعريباً لهم بعد ذلك ، وكان تحريراً للناس وفكاً لرقابهم ورداً لكرامتهم الإنسانية ، ولعلنا لا نكشف حقيقة خافية عندما نقول أن الغالبية العظمى من أهل العراق وإيران تخلصوا من الرق وعرفوا الحرية والكرامة الإنسانية مع الفتح الإسلامي .

وقد تمسك الناس بولائهم العربي حتى بعد تحررهم وتحولهم إلى مواطنين في الدولة الإسلامية ، وذلك إن دل على شيء فعلى أن الناس ارتاحوا للارتباط بالعرب برابطة الولاء ، وفي المغرب والأندلس مثلا نجد الناس يعتزون بالولاء العربي على طول القرون ، بل كانت رابطة الولاء من القوة بحيث جعلت الموالي أو موالي بني أمية في الأندلس جماعة ممتازة من أهل الأندلس في عصر الولاة ، وعندما وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل إلى الأندلس كان موالي بني أمية هم الذين أيدوه وأقاموا دولته .

ولا بد أن ننص كذلك على أن دخول الرجل في ولاء العرب كان يضمن له حقه في أرضه التي كان يزرعها ، وفي حين أنه كان رقيقاً في ظل الأكاسرة أو القوط أصبح حراً ومالك أرضه في ظل الإسلام ، وهذا هو السبب في أن إسلام هذه الشعوب كان إسلاماً صحيحاً عميقاً . وإليه يرجع إقبالها الشديد على دراسة الإسلام وعلومه والتفقه فيها .

● الاسلام ينتشر بفضائله وقوته الذاتية

ولم يسبق فيما مضى أن كانت للمسلمين سياسة موضوعة لنشر الإسلام يقوم عليها رجال متخصصون ، يجرون في أعمالهم على مناهج مقررة كما هو الحال في النصرانية مثلا حيث نجد البابوية الكاثوليكية وما يتبعها من منظمات كهنوتية كالفرنشسكية والدومينيكية والجزويت وكذلك فيما تنظمه الهيئات البروتستانتية من حملات تبشير تُعِد رجالها في معاهد متخصصة وتنفق عليها المال الوفير ، ثم ترسلهم إلى البلاد البعيدة لدعوة الناس إلى أديانها بأساليب علمية مدروسة لإقناع من يصادفونه من الناس بصدق ما يدعون إليه وإدخالهم في العقيدة ، ويبلغ الأمر أن يطلّق أولئك الدعاة الدنيا ليخلصوا للدعوة خلوصاً تاماً ، كما نعرفه في جماعات الرهبان المسيحية والبوذية أحياناً . في الإسلام لا نجد شيئاً من هذا إلا في عصرنا اليوم عندما تزايدت تيارات التبشير غير

الإسلامية ولم يعد هناك مناص من أن يُعنى المسلمون بالدعوة وتنظيمها وإعداد الرجال القادرين عليها ، فيما عدا ذلك كان الإسلام هو الذي نشر نفسه بنفسه : هو الذي دعا لنفسه واجتذب قلوب الناس فأسلموا حباً في الإسلام وإعجاباً به والتماساً لرحمة الله وهداه عن سبيله . وإنه لمما يستوقف النظر أن قوة الإسلام الذاتية قد غلبت تنظيمات الدعاة وأثبتت أنها أفعل وأبعد أثراً من المال الذي ينفقه الآخرون على دعاواهم ، فانتشر واتسع مداه ودخلت فيه الأمم بعد الأمم من تلقاء نفسها بمجرد وصول الدعوة إليها ، ولقد كان العرب يفتحون البلد من البلاد ويعرضون الإسلام على أهله ثم يدعونهم وشأنهم حتى يقتنعوا بفضائله الإنسانية على هينة ، حتى لقد ذهب بعض الشانئين للعرب إلى أنهم لم يكونوا يهتمون بنشر دينهم ، وأن الجزية كانت أحب إليهم من الإسلام وما إلى ذلك مما نجده مسطوراً في كتب أعداء الملة .

وما كان ذلك عن عدم حرص من العرب على نشر الإسلام ، وإنما كان سيراً على أسلوب الدعوة في عهدها الأول : أسلوب عرض الدين على الناس وتركهم بعد ذلك أحراراً إلى أن يهدي الله منهم من يشاء . ومن غريب ما حدث في بلاد مثل مصر والأندلس أن كان مسلك العرب هذا أدعى إلى دخول الناس في الإسلام ، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه ، فما بال أولئك العرب لا يلحون على الناس في الدخول في الإسلام ولا يستخدمون القوة في ذلك كما كان رجال دولتي الرومان والروم يفعلون ؟ قال يولوج الراهب القرطبي المبغض للإسلام : « فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون بدخول الناس في الإسلام ، فتطلعت نفوس الناس إلى ذلك الإسلام وودوا لو يتعرفون عليه لعلهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به وضنهم به على غيرهم ، فما زالوا يفعلون ذلك ويسألون عن الإسلام ويستفسرون حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن

يدروا » ولقد قال الراهب القبطي يوحنا النَّقْيُوسي شيئاً من ذلك ، وكان متأسفاً لأن العرب لم يلجأوا إلى القوة في فرض الإسلام ، إذ لو أنهم فعلوا ذلك لزاد تمسك الأقباط بعقيدتهم على مذهب العناد وإباء كل ما يفرض بالقوة ، ولـمّا وجد الإسلام هذا الطريق السهل الميُسّر إلى القلوب في مصر والأندلس وإنك لتحاول أن تدرس كيف أسلم أقباط مصر ، وكانوا من أشد الناس استمساكاً بعقيدتهم حتى لقد استشهدت في سبيلها منهم جماعات بعد جماعات على أيدي عتاة الرومان من أمثال دقلديانوس وطغاة الروم من أمثال قيرُس ، فلا تجد على تساؤلك جواباً ، لأن التحول إلى الإسلام في هذين البلدين – مصر والأندلس – تم في هدوء وسكون : انسابت العقيدة في قلوب الناس كما ينساب الماء في أرض الزرع فتخضر وتزهر وتثمر بإذن ربها .

وفي بلاد المغرب أسلمت قبائل البربر مبهورة بما رأت من روعة إيمان عقبة بن نافع وأصحابه ، فهذا الرجل الفريد في بابه ، الذي وهب نفسه للإسلام كان يلقى رئيس القبيلة ويحدثه ثم يدعوه إلى الإسلام فيسارع إلى الإيمان ليكون من قوم عقبة ، ثم يتبعه بعد ذلك قومه .

إن مداخل الإسلام إلى القلوب هي سماحته وبساطته وإنسانيته . إنه يقدم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال ، ويفتح له إلى الله سبحانه باباً واسعاً للمغفرة والأمل وثواب الآخرة ، وكل ذلك دون مقابل . في أديان أخرى تفرض عليه أموال وهدايا وقرابين ، ويُلزم بطاعة رهبان وقساوسة ، ويراقَب ويعاقَب ويحرم من نعمة الله بقرار من رئيس الكنيسة ، لا شيء من هذا في الإسلام ، من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلا ذلولا .

أما مسالك الإسلام فهي دروب الأرض جميعاً : لقد انتشر الإسلام بالبر والبحر ، بالحرب والسلم ، لقد اخترق الجبال والشعاب ، وأوجد لنفسه طرقاً ومسالك لا تخطر على بال أحد ، لقد اشترك في نقل الإسلام حتى الكفار ،

ومن بين المستشرقين رجل سنتحدث عنه نصح حكومته بترك الإسلام ينتشر حتى يشتغل به الناس ويتركوا التجارة والأموال للهولنديين ، وأخذت الدولة بكلامه ، فكانت نصيحة هذا الكافر لدولته سبباً في الإسراع بانتشار الإسلام في أندونيسيا . وانساح الإسلام في أندونيسيا حتى عمها كلها . وحدث أن دخلت الإسلام قبيلة من قبائل الونقارة في غرب إفريقية على سبيل العناد مع جارتها ، فلما دخلت فيه سعدت وارتقت وسادت وتبعتها خصمتها الأولى — بفضل هذه العداوة — التي أصبحت صداقة فيما بعد — اخترق الإسلام مائتي كيلو متر من الغابات الاستوائية التي لا يخترقها أحد إلا بمشقة ، وهذه القبيلة وتسمى (الونقارا - آيا) تعتبر في مقدمة قبائل داهومي ، منها اليوم أطباء ومهندسون ومدرسون وقضاة . لقد دخلت الإسلام دون أن تدري أي حظ كتبه الله لها عن طريق هذا الدين .

● الاسلام دين طيار :

والخلاصة أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه ، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا فيها ، ثم إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شيء ولا يقتضيه شيئاً ، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى ويجد الطريق إليه ليقف بين يديه خمس مرات في اليوم ويدعوه دون حجاب ، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا ثم حياة الخلود في دار البقاء ، ولا يكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين واتباع شريعة الإسلام وكلها خير ومساواة وعدل ، في حين يتقاضاه رجال الدين في الأديان الأخرى كما قلنا الأتاوات في كل مناسبة ، فهو يؤدي مالا إذا تزوج ويؤدي مالا كلما أنجب ولداً ، ويؤدي مالا ليعمَّد للطفل الوليد ، ثم مالاً آخر ليثبِّته في الجماعة المسيحية (ما يعرف باسم Confirmation) إذا ضرب في مداخل الشباب ، بل يؤدي مالا إذا مات له ميت

لكي تصلى عليه صلاة الجناز(١) ، وبالإضافة إلى ذلك يظل الرجل منهم عمره كله تابعاً لرجل الدين في كل ما يتصل بعلاقته بالله سبحانه ، فإذا أراد الصلاة صلى عنه القسيس أو القس ووقف هو يسمع ولا يملك إلا أن يقول : آمين ، فإن المسلمين وحدهم من دون أهل الأديان هم الذين يقوم كل واحد منهم بصلاته بنفسه حتى لو كانت صلاة جماعة ، وفي غير الإسلام يصلي القس مع مساعديه نيابة عن الناس .

والحق أن أصدق وصف يطلق على الإسلام في هذا المقام هو أنه دين طيار ، ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح ، وإنك لتنظر إلى خارطة الأرض وتتأمل مدى انتشار الإسلام فتتعجب من سعته ، ويزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي التي فتحتها الدول ودخلت الجيوش فيها بالإسلام ، أما الباقي فقد دخلها الإسلام وملأ قلوب أهلها دون جهد منظم أو سياسة مرسومة لذلك ، إنما هو الإسلام نفسه ، جعله الله خفيفاً على القلوب قريباً إلى النفوس ، ما تكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتى يصل الإيمان إلى قلبه ، فإذا استقر في قلبه لم يكن هناك قط سبيل إلى إخراجه منه ، فهو الرّي الذي تظمأ إليه النفوس وتستقي به ، وهو الأمل الذي يخفف على الإنسان وطأة المسير في هذه الدنيا ويهون عليه الموت ، فالموت ليس آخر رحلة الإنسان مع الحياة بل هو المدخل إلى الحياة الأفضل والأبقى ، وبعد هذه الحياة حياة هي أسعد وأبقى لمن صدق إيمانه واتقى .

---

(١) وصلاة الجناز هذه ايضا درجات بحسب ما يدفعه اهل الميت ، فهناك صلاة بسيطة مختصرة لا تستغرق دقائق للفقير المعدم ،وهناك صلاة جناز يقوم بها القس وهو واقف على باب الكنيسة ، وهناك صلاة جناز طويلة وابسطة حمراء وتراتيل وبخور اذا تيسر لاهل الميت المال وجادوا به لجناز صاحبهم .

ولعل أكبر أسباب خفة الإسلام على القلوب هي وضوحه وصدقه ، فإنك إذ تؤمن بالإسلام لا تؤمن بأسرار أو أمور لا يقبلها عقلك كما ترى في الأديان الأخرى ، حتى الغيب الذي تؤمن به في الإسلام حقيقة ، فإن الإنسان لا يرى الله بالعين المبصرة وإنما يحس به في نفسه وفي كل ما حوله بالبصيرة المنيرة ، والحقيقة الكبرى في هذا الكون هي خالقه ، فهو الحق ولا حق غيره ، وأنت لا تؤمن بالله لأن داعيك إليه يأتي بمعجزات أو خوارق وإنما هو يلفت نظرك إلى عجائب الخلق وكل ما فيه معجز وخارق ، وأنت تراه رأي العين في شخصك الذي يعيش ويتحرك ويفهم لا تدري كيف ، فإذا لم تؤمن بالله فكيف تعلل حياتك وحركة جسدك ونبض قلبك ؟ فإذا آمنت بالله لم يكن لك مفر من أن تؤمن بنبيه الذي حمل إليك رسالته ، فالله سبحانه حق ونبيه صدق وكل ما يعدك به القرآن حق وصدق ، ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة الإسلام حتى يملأ نفسك ، وغاية ما تحتاج إليه ، من يذكرك بها ، وهذا معنى من معاني تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم .

ثانياً :

مسالك الاســـلام

● طرق التجارة

فإذا كانت دعوة الإسلام تلقى هذا القبول من الناس دون جهد مخصص لذلك فلا بد أن تكون هنالك مسالك تنتقل الدعوة عن طريقها مثلها في ذلك مثل الماء الذي ينساب في الأرضين والحقول ، فإن الماء يسري ولكن عن طريق مسالك تيسر انسيابه ، فهو لا يصعد إلى أعلى وإنما ينحدر ، ولا بد له في تحدره مع ذلك من مسالك يجري فيها نراها إذا تتبعنا جريان الماء على منحدر ، فإن الماء يتوخى المسيل السهل وينحدر فيه ، ويدور حول العقبات ليلتقي بمسيل آخر ، ولا تزال المسايل تتصل وتنفصل وتتلاقى وتتجمع حتّى تكون الجداول فالقنوات فالنهيرات ثم يكون النهر العظيم الدافق . والأنهار الدافقة الطويلة المجاري الكثيرة الفروع هي التي يحسب لها الحساب في قضايا العمران ، أما المسايل الرقيقة التي تنحدر في مسايل ضيقة ثم تختفي فلا يقوم عليها عمران ، وإذا كنا نتساءل الآن عن مسالك الإسلام فإننا نتحدث عن تلك الطرق التي تجمعت فيها مسايل الدعوة ونشأ عنها نهر دافق من الإيمان جعل البلد كله أو غالبيته إسلامياً ، وتلك هي المسالك التي تهمنا في هذه الدراسة .

فأول هذه المسالك طرق التجارة ، وإذا قلنا إن الإسلام دين «طيار» أي ينتقل من إنسان لإنسان ومن جماعة لجماعة كأنه يسري مع الهواء فلا بد أن يكون الإنسان الناقل متحركاً أو لا بد أن تكون الجماعة الناقلة متحركة أيضاً ، وليس هناك أنظم في حركة البشر من طرق التجارة ، لأن التجارات سلع مطلوبة للناس على مدار الزمان ، وفي عصرنا هذا تُنقل المتاجر عن طريق السفن والطائرات والقطارات ، والتجار ينتظرون وصول المتاجر إليهم دون أن يكلفوا

أنفسهم عناء الخروج للإتيان بالسلع من مصادرها ، أما في الماضي ، فكان التجار أنفسهم يخرجون للإتيان بما يتاجرون فيه ، فلم تكن هناك شركات نقل أو تأمين على بضائع ، ومن ثم فقد كانت طرق التجارة طرق اتصالات بشرية تسير فيها القوافل الضخمة التي قد يصل عدد أفرادها إلى الآلاف ، وكل تاجر معه رجاله وأتباعه وركائبه التي تحمل بضائعه ، فكانت القوافل لذلك أنهاراً متدفقة من البشر تسير في درب مطروق عامر بالسابلة على مدار العام .

وقد كان المسلمون في العصور الوسطى أكبر رجال القوافل ، فلم يؤثر عن الهنود أو الفرس أو المغول أو الأوربيين أنهم كانوا من أصحاب القوافل المنتظمة الكبرى ، لأن بلاد الهند والفرس والأوروبيين ليست فيها تلك المساحات الشاسعة من الأرض الصحراوية التي تتطلب تنظيم القوافل ، فهناك المدن والقرى على مساحات متقاربة والمسافرون والتجار ينتقلون من بلد إلى بلد أو من قرية إلى أخرى في مسافة يوم أو أقل ، ومن ثم فلم يَدْعُ الأمر إلى تنظيم القوافل الكبرى ، أما العرب فبلادهم صحراوية لا يمكن اتصال نواحيها بعضها ببعض إلا بواسطة القوافل الضخمة المحروسة أو التي تسير في أمان اتفاقات مع القبائل الضاربة على الطريق .

ثم إن البلاد التي كان العرب يجلبون منها البضائع كانت بلادَ صحارٍ في غالبها مثل هضاب إيران وصحاري وسط آسيا والصحاري المؤدية إلى الهند وبادية الشام وسيناء وصحراء مصر الشرقية ثم الصحراء الإفريقية الكبرى ، وكان العرب في صحرائهم قد أتقنوا تنظيم القوافل الكبرى قبل الإسلام ، وكانت مكة أكبر سوق تجارية قائمة على القوافل عرفها التاريخ ، وكان هاشم ابن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم أكبر رجل عرفه التاريخ بالمهارة في تنظيم القوافل والتجارة القائمة عليها ، فقد ورث هاشم مجد جده قصي بن كلاب منشئ قوة قريش وقائدها في الاستيلاء على مكة وتحويلها إلى قاعدة

للقرشيين ، وإذا كان قُصَيّ قائداً عسكرياً وسياسياً ماهراً عرّف كيف يقيم أمر جماعة مكة وما حولها ، فقد كان هاشم رجل تجارة ومال . استطاع أن يضع القواعد السليمة للتجارة المكية ، فنظم أمر المساهمات المالية التي يشترك بها أهل مكة في تجارة الشام واليمن ، ثم عقد الاتفاقات مع القبائل التي تسير فيها طرق القوافل من اليمن إلى مكة ومن مكة إلى بلاد الشام (وإلى مصر أو إلى غزة) أو إلى العراق وبهذا حقق معني «الايلاف» المذكور في القرآن الكريم ، وهو بمثابة إذن المرور الذي تعطيه الدول للسابلة والتجار لكي يسيروا في أمان الدولة في أراضيها ، وقد أخذ هاشم الايلاف من رجال كسرى وقيصر ووكيل الأحباش في الشُّعَيبة لتأمين متاجر مكة في الحبشة .

وبفضل تنظيم هاشم بن عبد مناف انتظمت تجارة مكة قبل الإسلام وأصبحت من أكبر الأسواق التجارية في الدنيا . وفي مدرسة هاشم تعلم العرب تنظيم القوافل تنظيماً دقيقاً ، وتوارث العرب ذلك فأصبحوا أعرف الناس بتجارة القوافل ونظمها ، وعنهم أخذ هذا الفن تجار وسط آسيا من المغول والترك والإيرانيين وتجار إفريقية من أهل المغرب فيما بعد ، ومع أن اللفظ الذي أطلق في لغات العالم على القافلة كان غير عربي الأصل وهو لفظ كارفان ، وهو فارسي معناه المحطة التجارية أو الحصن في المكان القفر (وقد عُرِّب على قيروان) إلا أن القوافل اقترنت في تاريخ الحضارة الإنسانية بالعرب ، فهم رجال القوافل وتجارتها غير مدافعين في ذلك ، ولقد تحدث المسعودي في « مروج الذهب » عن قوافل العرب ومهارتهم في إعدادها كلاماً مسهباً ، وفي كلام ابن بطوطة ما يفهم منه أن العرب اشتهروا بأمر تنظيم القوافل حتى أن تجار الترك والفرس والمغول كانوا لا يولون قيادة القافلة وتنظيمها إلا عربياً .

هذه القوافل كانت مسلكاً منتظماً من مسالك الإسلام ، فالعرب المسلمون هم سادة القوافل وأربابها ، ومعظم أهل القوافل كانوا مسلمين ، وكانت

هذه القوافل تخترق البلاد حاملة الإسلام إليها ، وكلما حطت القافلة في مكان رُفع الآذان وأقيمت الصلوات ورأى الناس – إن لم يكونوا مسلمين – أُلوف الناس منتظمين صفوفاً يقومون بصلاتهم في نظام وسمت ووقار وخشوع ، فيكون لذلك كله أبعد الأثر في قلوب الناس . هكذا انتقل الإسلام عن طريق التجارة والقوافل إلى وسط آسيا وجنوبها وجنوبها الشرقي ، وانتقل كذلك عن طريق القوافل من إفريقية المتوسطية عبر الصحراء الكبرى إلى إفريقية المدارية كما سنبين ذلك في مواضعه .

وكما كان العرب أمهر الناس في العصور الماضية في تنظيم القوافل وقيادتها فقد كانوا من أمهر الناس في ركوب البحار ، وقد اشتهر بذلك من العرب أهل اليمن وحضرموت وعمان خاصة . هنا نجد العرب قد مهروا في كل فنون الملاحة البحرية ، فأنشأوا مراكب التجارة التي تعبر البحار والمحيطات وأحكموها رغم صغر حجمها مثل الضو والبُوم، وعرفوا عمل الأشرعة وإحكام تركيبها وتسيير السفن بها في البحار العالية ، ودرسوا مهاب الرياح ومساقط الأمطار ومواقيت الأنواء وأتقنوا فن الملاحة البحرية ودرسوا البحار وطرقها وموانيها وأنواءها وظهر من بينهم ملاحون كبار يسمون بالربابنة اشتهر منهم أربعة عرفوا بليوث البحر أكبرهم وأشهرهم سليمان المهري وشهاب الدين أحمد بن ماجد .

ومهارة عرب جنوبي الجزيرة تلك في فنون الملاحة البحرية هي التي جعلتهم سادة هذه البحار حتى ظهر البرتغاليون في القرن السادس عشر الميلادي ، وقد ثبت الملاحون العرب للبرتغاليين ، وكان أهل عمان هم أول من كسر قوة البرتغاليين وأخرجهم من الخليج .

هذه التجارة البحرية التي مهر فيها العرب كانت مسلكاً عظيماً من مسالك الإسلام ، فسفن العرب هي التي حملت الإسلام إلى شرقي إفريقية

حتى سُفالة وموزمبيق ، وهي التي حملته إلى سواحل الهند الشرقية ثم بلاد ملقا ثم بلاد المهراج وهي أندونيسيا وما يليها إلى الشمال من جزر الفلبين .

● الحج :

ومسلك ثالث من مسالك الإسلام الكبرى هو الحج ، والحج ليس طريقاً وإنما هو عبادة أساسية من عبادات الإسلام ، ولكن أداء هذه العبادة اقتضى تنظيم طرق الحجاج أو طرق الحج ، وهي طرق معروفة استخدمت طرق التجارة حيناً وانتهجت لنفسها طرقاً خاصة بها في أحيان أخرى .

طرق الحاج هذه كانت عامرة بالنشاط على مدار العام ، لأن ميقات الحج محدد ، ولكن موعد خروج ركبان الحج لم تكن محددة ، فإن ركب الحاج المغربي كان يخرج قبل موعد الحج بعام ، وكان ركب الحاج الغيْني يخرج قبل الموعد بسنتين في حين أن ركب الحاج الأندونيسي كان يخرج قبل الموعد بمدة أطول ، لأنه كان يقطع الرحلة بالبر والبحر ، وفي كل ميناء كان الحجاج ينتظرون موعد السفينة الأخرى أو موعد خروج الركب إذا كانت المرحلة التالية بالبر ، ومعنى ذلك أن طرق الحج كانت عامرة بالحركة على مدار العام ، وفي رحلة ابن بطوطة تفاصيل توضح ذلك بأجلى بيان . لأن الحج كان المحرك الرئيسي لابن بطوطة في رحلاته ، فكان يطوف ويطوف ثم يحج ويعود بعد ذلك إلى الطواف .

وطرق الحاج كانت تخترق بلاداً لا يسكنها مسلمون أول الأمر ، فكانت هذه الطرق سبب دخول أهلها في الإسلام ، وعندما نصل إلى القرن الخامس الهجري ــ الحادي عشر الميلادي نجد أن طرق الحج تسير في بلاد إسلامية كلها والفضل في ذلك يرجع إلى الإسلام ثم الحج ثانياً .

وكانت الطرق الصوفية مَهْيَعاً واسعاً سلكه الإسلام للوصول إلى أقطار كثيرة وقاصية ويحتاج ذلك إلى حديث خاص .

وكانت للإسلام مسالك أخرى للانتشار دون حرب منها الدعاة الذين نذروا أنفسهم لنشر الدعوة دون أن ينتسبوا إلى هيئة أو نظام ، وسنلقي في هذا المبحث الكثيرين من هؤلاء ونرى قدر العملِ الضخم الذي قام به أولئك الدعاة .

ثالثاً : لا يخلو بلد من بلاد الله من اسلام :

ولو أننا أردنا إحصاءً شاملا بكل البلاد التي دخلها الإسلام بالدعوة والكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة لاستغرق البحث أضعاف هذا الكتاب لأن الإسلام كما قلنا دين الفطرة ، ينتقل من إنسان لإنسان ومن مكان إلى مكان في خفة الهواء ، والله سبحانه جعله قريباً إلى القلوب حبيباً إلى النفوس ، فما يكاد يعرفه إنسان صافي القلب سليم السريرة إلا وتفتح له قلبه ودخل فيه .

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل في دينه الحنيف سراً يشبه البلسم للقلوب ، فما من محزون أثقلته الأحزان ، إلا وجد في الإسلام عزاءه وشفاء سقمه ، وهذا ما نجده اليوم كثيراً في عالمنا الراهن في المجتمعات التي أبهظتها أثقال المدنية وأرهقتها مادية العصر ، ففي انجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة ألوف دخلوا الإسلام فراراً بأنفسهم من متاعب العصر وحيرته وضياع سلام النفس فيه . ولقد حكى ذلك المستشرق الانجليزي ديفيد كووان David Cowan الذي وصل إلى أرفع درجات التدريس في مدرسة الأبحاث الإسلامية في لندن ، وحدثني بقصة إسلامه ، وكيف أن الدنيا ضاقت به ذات مرة واستعصت عليه راحة النفس ، حتى شرح الله قلبه للإسلام وكان يعرفه حق المعرفة دراسةً ومعايشةً للمسلمين ، فوجد فيه راحته الكبرى ، وكان يعلم أن إسلامه سيحُول بينه وبين منصب عميد

المدرسة ، فزهد في المنصب ووجد في الإسلام أسمى مكان تطمح إليه نفسه .
وحكا لي شيئاً شبيهاً بذلك المستشرق أربري الذي نقل القرآن إلى الانجليزية ، وحرص على أن يسمي ترجمتـــه تفسيراً(١) ، لأنه أحس في نفسه أن كلام القرآن لا ينقل إلى البشر إلا باللفظ الذي نزل به على رسول الله ، أما تفسير كلام الله فجائز ، والتفسير قد يكون بالعربية وقد يكون بغيرها ، وهذا هو الذي فعله هو ، وكان يقول : إن كل ترجمة ، أياً كانت ، إنما هي تفسير ، فأنت إذ تنقل معنى عبارة إنجليزية إلى العربية لا تفعل أكثر من أن تفسر باللغة العربية ما جاء في العبارة الانجليزية ، ولهذا تسمى الترجمة في بعض لغات الغرب بالتفسير Interpretation ويسمى المترجم في اللغة الفرنسية بالمُفسر Interprête ومدارس الترجمة تسمى في بلاد الغرب بمدارس المفسرين Ecoles d'interprêtes .

نقول إن الإسلام في يومنا هذا مأمن الكثيرين من الخائفين غير الراضين عن مجتمعات الرقى المادي والصراع العنيف على متاع هذه الدنيا ، فيقبل الناس على الإسلام ويجدون فيه شفاء الصدور ، ولقد سألت واحداً من هؤلاء المؤمنين الألمان في أحد مساجد برلين : ودينك القديم أما كان يجلب إلى نفسك هذه الراحة وهو فيما أعلم دين سماوي يعبد أهله الله ؟ قال : أجل كنت قبل أن أدخل الإسلام أعبد الله ، ولكني كنت بعيداً عنه ، كنت لا أصل إليه إلا عن طريق القس ، أما الآن فإني مع الله حيثما كنت ، وهو سبحانه معي حيثما أكون : أستغفره وأحمده وأشكو إليه همي وألمي ، وأحس أنه قريب مني فتطمئن نفسي وتهدأ ، وأجد راحة كبرى ، قلت له : أما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قال ذلك في محكم كلامه ؟ إسمع هذه الآية : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان ،

---

(١) العنوان الذى استعمله اربرى The Coran Interpreted

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » (البقرة ١٨٧) فقال وقد أشرق وجهه : ما سمعت هذه الآية قط ولكني كنت أحسها ، كنت أحس أن الله قريب مني يستجيب إلى إذا دعوته .

• • •

وقد يبدو لبعض المبغضين للحق أن يجادل فيما ذهبنا إليه من أن الإسلام لم ينتشر بالقوة قط ، وينكر ما ذهبنا إليه من أن الفتوح ما كانت تقصد إدخال الناس في الدين رهباً ، وإنما كان قصدها أن تزيل العقبات التي تحول دون دخول الناس في دينه رغباً ، لأن كلمة الحق التي يأتي بها الإسلام ما تكاد تصل إلى النفوس الطيبة الصافية حتى تنفذ في شغافها وتنقلها إلى رحاب الإيمان . ولسنا بسبيل الجدل مع هؤلاء المنكرين المعاندين ، فهؤلاء أهل جدل وإفك ، ومهما نأتهم به من البينات فهم لا يؤمنون ، وهؤلاء أعفانا الله سبحانه من عناء جدالهم إذ قال في سورة الكهف « ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مَثَل ، وكان الإنسان أكثر شيء جَدَلا ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سُنَّةُ الأولين ، أويأتيهم العذاب قبلا ، وما نُرسل المرسلين إلا مبشرين ومُنذرين ، ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هُزوا » (آية ١٨/٥٥ ـ ٥٦) .

ولكننا لا نترك أولئك المجادلين بالباطل يسعدون بباطلهم ، بل لا نزال ندعوهم بالحسنى ونأتيهم بالبينات ، ونجادلهم بالتي هي أحسن ، مؤتسين في ذلك بمنهج نبينا صلوات الله عليه في موالاة الدعوة دون كلل أو ملل ، إلى جانب الحرص البالغ على أن تصل كلمة الحق إلى كل نفس ، فلعل ذلك أن يكون خلاصاً لها ، واعتمادنا في ذلك على الله سبحانه وتعالى الذي يحق الحق ويزهق الباطل :

« بل نقذف بالحق على الباطل ، فيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهق » (الأنبياء ١٨) .

أجل . لهؤلاء الجدليين نسوق براهين لا تحتمل الجدل ، من أحاديث أمم كاملة دخلت دين الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وحدهما ، فلم يُفرَض على أهلها الإيمان ولا أوجِفَ على بلادهم بخيل ولا ركاب ، إنما هي دعوة الحق وصلتهم ففضت المغاليق وفتحت الأبواب .

* * *

ومن المعروف عندنا أن بلاد الهند والجزء الغربي القصي من الصين هما آخر ما وصلته جيوش الإسلام فاتحة ، فكل ما تلا ذلك شرقاً إنما هو فتح خالص للإسلام وحده ، ولا جدال في ذلك ، وإذا كان الإسلام نفسه هو الذي فتح قلوب الأمم والشعوب في البلاد التي شملتها موجات الفتوح ، فإن البلاد التي نتحدث عنها هي فتوح الإسلام وصوافيه وحده دون أدنى ريب .

سنتتبع انتشار الإسلام فيما يلي الهند وغربي الصين شرقاً ونسير مع الإسلام المظفر الفاتح ، فإذا فرغنا من ذلك عدنا إلى الغرب فدرسنا فتوح الإسلام ، وحده في بلاد إفريقية المدارية مما يلي حزام الصحراء الكبرى جنوباً ، ثم نلم بعد ذلك بأطراف من فتوح الإسلام بدعوة الحق وحدها في بقية بقاع هذا الكوكب ، والله على كل خير مستعان .

● الاسـلام فى برمانيـا
وشبه جزيرة الهنـد الصينية

من نواحي الهند التي ضربت فيها جذور الإسلام وأزهرت شجرته وأينعت في تربتها ناحية مصب الجانج والبراهما جوترا ، وهو مصب كبير يأخذ شكل دلتا كثيرة الفروع شبيهة بدلتا النيل ، وهناك وإلى قرب مدينة بَتْنَا نجد بلاد البنغال والبِهار ، وكلتا الناحيتين كانتا دائماً من أفقر نواحي الهند لكثرة السكان وتوالي جوائح الفياضانات ، فإن الفيضان كلما جاء تغيرت مجـاري ترع الدلتا وعدت المياه على القـرى والناس ، ونتيجة لهذا الفقر هبط مستوى أولئك الناس في بعض أحقاب التاريخ وتغلب عليهم جيرانهم واستذلوهم ، وهبطت مكانة معظم الناس هناك قبل الإسلام إلى مراتب المنبوذين ، وتعالى عليهم البراهمة والهندوس ، فلما جاء الإسلام بسماحته ومساواته أقبلت جماهير البنغاليين والبهاريين على اعتناقه ووجدوا فيه الكرامة والإحساس الإنساني ، وأعزهم الله بملوك المسلمين أيام الخِلْجيينّ ومملوكهم كافور (١٢٩٠ م – ١٣٠٧ ﻫ) فارتفع قدرهم وتحسنت أحوالهم ونشطوا للعمل وخف عنهم الفقر ، وأقبلوا يعالجون ضبط الترع بما قبسوه من علوم من أتاهم من العرب والفرس.فانتعشت بلادهم وأحسوا بنعمة الإسلام عليهم ، فأكثروا من المساجد في بلادهم حتى أصبحت أعمر بلاد الدنيا بها ، وإذا كنا نقول إن القاهرة مدينة الألف مئذنة ، فإنهم هناك يقولون إن « دكا » مدينة الألفي مسجد ، وتلك هي البلاد التي انفصلت بنفسها عن الباكستان وأنشأت لنفسها دولة البنجلادش أي وطن البنغال .

وعندما نشطت حركة العمران واتصلت وشملت تلك البلاد نشط تجارها

وانطلقوا بالمتاجر إلى بقية بلاد الهند وإلى ما يليهم شرقاً من بلاد بِرْمانيا، وهي بلاد أنهار كبيرة أهمها الايراوادي والميكونج ، وهي كذلك بلاد غابات وأحراش كثيفة ، وكانت طرق المواصلات فيها تسير مع الأنهار وترعها ، إما في القوارب أو سيراً على القدم والظهر مع شواطيء الأنهار والترع .

وكانت بورما في القرن الرابع عشر الميلادي ، عندما دخل الإسلام بلاد البهار والبنغال تسمى برمانيا ، وكانت تنقسم قسمين ، برمانيا العليا وعاصمتها آبا على نهر الايراوادي وبرمانيا السفلى وعاصمتها بيجو على مصب الميكونج ، وكانت البلاد المجاورة للبنغال من برمانيا تسمى أراكان ، وكانت مملكة قائمة بذاتها فشملها الإسلام ، وامتد إلى برمانيا ، وأنشأ تجار المسلمين مراكز العمران والمساجد وسط الأحراش على ضفاف الإيراوادي والمكونج ، وكانت تلي برمانيا شرقاً من بلاد ما يعرف الآن بالهند الصينية بلاد سيام وهي تقابل اليوم ما يعرف بتايلاند أي أرض التاي أي أرض الشاي وكانت عاصمتها أيُوثيا ، ثم إلى الشرق نجد بلاد كمبوديا في مثل وضعها اليوم ، وإلى شمالها لاوس ثم أنام وهي ما يعرف الآن بالفيتنام شمالها وجنوبها . وسكان هذه البلاد جميعاً صينيون وسياميون ، وكانت سيام تمتد مع شبه جزيرة الملايو حتى خط عرض ٧ شمال خط الاستواء تقريباً وجنوب ذلك بلاد الملايو بما فيها ملقا ، ويسكنها شعب آخر يختلف كل الاختلاف عن الصينيين والسياميين ، ذلك هو شعب الملايو الذي يرجع إلى أصول أخرى غير أصول الصينيين فسكانه من الجنس البوليبزي الذي يعم جنوب شرق آسيا كله بما فيه الفلبيين والجزر شمالها إلى هاواى .

ومن بلاد أراكان انتقل الإسلام مع التجار إلى برمانيا وكسب الألوف من سكانها رغم الحرب العنيفة التي أعلنها عليه البوذيون ، وكهنة البوذيين من أشد الناس دفاعاً عن مذاهبهم ، لأنهم سادة مجتمعهم وشركاء الملوك

في خيرات البلاد ،وهذا كان بعض السبب في انتقال الصين والفيتنام وأجزاء أخرى من معاقل البوذية إلى الشيوعية ، فإن ذلك ليس إعجاباً بها ولا إيماناً بمبادئها ولكنه ضيق ونفور من طول ما أثقل كهنة البوذيين على الناس .

سار الإسلام في برمانيا مع مجاري الأنهار ، وعلى سواحل الطرق المائية والبرية ، قامت الجماعات الإسلامية والمساجد وتركزت في كبار القرى ، لأن كهنة البوذية والهندوكية قاوموا إنشاء المساجد في بلادهم ، واستعانوا في حرب الإسلام بالملوك وأصحاب المال والجاه ممن رأوا في الإسلام تهديداً لمراكزهم السياسية والاجتماعية .

ثم جاء تجار المسلمين من نواحي بلاد الهند الأخرى ومن إيران أيضاً فاستقروا في مدن الساحل وأنشأوا المتاجر ونشروا الإسلام ، ولكن أمر الإسلام لم يعظم هناك بسبب المقاومة الشديدة التي لقيها من كهنة البوذيين . ومن سوء الحظ أننا نجد في برمانيا أكبر معاقل البوذية الشانسية ، واليونجي أو الراهب هو السيد المطلق في القرية أو الحي ، والمعبد الذي يسمى« باليونجي – كياَونَجِ » هو مركز الحياة في القرية ، والبوذية مذاهب شتى ، ولكن مذهب الشانسية منها فيه مَشَابِه كثيرة من الإسلام في الظاهر فأصحابها يؤمنون بالبعث وحياة أخرى طيبة إذا كان المرء طيباً وشقية إذا كان خبيثاً ، ومن أعمال التقى عندهم إطعام الفقير وابن السبيل وإنشاء الباجودات وهي معابد البوذية ، وهم يُخرجون من أموالهم تبرعات تشبه الزكوات ويشترون بها الطعام ويجعلونه على أبواب المعابد ليطعم منه من شاء ، وربما كان هذا هو الذي حال دون توسع انتشار الإسلام في برمانيا،فإن الرجل من البرمانيين لم يدرك الفرق بين البوذية الشانسية التي هو عليها وبين الإسلام،والتشابه كما قلنا ظاهري ، ولكن الكهنة اجتهدوا في إقناع الناس بأن التشابه ظاهري وباطني .

على أي حال أنشأ الإسلام جماعات قوية من المسلمين في المدن والقرى

ولكنها لم تزدهر كما ستزدهر جماعات المسلمين في ملقا وهي بلاد كَلَه أو كلابار .

وبلاد الهند الصينية ليست من أوعر بلاد الأرض سطحاً ، ولكنها من أصعبها مواصلات ، فإن الجبال والمرتفعات والأراضي القاحلة ومناطق الأحراش تضع سدوداً وقيوداً حقيقية على التواصل والتلاقي ، ولهذا انقسم شبه الجزيرة هذا إلى هذه الأقسام السياسية المتعددة ، وسكنتها شعوب مختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف بسبب صعوبة التواصل . والفرق جسيم بين السِّياميين الشديدي السّمرة والأناميين صغار الأحجام أهل البشرة البيضاء ، والكمبوديين الذين لا يجمع بينهم وبين جيرانهم في شبه الجزيرة إلا الملامح الخاصة بالجنس الأصفر . ولكنها هناك لا تكاد تبين ، ولقد عُرف الصينيون بالإقبال على الهجرة والمعرفة بشئون التجارة ، ولهذا كثرت أعدادهم في كل بلاد شرقي آسيا ، إلا في الهند الصينية ، فهم لا يمثلون هناك إلا واحداً على خمسين من كتلة السكان ، وغالبية السكان هم الأناميون الذين يعمِّرون الثلث الغربي لشبه الجزيرة ويلي الأناميين في جنوبي شبه الجزيرة يعيش جنس التِّجام أو التشام ، وهم أناميون في الأصل ، ولكنهم سكنوا السواحل والطرف القصي الجنوبي من شبه الجزيرة الذي يسمى يُتْنكين ثم الأراضي المتصلة بملقا أو بلاد كَلَه ، وبين هؤلاء انتشر الإسلام وعم معظمهم ، لأن وجودهم على السواحل واشتغالهم بالتجارة يَسّر اتصال الإسلام بهم فدخلوا فيه . وقد آثار ذلك غضب كهنة البوذية فناصبوا التجاميين العداء ، وضاعفوا جهودهم في ردهم إلى البوذية فلم يوفقوا ، وثبت الإسلام عند التِّجام أو التّشام ، وانتشرت المساجد في بلادهم وفي شبه جزيرة ملقا .

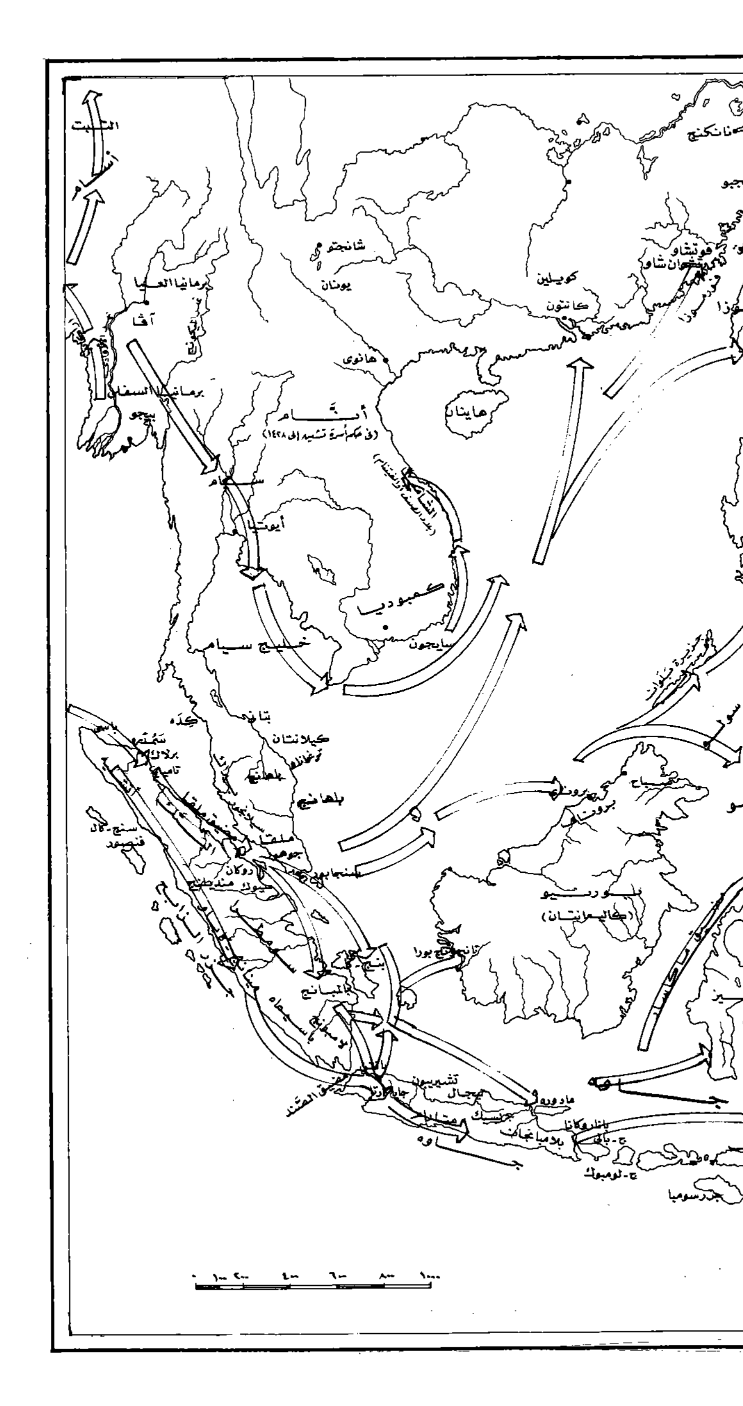
ومن الواضح أن الإسلام وصل أولئك الناس في شبه جزيرة ملقا عن طريق التجارة ، والغالب أن أولئك التجار لم يكونوا من العرب أو الفرس

بل من الهنود ، لأن مصطلح الإسلام هناك شديد التحريف وإن كانت العقائد والعبادات نفسها صحيحة . ويؤيد ذلك أن قلة من أهل شبه الجزيرة يتكونون من التامول ، وهم جماعة من الهنود هاجرت إلى جنوبي الهند الصينية واستقرت فيها واختلطت بأهلها ، ومن الممكن القول بأن التامول قاموا بدور كبير في نشر الإسلام في الهند الصينية ، فالتامول هنود مسلمون أهلُ سنّة ، وهم أهل رحلة وأصحاب متاجر ، ولعل هذا هو السبب في إسلامهم ، فقد اتصلوا بالعرب ، وهم أيضاً أصحاب رحلة ومتاجر ، ثم قام التامول بدورهم بنشر الإسلام بين جماعات التِّجَام في الهند الصينية ربما في القرن الرابع عشر الميلادي ، فقد انتهت دولة الخِلْجِيِّين في الهند سنة ١٣٢٠ م وهي التي وسعت نطاق الإسلام في شمال شرقي الهند ، ثم أن التجام أنشأوا بعد ذلك دولة كبيرة في أنّام عرفت باسم دولة الشامْبا على الشاطيء الشرقي للهند الصينية أي في إقليم أنّام ، ولكن هذه الدولة كانت قصيرة العمر .

وإلى يومنا هذا لا زالت بقايا أُولئك المسلمين الأنّاميين تعيش في جنوبي الهند الصينية في أعداد صغيرة . ولقد حاربتهم الشيوعية التي انتشرت هناك ، فهجر معظمهم إلى كمبوديا ، وإلى هناك طاردتهم الشيوعية أيضاً ، فإن كمبوديا تعاني من جماعات الشيوعية فيها ومن عدوان شيوعية الفيتنام عليها . حقاً إن عددهم قليل اليوم ، ولكنهم من الصابرين المحتسبين ، فهم من الذين يصدق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القابض على دينه كالقابض على الجمر) ، وأمثال هذه الجماعات الإسلامية المضطهدة جديرة منا بكل عون وعناية ، والذي يخشى اليوم هو أن تهاجر بقية أُولئك المسلمين الذين يعيشون في محنة إلى بلاد الملايو وهي شبه جزيرة ملقا وسننتقل للكلام على الإسلام فيها بعد قليل .

يتجمع المسلمون في كمبوديا والفيتنام في مراكز معينة في الجنوب ،


إنتشار الإسلام
في الهند الصينية والصين الجنوبية
وجزر أندونيسيا والفلبين
مندناو
غينيا الجديدة
بحر أرافورا



التبت
أسام
برمانيا العليا
آفا
برمانيا السفلى
بيجو
سيام
أيوتيا
شانجتو
يونان
هانوى
أنام
(فى حكم أسرة تشيه إلى ١٤٢٨)
كويلين
كانتون
هاينان
فوتشاو
كمبوديا
سايجون
خليج سيام
بتانى
كيلانتان
كده
سمطره
ملقا
جوهور
روكان
بورنيو
(كاليمانتان)
بروناى
تشيريبون
جاوه
ج. بالى
ج. لومبوك
ج. سومبا
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠

وهم ليسوا جميعاً من التجام فقط وإنما نجد فيهم الكثيرين من مهاجرة الملاويين إلى الهند الصينية ، وأكبر مواضع تجمعهم في سايجون وتشولون وتْشَاودوك وكوشن – شين وبنوم – بنه وكامبونج – لودنج وكما ميونج – تشام ولوفِلِك وكامبوت وبورسات وبضع مواضع أصغر من هذه وهم وهم يحْرُون في ممارسة عباداتهم على مثال إخوانهم مسلمي الملايو ، ويعيشون مجموعات متماسكة قوية ناجحة ومرهوبة الجانب ، وهم على الجملة من أنجح أهل الهند الصينية في التجارة وشئون المال ، وهم مهرة في شئون الزراعة وصيد السمك ، ونجاحهم يجلب عليهم السخط والحسد ، ويثير سخط الناس عليهم كهنة البوذية . ومعظم أولئك المسلمين أهل سنة وإن كان فيهم بعض الشيعة ، وهم يقرأون ما تدعو إليه حاجة الصلاة من القرآن قراءة صحيحة ، وفيما عدا ذلك فإن ألفاظ العربية تتحرف على ألستهم تحريفاً قد يخفى أصولها . وهم يقيمون صلواتهم بانتظام ويحرّمون أكل لحم الخنزير والكلاب والسلاحف والتماسيح والفيلة والطواويس والصقور والنسور . والكثيرون منهم يحملون لقب الحاج ، ومساجدهم كثيرة وصغيرة ، وهي تبنى في الغالب من الخشب على نشز من الأرض وهي تفرش بالحصر . وفي مدخل المسجد حوض ماء للوضوء ، ويستعمل المسجد كما هو الحال في معظم بلاد المسلمين مدرسة لتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم بصورة خاصة ، وهم لا يتركون صوم رمضان قط . وهم ينطقون لفظ الجلالة « أوفلا » . يريدون الله . وإلى جانب أسماء أولادهم الملاوية أو الكمبودية يعطون الأولاد أسماء إسلامية هي في الغالب عبد الله أو محمد أما البنات فمعظمهن يسمين فاطمة وينطقونها « فواطْمَه » .

وهم يستعملون في مصطلحهم الديني الألفاظ العربية محرفة ، وقد أخذوا هذه الألفاظ عن أساتذتهم الملاويين ، فنجدهم يقولون : مُوفاتي (مفتي) وقُوح كالل (كالل : قاضي) وراجاله كالل (قاضي) وقوان

بَاكيه (فقيه) وحكيم (طبيب) وكَتيب (خطيب) والمؤذن عندهم يسمى بِلالاً أياً كان اسمه .

ومعظم القائمين بأمور الدين فيهم من الحجاج الذين أدوا فريضة الحج ودرسوا شيئاً من الدين في الحجاز ثم عادوا ليكونوا أئمة وخطباء في المساجد .

وهكذا وبفضل حماس البنغاليين والبِهاريين ودعاة آخرين انتشر هذا الدين الحنيف كما رأينا في الكثير من نواحي شبه جزيرة الهند الصينية ، وحبب الله إلى أهلها الحج إلى بيت الله الحرام ، فيتحمل الرجل منهم مشاق الرحلة ونفقاتها ليزور مهد الإسلام ويؤدي فريضة الحج ويعود حاملا لقب حاجي ، ولهذا اللقب عندهم مقام عظيم ، وقد انصرف الكثيرون من هؤلاء إلى الدعوة للإسلام فساروا شرقاً في رفقة التجار وقوافلهم ، وصاحبهم كذلك نفر من العُبّاد والزهاد وجعلوا دأبهم نشر الإسلام وبناء المساجد حيثما استقروا ، وقد نجح الكثيرون من هؤلاء في نشر الإسلام في سيام وبِرْمانيا وأنّام ، وكانت شعوبها كلها تعرف عندهم بشعوب الخير ، وقد قيل إن بعضهم كان يستطيع أن يدخل في الإسلام ما بين مائة وثلاثمائة من الناس في يوم واحد .

ومن أشهر هؤلاء الداعية المشهور سيد يوسف الدين ، وقد بارح هذا الشيخ الصالح وطنه بغداد إلى بلاد السند لنشر الإسـلام بين أهلها ووفق توفيقاً كبيراً ، ثم انتقل إلى البنغال وواصل الدعوة بنجاح ، ومن هناك صـار في قوافل التجار إلى بلاد بِرْمانيا وسيام وفي برمانيا أنشأ زاوية لطريقته الصوفية وأنشأ كذلك عدداً كبيراً من المساجد ، ووضع للجماعات الإسلامية في برمانيا نظاماً سليماً قبل وفاته . وإلى يومنا هذا يعتبر السيد يوسف الدين أشهر شخصية إسلامية في الهند الصينية .

ومن أسف أن انتشار الشيوعية في نواحي بورما (برمانيا) وتايلاند يُسَبِّبُ الآن متاعب كبيرة للمسلمين في تلك الأصقاع ، وكان أول من حارب الإسلام فيها واجتهد في إيقاف تقدمه المستعمرون ، ما بين انجليز وفرنسيين ، وكان الأوروبيون عندما تمكنت لهم الأمور في جنوبي آسيا خلال القرن الماضي – وهو التاسع عشر الميلادي – قد وجدوا في الإسلام عقبة كبرى في مد سلطانهم ، وكانت الجمعيات التبشيرية نشيطة جداً ، إذ كان أمل أولئك الناس عظيماً في أن يستطيعون بما لهم من سلطان سياسي أن يدخلوا أهل البلاد – مسلمين وغير مسلمين – في دياناتهم ، فأنفقوا الأموال الكثيرة في ذلك المطلب دون نتيجة تذكر ، ولكنهم على أي حال أذاعوا عن الإسلام أباطيل كثيرة وأساءوا إلى أهله وحرضوا الناس عليهم . ثم إن المستعمرين ظنوا أنهم يضربون الإسلام إذا هم أحيوا البوذية وشجعوها وتقربوا إلى الكهان ، وقد كان لذلك أثره غير المحمود بالنسبة للإسلام والمسلمين . ومن هنا بدأت محنة الإسلام في معظم بلاد جنوبي آسيا شرقي الهند ، فسواء في بورما وهي برمانيا أو تايلاند وهي بلاد سيام أو كمبوديا ولاوس والفيتنام بقسميها نجد الإسلام اليوم يحارب في سبيل البقاء ، ونجد المسلمين على كثرتهم يعانون من الاضطهاد والمطاردة ، وتلك مشكلة كبرى من مشاكل الإسلام المعاصر .

● انتشار الاسلام فى جزر المهراج (١)

كان العرب سادة التجارة في المحيط الهندي وبحار جنوب آسيا حتى مجيء البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر الميلادي . وهذه السيادة التجارية هي التي مكنت لتجار المسلمين ومن جاء معهم من الدعاة من أن يكسبوا للإسلام ثاني أقطاره سعة وتعداد سكان وثروة ، وهي جزائر المهراج أي أندونيسيا أو بلاد الثلاثة آلاف جزيرة .

ومن العسير تحديد تاريخ دخول الإسلام هذا البلد الكبير . وتحكي المراجع أن تجار المسلمين أنشأوا لأنفسهم مراكز تجارية على السواحل من وقت مبكر ، ربما في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الهجريين ، الثامن والتاسع الميلاديين ، ونقطة الخلاف هي : من أين أتى أولئك التجار المسلمون : من شبه جزيرة الملايو أم من الهند ؟ والرأي الراجح هنا أن أوائل المستقرين من الذين قاموا بالدعوة للإسلام في الجزر كانوا من العرب ، ثم تبعهم الهنود . ويذهب سنُوك هُرْجِرُونْيَه إلى أن معظم الهنود الأوائل أتوا من ناحية الكُجَرات في شرقي الهند ، وكانت مراكزهم الأولى على الشاطئ الغربي لسومطره ، وكانوا يسمونها

---

(١) ورد هذا الاسم لجزائر اندونيسيا عند المسعودى ، أما ابن بطوطة فيسميها جاوة الصغرى وجاوة الكبرى ، وبقية الجغرافيين العرب يدخلونها فى بلاد الملايو ، والاسم القديم لهذه الجزر هو نوسانتنرا ، وعندما استقلت اندونيسيا كان هناك اتجاه يرى اطلاق اسم نوسانترا عليها ، ولكن الرأى استقر فى النهاية على اسم اندونيسيا ، والاصح أن نقول هندونيسيا ، وفى بعض الاحيان يطلق على جزيرة سومطرة اسم جزيرة الزابج .

سَمُدْرَة ، ومن الثابت أن العرب جاءوا إلى سومطرة بالمذهب الشافعي ، وأن الهنود أتوها بالمذهب الحنفي ، وكان المذهب السائد بين مسلمي السواحل الغربية للهند إذ ذاك ومنها أتوا . ويحكي ابن بطوطة أن سلطان سَمُدْرة المسلم في القرن الرابع عشر كان على علاقات ودية مع سلاطين دهلى من المغول .

وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن المسلمين عرفوا الجزر الأندونيسية – وخاصة سومطرة – من وقت مبكر ، فهناك قرب سَمُدْرَة التي سنتحدث عنها بعد قليل عثر الباحثون على شاهد قبرٍ لرجل مسلم توفي هناك سنة ٦٧٠م (٦٠هـ) وليس ذلك بمستغرب فقد عرف الملاحون العرب بلاد الملايو وجزر أندونيسيا من قبل الإسلام ، ولدينا كتابات كُتبت بالخط المسند على آثار وجدت في شمالي سومطرة ، ويُظَنّ أن أصحاب هذه الكتابات كانوا أصحاب مخازن ومنشآت تجارية عربية في تلك الجزر . وبعد دخول العرب جميعاً في الإسلام زاد نشاط تجار عُمان وحضرموت واليمن في المتاجرة مع أهل تلك الجزر ، وقد بعث الإسلام فيهم روحاً جديدة وأعطاهم طابعاً حضارياً أرقى بكثير مما عرفته الجزر إلى ذلك الحين ، ونستطيع القول بناء على المعلومات التي يقدمها المسعودي في « مروج الذهب » عن هذه الجزر أنها كانت إذ ذاك معروفة للمسلمين معرفة كبيرة ، فهو يذكر بحركلاهبار (كَلَه بار) ويقول « وتفسير ذلك بحر كله ، وبحر كردنج(١) ثم يليه بحر الصنف وهو البحر الواقع شرقي الهند الصينية ، ويقول المسعودي « وفيه مملكة المهراج وجزيرة سريره ومساحتها في البحر نحو من أربعمائة فرسخ ، عمائر متصلة وبه جزيرة الزابج والرامني(٢) والزابج هي جزيرة سومطرة ورامني مجموعة من الجزر غربي سومطرة تسمى

---

(١) صحته كندرنج وهو فى رأى جابر بيل · فران راس سان جاك على الساحل الشرقى للهند الصينية (انظر العرب والملاحة فى المحيط الهندى) تأليف جورج فضلو ترجمة د·يعقوب بكر ، ص ٣٢٢

(٢) المسعودى : مروج الذهب ١/ ١٥٤

أحياناً (واقواق الصين) أما سريرة فالغالب أنه اسم مملكة كانت في سومطرة إذ ذاك .

وقد انتهج تجار المسلمين ودُعاتهم نهجاً قويماً في سلوكهم ومعاملاتهم مع الناس مما أدى إلى اجتذاب الناس لدين الله وإدخالهم فيه ، فوثّقوا علاقاتهم بالناس واختلطوا بهم وتزاوجوا معهم وأدخلوهم في الإسلام ، فنشأ أولادهم مسلمين ، وعن هذا الطريق تمول التجار واقتنوا الضياع والدور واتخذوا العبيد وأدخلوهم في الإسلام ، وأصبحت لهم منعة وقوة بفضل معارفهم وأصهارهم وأولادهم ورقيقهم ، وأصبح لهم تبعاً لذلك بين الناس جلالة ، وقدر ، وتعاونوا فيما بينهم في ذلك فزاد جاههم ، خاصة وقد تكلموا لغة أهل البلاد وأدخلوا الأغنياء وعلية القوم وأهل السطوة من أهل البلاد في الدين . وكانوا بطبيعة الحال أهل حضارة وثقافة بفضل الإسلام وحضارته ، ومن هنا تمكنوا من احتلال مكانة رفيعة وأصبحوا قادة الناس وزاد دخول هؤلاء في الإسلام .

ـ سومطرة

ويبدو أن أول جماعة إسلامية ذات قدر قامت في أندونيسيا كانت في إتجيه أو اتشيه Acheh في شمال غربي سومطرة أو سمودْرَه ويقال كذلك أن منشأها كان داعية عربياً يسمى عبد الله عارف ، وقام تلميذ له يسمى برهان الدين يحمل الدعوة حتّى برياماز على الساحل الغربي لسومطرة أيضاً ، وبلغ من تمكن الإسلام هناك أن رجلا مسلماً استطاع أن يقيم أسرة حاكمة وتسمى باسم جيهان شاه « ويغلب على الظن أنه هندي الأصل ، ثم لم يلبث أن أصبح أندونيسياً ، وتزوج من أهل البلاد وتسمى باسم سِرِي بِنْدُوحا سلطان .

ظل انتشار الإسلام في سومطرة مقتصراً على السواحل زمناً طويلا ، لأن الهندوكية كانت عميقة الجذور في الداخل تؤيدها مملكة تسمى منانْج كاباو .

ويقول ماركوبولو الذي قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي أن غالبية السكان هناك كانوا على الوثنية فيما عدا مملكة بِرلاك الواقعة على الساحل الشمالي الشرقي لسومطرة تجاه ملقا ، فقد كان أهلها فيما قال مسلمين بسبب كثرة تجار العرب هناك .

ومن «اتْشيه» تقدم الإسلام جنوباً على ساحل سومطرة الغربي حتّى وصل المسلمون في الساحل الجنوبي ثم الشرقي وصعد وامُسَاحلين حتّى وصلوا إلى أرو Aru تجاه ملقا أيضاً ، وبذلك وصلوا إلى مملكة برلاك من الناحية الشرقية ، وكان زعيم الجماعة التي حملت الإسلام هذه المسافة الطويلة يسمى الشيخ إسماعيل ، كان شريف مكة قد أرسله ليعمل على نشر الإسلام في سومطرة ، ومن برلاك سار الشيخ اسماعيل إلى مدينة سمودرة وكانت الرياسة فيها لرجل يسمى ماراسيلو فتمكن الشيخ اسماعيل وجماعته من إدخاله في الإسلام ، وتسمى بعد إسلامه باسم الملك الصالح ، وتزوج ابنة ملك برلاك وأنجب منها ولدين ، وعمل على توسيع رقعة مملكته الإسلامية ، فضم إليها مملكة باساي على الساحل الشمالي لسومطرة ثم أورث كلا من ابنيه نصف مملكته .

وقد كان ابن بطوطة في سمودرة سنة ١٣٤٥م وهو يحدثنا عن ملكها المسمى بالملك الظاهر واتساع ملكه وعدله وتقواه وثروته . ويبدو أن الملك الظاهر كان أحد ولدي الملك الصالح الذي ذكرناه .

وفي نفس الوقت كان الإسلام قد أخذ طريقه في داخل الجزيرة حيث دخل الناس فيه أفواجاً ، ولكنه لقي مقاومة من أهل مملكة البَتَك في وسط الجزيرة ، غير أن هذه المقاومة أخذت تضعف نتيجة لسياسة الهولنديين في القضاء على على القوى السياسية القائمة في جزر أندونيسيا ، فلما قضوا على السلطان السياسي للبَتَك انفتح الطريق أمام الإسلام ، وأقبل عليه الناس أفواجاً ، واعتبروا

الدخول في الإسلام تعبيراً عن احتجاجهم على الهولنديين ، بل بلغ من إقبالهم على الدين في بلاد البتك أن من كان قد تنصر من أهلها على يد هيئات التبشير انتقل إلى الإسلام الذي اتخذ طابعاً قومياً محلياً . ولهذا السبب نجد أن الإسلام تمكن من اجتذاب أهل بلاد بالمبانج الواقعة في جنوب سومطرة ولم يتم إسلام هذه البلاد إلا في أوائل القرن العشرين .

ـ جـــاوة

وقد دخل الإسلام جاوة من شبه جزيرة ملقا ، ولم يلبث أن عمها جميعاً بعد جهود طويلة ومثابرة من الدعاة لأن دعاته لم يجدوا أية مقاومة ، فإن معظم الجاويين في دواخل الجزيرة كانوا في ذلك الوقت على الوثنية فسهل انتقالهم إلى الإسلام ، ويرجع معظم الفضل في ذلك إلى داعية نشيط يسمى الشيخ ابراهيم المتوفي سنة ١٤١٩م ، وستتحدث عنه فيما بعد ، فقد تمكن هذا الرجل وتلاميذه وأتباعه ومن جاء بعدهم من إدخال أهل جاوة جميعاً في الإسلام قبل القرن السابع عشر ، وأصبح الشعب الجاوي من ذلك الحين شعباً إسلامياً أصيلا حتى أنشيء لطلابهم رواق خاص بهم في الأزهر الشريف سمي برواق الجاويين . وللإسلام في جاوة تاريخ طويل ، لأن جزءاً كبيراً من المناطق الساحلية لجاوة عندما وفد الإسلام عليها على أيدي تجار العرب ومهاجريهم كان داخلا في نطاق الديانة الهندوكية وحضارتها وكانت التقاليد الهندوكية قد ارست قواعدها على سواحل الجزيرة فلم يستطع دعاة المسلمين وتجارهم أول الأمر هناك شيئاً .

ويقال أن بواكير إسلام جاوة بدأت على يد أمير من أبناء ملك « باجاجاران» وكانت مملكة صغيرة على الساحل الغربي للجزيرة ، ويقال إن هذا الرجل ترك العرش لأخيه واشتغل بالتجارة ، ، فذهب إلى بلاد العرب وهناك أسلم وتسمى باسم حاجي بنْرُوا ، وعندما عاد إلى وطنه لم يوفق إلى إدخال أخيه وأسرته في الإسلام فهرب إلى الأدغال واختفى .

وفي النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي قامت حركة جديدة للدعوة على يد داعية يسمى ملك ابراهيم أو الشيخ ابراهيم يقال أنه من أحفاد زين العابدين حفيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد استقر هذا الرجل داخل الجزيرة بين القبائل الفطرية وأخذ يدعو إلى الإسلام ، وطمحت نفسه إلى أن يكسب إلى الإسلام راجاما جاباهيت » « الهندوكي وكانت مملكته تشمل معظم الجزيرة وكاد يوفق لولا ظروف سيئة لا يد له فيها حالت دون توفيقه ، ولكنه كسب إلى الإسلام عدداً ليس بالقليل من سكان الجزيرة ، وتوفي سنة ١٤١٩ م ودفن في جريسيك ، وما يزال قبره هناك إلى اليوم ويفهم من رواية لسائح صيني زار جاوة سنة ١٤١٣ م أن المسلمين كانوا قد كثروا في البلاد حتى أصبحوا يعدون من الطبقات الظاهرة في المجتمع .

وفي ذلك الحين كانت تقوم في الجزيرة الأمارات الوسطى والشرقية وكانت أغنى هذه الأمارات وأكبرها أمارة ماجاباهيت الهندوكية التي ذكرناها آنفاً . وفي أقصى الغرب قامت أمارات أخرى أكبرها تشيرمْبون . وقد انتشر الإسلام في شرق الجزيرة بفضل داعية من أصل ملوكي يسمى « رادن رحمت » أقامه راجا ماجاباهيت أميراً على بلدة تومابل على الساحل الشمالي الشرقي ، فحول أهلها كلهم إلى الإسلام .

وكان رادن رحمت قد أرسل داعية يسمى الشيخ خليفة حسين إلى جزيرة مادورة فتمكن من تحويل أهلها للإسلام ، وبنيت المساجد في كل هذه الأقطار التي دخلت دار الإسلام . وفي سنة ١٤٧٨م تمكن المسلمون من القضاء على سلطان راجاماهييت حامي الهندوكية ، وبذلك انتقلت السيادة في شرقي جاوة إلى المسلمين ، ثم انتشر الإسلام في جنوبي جاوة . وتأخر إسلام وسطها بضعة قرون ، ولكنه تم بعد جهود مضنية قام بها الدعاة وأهمهم الشيخ نور الدين ابراهيم أحمد ، وقد أرسل هذا الشيخ ابنهمولانا حسن الدين إلى ولاية بَنْتام

في الغرب فنجح في إدخال أهلها في الإسلام . وخلال القرن السابع عشر نجد أن غربي جاوة قد تم إسلام أهله وبذلك أصبحت جاوة بلداً إسلامياً .

– بورنيو (كليمانتان)

ومن جاوة وسومطرة انتقل الإسلام إلى جزيرة بورنيو وانتشر على ساحلها الغربي والشمالي ، وتحولت سلطنة بروناي إلى الإسلام بعد أن عم الإسلام غربي الجزيرة كله . أما بلاد الداخل فقد أبطأ توغل الإسلام فيها نظراً لوعورة سطحها وتفرق الداخل بين مئات من القبائل الوثنية .

وانتقل الإسلام من جاوة إلى مجموعة جزائر سِلِبيس ودخلت فيه دون صعوبة القبيلتان الكبيرتان اللتان تسيطران على الجزيرة وهما ماكتبار والبوجي ثم لم تلبث قبيلة الغور التي تقطن الداخل أن أسلمت ، وطلب المسلمون من في سلبيس أئمة ودعاة من أهل مملكة اتشِيه فلبوا طلبهم وأرسلوا إليهم عدداً كبيراً من الدعاة .

وفي أوائل القرن السابع عشر كانت كل مجموعة جزائر سلبيس قد دخلت في الإسلام وتبعتها جزيرة لومبُوك ، أما جزيرة بالي الواقعة بين لومبوك وجاوة فقد كان الإسلام قد غزا جزءاً منها عندما أقبل الهولنديون ، وقد افتتن هؤلاء بها نظراً لجمال مناظرها الطبيعية ومعابدها البوذية وحسن نسائها وامتيازهن في الرقص الأندونيسي التقليدي ، فاعتبروها منطقة تسلية ومتعة وسياحة . وأنشأوا فيها الفنادق ودور اللهو ، ولم يأذنوا للدعاة بالعمل فيها فتوقف انتشار الإسلام فيها ، ولا زالت إلى يومنا هذا جزيرة سياحية أو مركزاً للهو في هذا الأرخبيل الكبير .

أما مجموعة جزر الصُّند الصغرى التي تلي لومبوك شرقاً وأكبرها جزيرة تيمور فقد دخلت في نطاق الإسلام في نفس الوقت أي خلال القرن السابع

عشر ، وقد ضمتها جمهورية أندونيسيا إلى بلادها في الستينات من هذا القرن عقب وقوع الانقلاب الحالي في البرتغال بعد موت المستبد الغاشم سلازار .

ومن غرب سومطرا هاجرت إلى شبه جزيرة الملايو جماعات إسلامية فيها تجار ودعاة كثيرون واتجهت إلى الطرف الجنوبي من ملقا وأخذت تعمل على نشر الإسلام من أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ثم صعدت حتى وصلت مدينة ملقا عاصمة مملكة ملقا . ثم أقبل إلى هذه المملكة تاجر وداعية عربي من جدة يسمى سيدي عبد العزيز ، وقد تمكن هذا الشيخ من إقناع ملك ملقا بدخول دين الله وسماه محمداً ، وتبعه في إسلامه أهل مملكته وأصبحت مملكة ملقا أولى الممالك الإسلامية في شبه الجزيرة وتبعها غيرها . مثل مملكة قويدة في شمال شبه الجزيرة ، وقد تم إسلامها سنة ١٥٠١ ، وكانت قبل ذلك هندوكية يحكمها ملك يلقب بالراجا وقد دخل الإســـلام هذه المملكة على يد داعية عربي يسمى عبد الله . وأمر الراجا ببناء المساجد في بلاده ، وجعل لكل مسجد أربعين من القومة لصيانته والإشراف على شئون العبادة ثم اتصل راجا قويدة بسلطان اتجيه ، وأرسل هذا إليه كتاباً يخطب وده وأرسل إليه بعض الكتب الدينية الإسلامية .

وهكذا نرى أن الإسلام في مسيره في جزيرة أندونيسيا التي كانت تسمى بجزر الهند الشرقية قد قفز في طريقه شبه جزيرة ملقا ليصل إلى بقية الجزر ، وستتحدث عن إسلام ملقا بعد قليل .

• • •

وقد يقع في خاطر بعض الناس بسبب هذا الإيجاز الشديد الذي توخيناه في التأريخ لدخول الإسلام الجزر الأندونيسية وانتشاره فيها أن الأمر تم في سهولة دون مشقة ، فإن نجاحاً باهراً كهذا الذي رأيناه لا يتم دون تضحيات كثيرة وصبر طويل ، فإن العقبات أمام هؤلاء الدعاة كانت لا تقل عما لقيه

دعاة الإسلام في بلاد الترك في أقصى شرقي بلاد الإسلام ، فيما بينها وبين الصين ، فإن أراضي أندونيسيا وعرة صعبة المداخل بسبب الجبال والأحراش والمستنقعات وكثرة المجاري المائية ، فكان على الدعاة أن يصبروا ويصابروا حتّى يصلوا إلى الجماعات الأندونيسية في داخل الجزر ، فإذا وصلوا كان عليهم أن يتصرفوا بذكاء وخلق قويم حتّى يكسبوا ثقة الناس فيأذنوا لهم بالدخول والاستقرار ، ثم مباشرة الدعوة في رفق ، وكان أولئك الدعاة في الغالب تجاراً يعتمدون عل مكاسبهم من التجارة في مواصلة الدعوة للدين ، فما كانت وراءهم دول تمدهم بالمال ولا جماعات تواليهم بالتأييد ، ولقد حكى الباحث الهولندي «شريكة» في تأريخه عن ملوك جاوة قبل الإسلام وبعده كيف أن أولئك الدعاة كانوا لا يبالون بشيء في سبيل نشر الإسلام ، فقد كان بعض رؤساء القبائل الوثنية في دواخل جاوة يشترطون على التاجر الراغب في دخول بلادهم أن يتزوج من الفقيرات والأرامل المسنات ومن لا عائل لهن ، فكان التاجر المسلم لا يبالي بما ينفق من مال وما يخسر من تجارة في سبيل الاستقرار وكسب ثقة الناس ، وقد تولى تاجر حضرمي مسلم أمور نحو مائة فقيرة معوزة من بنات القبائل ، وتعهد بأن يأتي بأزواج لهن ، وفعل ، وأمهر البنات والنساء جميعاً وضاع ماله كله في هذا السبيل ، ولكنه قبل أن يموت فقيراً رأى ثمرات تضحيته ، فإن هذه الزيجات التي تحمل عبئها أطلعت العشرات من البنين والبنات للإسلام ، وهؤلاء بدورهم تزوجوا من أهل البلاد ، فانتشر الدين بفضل سماحة هذا الرجل انتشاراً واسعاً في بلاد كادو وهي من أوعر نواحي جاوة ، وجدير بالذكر أن الهندوكية كانت متأصلة في تلك الولاية ، وكان رهبانها يبذلون أقصى الوسع في إيقاف تقدم الإسلام ، ولكن التجار الهنود الذين كانوا يقيمون هناك ، وهم عماد القوة الهندوكية كانوا يتعالون على الفقراء ولا « يتنازلون » إلى التعامل معهم فضلا عن مصاهرتهم ، وكان كل تعاملهم مع الأغنياء وذوي الجاه ، فلما فعل المسلمون ذلك تبين للناس فضل

الإسلام وإنسانيته ، فأقبل الناس يدخلون فيه أفواجاً ، وقد أعجبهم ما وجدوا فيه من سماحة ويسر ، ومن حسن الحظ أنه كان من بين هؤلاء الدعاة التجار رجل من أهل العلم بالفقه يسمى في النصوص « زاكتين » والغالب أنه تحريف لزكيّ الدين ، فأنشأ هذا الرجل مدرسة لتعليم الفقه والشريعة تعلم فيها العشرات من بين أبناء التجار المسلمين وأهل البلاد قواعد الشرع وعرفوا فضائله ، فبينما كانت الشرعة الهندوكية تجعل إرث الرجل كله لابنه الأكبر دون سواه قسّم الإسلام الميراث بالعدل والقسطاس بين ورثة الرجل ، ثم ان الهندوكية كانت تحرم المرأة من الميراث بل كانت تدع لأسرة المتوفي الحق في طردها من الجماعة ، وكان الكهنة يزينون لها إحراق نفسها حية مع بدن زوجها المتوفي ، فلما رأى الناس أن الإسلام يعطي المرأة حقها كاملا في الميراث ، ويدعها حرة التصرف في مالها ويدعو إلى الرفق بالأرامل ورعاية أموالهن أخذوا ينتقلون إلى هذا الدين السمح . وكان التاجر الهندوكي إذا أراد الإحسان على فقير ألقى إليه ما يريد إعطاءه إياه بعيداً عنه ، ولم يكن يحق للفقير أن يتقدم لأخذ هذا الإحسان المهين إلا بعد أن يبتعد السيد ، فإذا بالإسلام يجعل لهذا الفقير « حقاً » في مال الغني يأخذه بأمر الدين وعزته دون امتهان نفسه . ولقد حرض الرهبان ملك الناحية على المسلمين ودعاتهم وقالوا له إن الإسلام إذا انتشر في الناحية أتى على ماله وأفقره ، فقال له الشيخ زكي الدين إن العكس هو الصحيح ودعاه إلى دخول الإسلام ونزل له عن كل ماله تعويضاً عما يمكن أن يخسره في الزكوات ، فلما أسلم الرجل وأدى الزكاة زاد حب الناس له وأدوا إليه الأموال طواعية فزاد ماله وبارك الله له فيه ، فاستدعى الرجل الشيخ زكي الدين ليرد له ماله ، فأبى الرجل الصالح منه ذلك ، ثم وافق على أن ينفقه في الحج ، فاشترى سفينة وأدخل فيها من أراد الحج من المسلمين والمسلمات الجدد ، ووصل إلى مكة المكرمة ومعه مائتان من الحجاج ، وقد سُر بهم شريف مكة وأكرمهم وتحمل نفقات إقامتهم في مكة والمدينة ، وعادوا إلى بلادهم يحملون لقب الحاج ، فكانوا

بركة على البلاد لأنهم انصرفوا إلى شئون الدين ونشره .

وقد كان دعاة الإسلام بصفة عامة يلقبون بالسادة أو الأشراف أو الأولياء ، وكان بعضهم بالفعل ينتسبون إلى آل البيت ، ولكن التسمية غلبت عليهم ، وكان لها أثر بعيد في اجتذاب الناس إليهم ، فكان رؤساء القبائل وكبار القوم يرحبون بمصاهرتهم التماساً للبركة ، وقد كان للمصاهرات أبعد الأثر في إسلام أهل أندونيسيا ، فقد كان الغالب أن يتزوج التاجر المسلم الوافد وينشيء أسرة ، ويخرج أولاده مسلمين ، وقد دلت شواهد القبور التي عثر عليها الباحثون في شمال سومطرة ، في ولايات أتشيه وسمدره وباسي على أن الأمراء كانوا يرحبون بتزويج بناتهم من أبناء تجار المسلمين ، وفي كثير من الأحيان كان الصهر الشاب يرث عرش حميه إذا مات ، وبهذة الطريقة تحول الكثير من الإمارات إلى الإسلام .

وقد أنفق تجار المسلمين على الحج ألوفاً من الدنانير ، فإن الحج إلى بيت الله الحرام كان من أقصى أماني شباب المسلمين الأندونيسيين ليعود الواحد منهم بلقب الحاج ، فلم يبال التجار بنفقات الحج وحملوا في السفن المئات من أبناء البلاد وأعانوهم على الحج ، فعادوا من صلحاء المسلمين ودعاة الإسلام .

وقد بلغت حركة انتشار الإسلام في جاوة وسومطرة وغيرهما من مجموعات الجزر الأندونيسية أوجها في القرن السادس عشر الميلادي عندما دخل البرتغاليون البلاد غزاةً نهابين ، فكان تصرُّف البرتغاليين مما دفع الناس إلى الإسلام ، فقد أخذ تجار المسلمين ودعاتهم جانب أهل البلاد وناضلوا في سبيلها هم ومن كان يسلم على أيديهم . وارتبط اسم الإسلام بالعدالة ونصرة المظلوم والدفاع عن البلد في حين ارتبطت المسيحية باسم البرتغاليين وهم غزاة نهابون ، فكسب الإسلام من وراء ذلك كسباً عظيماً .

ولم تستقر أقدام البرتغاليين في جزر الهند الشرقية ، وهي أندونيسيا ، لأن

الهولنديين كانوا قد رسموا سياستهم على أن تكون تلك الجزر ملكاً لهم من دون غيرهم من الأوروبيين ، فأخرجوا البرتغاليين وردوا الإنجليز عنها وكسروهم في معركة حاسمة ، وانتهى الأمر بأن انفردوا بها ، فلما استقرت أقدامهم وجدوا أن الإسلام قد انتشر بين أهل البلاد وأصبح الديانة السائدة ، والحق أن الهولنديين لم يقوموا بجهد يذكـــر في نشر المسيحية في الجـــزر أو في محاولة إيقاف تقدم الإسلام ، لأن اهتمام الهولنديين الأكبر كان موجهاً نحو جمع المال واحتكار نقل التوابل والعطور وسن الفيل والأبنوس وما إلى ذلك من خيرات البلاد إلى بلاد الغرب ، وقد وجد الهولنديون في تجار المسلمين معيناً لهم على ذلك ، فقد كان أولئك التجار ، ما بين عرب وأندونيسيين منبثين في دواخل البلاد قادرين على أن يجمعوا المقادير الضخمة من الحاصلات ونقلها إلى المراكز التجارية الهولندية على السواحل ، ومن هنا فقد وجد الهولنديون أن الأفضل لهم من الناحية المالية والتجارية أن يتركوا الإسلام وشأنه لكي يخلصوا هم بالتجارة . ولقد كسب الهولنديون من جزائر الهند الشرقية أضعاف ما كسب الإنجليز من الهند كلها بفضل هذه السياسة ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاربة الإسلام كما فعل الإنجليز في الهند ، وكما فعل الفرنسيون في الشمال الإفريقي ، ولم ينفقوا على المرافق من أرباحهم شيئاً يذكر ، لأن الإنجليز والفرنسيين عملوا على شق الطرق وتمهيدها وتأمين السبل تأميناً للتجارة وتمكيناً لسلطانهم السياسي في البلاد ظناً منهم أنهم باقون فيها إلى آخر الدهر . وأما الهولنديون فكانوا يتسلمون المتاجر على السواحل دون نصيب ، وكانوا يدفعون فيها سعراً زهيداً ليبيعوها في أوروبا بأسعار باهظة ، وإلى هذه السياسة يرجع الفضل في ذلك الغنى العريض السابغ الذي تتمتع به هولندا وسط بلاد أوروبا رغم ضآلة حجمها ، فقد كدس الهولنديون الذهب والماس والفراء وكل ما غلا ثمنه في بلادهم ، فأصبحت من أضخم بلاد الأرض أرصدة ، وتمكنوا من المساهمة في معظم رؤوس أموال الشركات الأوروبية والأمريكية .

وقد أشار على الحكومة الهولندية بتلك السياسة مستشرق هولندي معروف عندنا بأبحاثه الكثيرة — وإن كانت كلها مغرضة متحاملة — وهو سْنُوك هورْجرُنْيَه Snouck Hurgronje في مذكرة مشهورة قرأناها باللغة الفرنسية: وفيها ينصح الرجل الحكومة بترك المسلمين « غارقين » كما قال في شئون دينهم حتّى يخلص لنا أمر التجارة والاستغلال الاقتصادي فلا يضايقوننا فيه . . . بل نصح الرجل الحكومة بأن تشجع انتشار الإسلام في الجزر حتّى يزداد المسلمون في الدين « غرقاً » وينعم الهولنديون بالغرق في المال ، فكانت المراكب التجارية الهولندية المقبلة فارغة من أوروبا تأخذ حجاج الأندونيسيين من الشواطيء العربية والهندية بأجر لا يذكر وتنزلهم في جدة وينبع ، ولم يحاول الهولنديون إدخال الحروف اللاتينية في البلاد لطباعة الكتب الأندونيسية ، بل عملوا على تشجيع استعمال الحروف العربية الّتي كانت مستعملة للكتابة في البلاد قبل دخولهم ، فظلت اللغة الأندونيسية تكتب بالعربية ، وإلى حين قريب كانت في حي الأزهر مطابع تطبع الكتب الملاوية والجاوية والأندونيسية وكانت القاهرة إذ ذاك مركز الطباعة العربية في العالم .

وهكذا نجد أن هذا المستشرق قد خدم الإسلام من حيث لا يحتسب فكانت القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر هي فترة الانتشار الحقيقي الشامل وتثبيت الأقدام في تلك البلاد العظيمة .

* * *

ولكن الهولنديين اتجهوا إلى تأييد القانون العرفي المعروف بالعادات على حساب الشريعة الإسلامية ، كما فعل الفرنسيون في المغرب عندما أرادوا محاربة الإسلام بإصدار « الظهير البربري » في المغرب الأقصى . والعادات أو «آدات»

عرف بدائي جرى عليه الناس في أقضيتهم في البلاد قبل دخول الإسلام ، وهو عرف لا يقوم على عدالة أو منطق ، وإنما هو يقوم على ممارسات وثنية تعطي الحق في الغالب لصاحب القوة ، وكان يقوم بأمره حكماء من أهل البلاد يعيشون منه ويتصرفون فيه كيف شاءوا ، لأنه لم يكن قانوناً مكتوباً ، ولم يكن الهولنديون ميالين إلى إدخال قانونهم المدني في البلاد وتطبيقه على الأهلين ، فقد بدا لهم أن هذا امتياز ينبغي أن ينفردوا هم به ، فلم يبق أمامهم إلا أن يشجعوا القانون العرفي ويجيزوا أحكامه ثم تصدق سلطاتهم على هذه الأحكام في المعاملات والأحوال الشخصية ، وقد تصدى الشيوخ ورجال الإسلام والفقهاء للدفاع عن الشريعة ، وأعلنوا أن ذلك العرف زندقة وخرافة وخروج على الإسلام وتمسكوا بالشريعة الإسلامية وأصروا على تطبيقها حتى كتب النصر لها فأصبحت القانون الساري في البلاد وتلك مأثرة من مآثر الفقهاء وأهل الدين لا بد أن تذكر لهم في دفاعهم عن الشرع الحنيف سواء في أندونيسيا أو في المغرب الأقصى .

ولقد كان من حسن الحظ أن تمكن الإسلام وحده ـ دون حرب أو عنف ـ من القضاء على مملكة الماجاباهيت في سومطرة قبل مجيء الأوروبيين فقد كانت هذة الدولة وثنية هندوكية وكانت تحمي الهندوكية ، ولو أنها كانت قائمة عندما دخل الأوروبيون لأيدوها على المسلمين كما فعل الإنجليز في الهند ، عندما اعتمدوا على الرؤساء والأمراء من الهندوكيين ضد الأمراء والضعاف من سلاطين المسلمين ، واجتهدوا في إيقاف انتشار الإسلام في الهند ، فكانت نتيجة تلك السياسة الاستعمارية أن ضعفت السلطة السياسية الإسلامية في الهند وصار الأمر إلى ما نراه اليوم ، أما في أندونيسيا ، فلم تكن هناك إلا إمارات وسلطنات إسلامية عندما دخل الاستعمار ، فلم يكن للمستعمر بد من التفاهم مع المسلمين ، وانتهى الأمر إلى النتيجة الباهرة التي نراها اليوم ـ أن تسعين

في المائة من أهل هذه الجزر من المسلمين ، وأندونيسيا بذلك هي أكبر بلد إسلامي على الأرض وأعمرها بالمسلمـــين .

ومن أســـف أن الجمعيـــات والمنظمات والهيئات التبشـــيرية تعمل بحرية تامة في أندونيســـيا ، وقداستطاعت هـــذه الجماعات أن تكسب أتباعاً لعقائدها من بين المعدمين وضعاف العقول والقلوب ، وتكونت نتيجة لذلك أقلية مسيحية في ذلك البلد الإسلامي . وستكون لذلك نتائج وخيمة في المستقبل ، فلعل القائمين بالأمر هناك ينتبهون للأمر قبل أن يفوت الأوان .

• انتشار الاسلام فى شبه جزيرة الملايو أو ملقا

الملاويون سكان شبه جزيرة ملقا فرع من الشعب البولينيذي الذي يعمّر كل جزء الجنوب الشرقي لآسيا وشرقها . والأصول القديمة لشعب اليابان كذلك بولينزية . ويعتبر الشعب البولينيزي من أوسع شعوب الأرض انتشاراً ، فهو يمتد من مدغشقر إلى هاواي ، وهو شعب بحري قوي متميز عن غيره من شعوب آسيا ، ومنه يتكون معظم سكان أندونيسيا وماليزيا والفيلبين وآلاف الجزر في المحيط الهادي .

في شبه جزيرة ملقا استقرت جماعات من هذا الشعب من زمن مغرق في القدم ودخل بعضها في الهندوكية أو البوذية وبقي بعضها الآخر على الوثنية ، وامتدت هذه الجماعات إلى الشمال في شبه الجزيرة حتّى خط عرض ٧ شمال خط الاستواء ، وهذا الخط هو الفاصل بين الصينيين والسياميين في الشمال والملاويين والبولينزيين في الوسط والجنوب ، وإلى هذا الخط أيضاً تنتهي حدود ملقا ، وهو الاسم الذي يطلق على الجزء الملاوي من شبه الجزيرة .

وقد عرف المسلمون ملقا من زمن بعيد ، وأطلقوا عليها اسم بلاد كَلَه أو كله بار ، ولفظ بار الذي يكثر استعماله في المحيط الهندي هو لفظ « بر » العربي محرفاً ، فيقال لشاطئ الهند الغربي مالابار أي بر مالا ، ويكتبه ابن بطوطة ، مِليبار ، وشاطئ إفريقية الشرقي يسمى زنجبار أي ساحل الزنج حتّى اسم جزيرة مدغشقر ، أصله ملجاشبار ، أي ساحل الملجاش وهم سكان جزيرة مدغشقر ، ثم تحرف لفظ ملجاشبار إلى مدغشقر .

وقد قامت في شبه جزيرة الملايو ممالك وإمارات كثيرة ، فقامت على الساحل الغربي مجموعة من الإمارات الصغيرة اتحدت فيما بينها حتى سميت بالإمارات الملاوية المتحدة وأهمها بيراك وسيلانجور ونْجيري وسِيميلان ، وتقع كوالا لومبور عاصمة ماليزيا الحالية في إمارة سيلانجور . وعلى الشاطي الغربي أيضاً قامت إمارات بِرليس وكِيدَه .

أما في الشرق فقد قامت إمارات كيلوفنان وترنجاثو ، وفي أقصى الجنوب تقع إمارة جوهور .

ولكن أكبر الوحدات السياسية في شبه الجزيرة كانت ملقا ، وتقع في الشمال وتمتد من الساحل إلى الساحل ، وإلى مملكة ملقا هاجر جماعة من جنس هندي يسمى التاميل . وكان التاميل قد أسلموا من زمن بعيد ، وهم أول من حمل الإسلام إلى ملقا .

ثم هاجر إلى ملقا أعداد من المسلمين قادمين من إمارة بينانج – كَبَاو خاصة ، وكان أهلها قد دخلوا في الإسلام ، وكان من بين هؤلاء المهاجرين عدد كبير من التجار والدعاة إلى الإسلام ، استقروا في مدينة ملقا عاصمة مملكة ملقا وأخذوا يدعون للإسلام ، فاستجاب لهم الناس ، ثم وفد على ملقا تاجر وداعية عربي من أهل جدة يسمى سيدي عبد العزيز ، وكان ذلك في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد تمكن هذا الرجل من إقناع ملك ملقا بدخول الإسلام ، فاعتنقه وتبعه في ذلك أهل مملكته ، وكانت تلك هي الخطوة الحاسمة التي جعلت من بلاد الملايو بلاد إسلام ، لأن معظم إمارات شبه الجزيرة تبعت مملكة ملقا في دخول الدين بعد القرن الثالث عشر ، وما أن أسلم ملك ملقا حتى أقبل على اللغة العربية يتعلمها لكي يقرأ بها القرآن ، وشاركه في ذلك زوجته وأولاده الثلاثة الذين سماهم راجا معظم شاه وراجا محمد شاه وراجا سليمان شاه ، وسار الإسلام في طريقه في ملقا حتى عم بلاد الملايو كلها .

وقامت في أثناء ذلك في ملقا ممالك إسلامية أخرى دخل معظم سكانها في الإسلام ، واتصل أهلها بمسلمي جاوة وسومطرة وبقية الهند الصينية ، وهكذا أصبح هذا الجزء الكبير من العالم جزءاً من مملكة الإسلام وركناً من أركانه المنيعة .

ومن الثابت لدينا أن إمارة قِويْدة وكانت تقع في شمال شبه الجزيرة كان يحكمها ملك هندوكي يلقب بالراجا فأسلم هذا الأمير على يد داعية عربي يسمى عبد الله حوالي سنة ١٥٠١ ميلادية ، وقد اجتهد الشيخ عبد الله في بناء المساجد في بلاد قويدة ، وجعل في كل مسجد أربعين من أحسن القومة والدعاة ، وحثهم على العمل على توسيع رقعة الإسلام في البلاد حتّى عمها كلها . وكتب راجا قويده إلى سلطان أَتْشِيه في شمال سومطرة ، يطلب إليه موافاته بكتب عن الإسلام فأجابه إلى ما طلب .

وما أن انتشر الإسلام في بلاد ملقا حتّى توافد عليها دعاة المسلمين وتجارهم من كل ناحية ، فأصبحت بلاد الملايو كلها بلاد إسلام .

ومن حسن الحظ أن ذلك تم قبل مجيء البرتغاليين ، فقد عَدَوا على مملكة ملقا واحتلوا عاصمتها وحاولوا نشر المسيحية فيها في أوائل القرن السادس عشر ، فتصدى لهم الناس في حزم وثبتوا على دينهم ، بل زادهم العدوان البرتغالي تمسكاً بالإسلام ، فإنهم لم يروا في الإسلام إلا خيرا ، أما المسيحية فقد عرفوها عن طريق البرتغاليين ، وهم أهل سلب ونهب . وكان الهولنديون قد وصلوا في ذلك الحين إلى جزر أندونيسيا وعولوا على أن يجعلوا منها مستعمرة لهم ، وكانت بلاد إسلام ، فلم يسترح الهولنديون لجوار البرتغاليين في ملقا ، فلم يزالوا بهم حتّى أخرجوهم منها ، واجتهد الهولنديون كذلك في إبعاد الإنجليز ، وانتصروا عليهم في معركة بحرية في مضيق ملقا ، وانصرف الإنجليز ، أيضاً عن بلاد الملايو ، ولم يحتلوا منها إلا موقع سنجابور لكي يؤمنوا

مرور سفنهم في مضيق ملقا بين شبه جزيرة ملقا وسومطرة وعاهد الهولنديون إمارات بلاد الملايو فكانوا يحتكرون التجارة في حاصلات بلادهم في مقابل قيام الهولنديين بإبعاد بقية الأوروبيين الطامعين في خيراتها .

وقد كتب الملاويون لغتهم بحروف عربية ، وكانت لغتهم خليطاً من لهجة بلادهم الأولى ولغة التاميل فدخلت فيها مع الإسلام ألفاظ كثيرة عربية وفارسية .

وبلاد الملايو ، وهي اليوم القاعدة الرئيسية لمملكة ماليزيا بلاد غنية تنتج المطاط والتوابل والأخشاب الغالية ، وفيها اليوم أكبر مناجم القصدير في الدنيا وفيها كذلك بترول كثير ، ولا زالت إلى يومنا هذا بلاد إسلام حنيف وأمن ورخاء ، ولا زالت تتبع نظام التحالف ، فهي مملكة اتحادية تتكون من سلطنات كثيرة ذكرنا بعضها ، ويرأس حكومتها ملك منتخب هو رمز وحدة البلاد وإسلامها ، وقد ضمت إليها عند إنشاء ماليزيا سلطنتا صباح وبروناي في شمال شبه جزيرة بورينو ، وكلها سلطنات إسلامية . وكانت فيها أول الأمر سنغافورة ثم انفصلت عنها وأنشأت لنفسها جمهورية قائمة بنفسها . ولا زالت لغتهم الملاوية تكتب بالحروف الغربية ، وهي بلاد إسلام صحيح .

● الاسلام فى جزر الفلبين

قبل أن يصل الأسبان إلى مجموعة الجزائر التي يطلق عليها اليوم الجزر الفليبينية سنة ١٥١٦م لم تكن هذه المجموعة الكبيرة من الجزر بلداً واحداً ، وإنما كانت جزراً متفرقة تعيش فيها قبائل متنازعة ، وكانت الجزر امتداداً لجزر أندونيسيا ، وهذه وتلك كانتا من منازل الشعب البحري البولينيزي الواسع الانتشار الذي أشرنا إليه .

وكان الإسلام يمتد في هذه الجزر على مهل قادماً من الجنوب والشرق ، فوصل إلى لوزون ، وهي الجزيرة الكبيرة الشمالية في نفس الوقت الذي وصل فيه إلى أرخبيل سولو وجزيرة مِندناو ، وهي أكبر الجزر الجنوبية وكان ذلك في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

ويغلب على الظن أن الدعاة الذين حملوا الإسلام إلى الفليبين أتوا من سلطنة جوهور الواقعة في الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الملايو ، ويذكر مؤرخو الفليبين من المسلمين أن أول من حمل الدعوة الإسلامية إلى بلادهم رجل يسمى شريف كابو نجسوان الذي وصل إلى الجزيرة أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وتمكن هو ومن جاء معه من الدعاة من كسب معظم سكان جزيرة مندناو للإسلام ، وانتشر الدين انتشاراً واسعاً في أرخبيل سُولو أو خُولو الذي يقع في جنوب الجزر الفليبينية ، وكذلك بدأ الإسلام يوغل في جزيرة بلَوان أو بَهلَوان الكبيرة الواقعة غربي مجموعة الجزر .

وعندما وصل الأسبان إلى الجزر سنة ١٥١٦م بقيادة قائدهم سَجاسْتا

ظنوا أن الجزر على الوثنية كما كان الحال في معظم جزر بوليتيزيا ، فأعلنوا على عادتهم أن هذه البلاد مسيحية ، وسموها باسم ملكهم فيليب الثاني ، وهو الذي أرسل سجاستا وحمّلته على تلك الجزر .

ولكن الأسبان ماكادوا يوغلون في جزيرة لوزون حتّى اصطدموا بطلائع المسلمين ، وقد تعودوا في صراعهم مع المسلمين في الأندلس والمغرب على أن يطلقوا عليهم لفظ الموروس Los Moros وهي الصيغة الأسبانية للفظ كان شائع الاستعمال في الكلام على المسلمين وأهل المغرب منهم خاصة في العصور الوسطى هو لفظ ماوري Mauri ومفرده Maurua ، وكان هذا هو اسم قبيلة مغربية بربرية عرفها الرومان وحاربوها في المغرب ، ومن ذلك اللفظ أتت تسمية العرب والمسلمين بهذا الاسم عند الأسبان وباسم The Moors في الانجليزية و Les Maures بالفرنسية . وإلى يومنا هذا لا زال الناس يطلقون تسمية الموروس على مسلمي الفيليبين .

ولم يلبث الصراع أن نشب بين الأسبان والموروس ، وهم المسلمون الفيليبنيون في جزيرة مندناو ، وكان دعاة الإسلام قد داخلوا الناس وصاهروهم ونشروا دينهم بينهم ، وكانوا يفعلون ذلك على مهل ودون لجوء إلى عنف ، ثم انهم كانوا أفراداً متطوعين لا تؤيدهم دولة أو قوة عسكرية ، فجاء الأسبان بجيوشهم يقتحمون البلاد على أهلها كما كان دأبهم في غزواتهم في العالم الجديد ، ففر الناس منهم وأخذوا جانب المسلمين ، واستمر الإسلام يواصل تقدمه في مندناو ، ومندناو جزيرة وعرة كثيرة الجبال والهضاب والأحراش ، والمستنقعات ، فأسرع الأسبان بالوسائل التي كانت في أيديهم وحاولوا إيقاف التقدم الإسلامي ولكنهم لم يوفقوا ، فقد اتسمت الإدارة الأسبانية في مستعمراتها بالفساد والقسوة ونهب أموال الناس ، وعمدوا إلى تنصير الناس بالقوة ، فتراخى تقدم الإسلام في لوزون ، ودارت المعركة في مندناو وجزر الجنوب

وخاصة في دواخل جزيرة مندناو حيث تعصب للإسلام عدد كبير من رؤساء القبائل ، ومع أن الأسبان أقاموا في الجزر حكومة منظمة وأمدوها بالسلاح والعتاد وإطارات الحكم إلا أن فساد الموظفين أدى إلى تعثر الحكم الأسباني في الجزر الفيليبينية ، واستبسل المسلمون في الدفاع عن دينهم وأراضيهم فلم يتمكن الأسبان في الجزء الشمالي من دحر الفيليبيين إلا بعد حروب طويلة . ومع هذا التوفيق القليل فإنهم أعلنوا رسمياً سنة ١٨٧٨م أنهم أتموا غزو جزيرة مندناو وأرسلوا بعض سفنهم إلى جزيرة بَلَوان وأرخبيل سولو . وقد تمكن أهل هذه الجزر الجنوبية من إنزال هزيمة بحرية بالأسبان وردوهم إلى لوزون .

وقد أساء الأسبان إلى أهل الجزر كلها إساءات بالغة ، وكانت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عصور تدهور بالغ في كل الإدارة الأسبانية في أسبانيا نفسها وكل مستعمراتها ، وكانت الولايات المتحدة تعمل بنشاط للقضاء على النفوذ الأسباني في أمريكا الجنوبية من منتصف القرن الماضي وخاصة بعد قيام حركات الاستقلال والتحرير في تلك البلاد . فلما استغاث أهل الجزر الفيليبينية بالأمريكيين بادر هؤلاء بإرسال أسطول كبير أنزل بالأسبان هزيمة قاصمة في مياه الفيليبيين ، وعلى أثر ذلك تخلى الأسبان للأمريكيين عن الجزر سنة ١٨٩٨م . ولكن الأسبان قبل خروجهم كانوا قد أنشأوا المؤسسات الكنسية وأرسلوا جماعات الرهبان والمبشرين إلى الجزر ، فسارت المسيحية في طريقها فيها . وإلى جانب ذلك أتى الأمريكيون بالبروتستنتية وقامت المنافسة الشديدة بين دعاة البروتستانتية والكاثوليك .

ولكن محنة الإسلام في جزر الفيليبين بدأت بعد استقلال البلاد بعد الحرب العالمية الثانية وقيام حكومة وطنية على رأسها رئيس من الكاثوليك ، إذ أن القساوسة اهتموا بإثارة الحكومة على المسلمين ، مما دفع هؤلاء إلى رفع علم

الثورة والمطالبة بحقوقهم ، وعندما طال النزاع طالبوا بالانفصال بجزيرة مندناو وأرخبيل سولو ، وقد استعانت حكومات الفيليبين بالأمريكيين في صراعهم مع المسلمين ، فزاد تراجع الإسلام في مندناو ولم يبق له من مناطقه القديمة إلا جنوب مندناو وأرخبيل سولو . ولا زال الصراع قائماً إلى اليوم .

ولا بد أن نذكر هنا الداعية الجليل صاحب الفضل في إسلام أرخبيل سولو وهو الشريف كريم المخدوم ، فهذا الداعية النشيط الذي يرجح أنه من أصل عربي وصل إلى ملقا حوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي حيث تمكن من كسب السلطان محمد شاه وشعبه في ملقا إلى الإسلام ، ثم أبحر إلى جزر سولو سنة ١٣٨٠م واستقر في بوانا قاعدة سولوالقديمة ، فأدخل الكثير من كبار أهلها في الإسلام ، ولقي منهم تقديراً عظيماً وتوفي ودفن في جزيرة سبوتو ، وخلفه الداعي أبو بكر وهو عربي بدأ عمله في ملقا ثم ذهب إلى بالمبانج في بورينو ثم انتقل إلى بروناي ووصل سولو حوالي سنة ١٤٥٠م فبنى عدداً من المساجد ونجح في الدعوة نجاحاً كبيراً ، ثم زوجه سلطان باجندا المسلم من ابنته وجعله وارث عرشه . فلما وصل إلى العرش قام بتنظيم حكومة سولو على أسس إسلامية ، وهو الذي نظم القوة العسكرية لأهل جزر سولو ، وهم من أشجع أهل هذه الجزر الفيليبينية وأصبرهم على القتال . ومع أن مؤرخي الأسبان والفيليبيين يزعمون أن الإسلام لم يعد له إلا وجود قليل في سولو ومندناو إلا أن الحكومات الإسلامية عنيت في السنوات الأخيرة بإرسال البعثات للتعرف على أحوال المسلمين هناك ، فوجدوا الإسلام والحمد لله قائماً في كل الجزر وإن كان مضطهداً ومطارداً من الحكومة . وقد كانت السلطات في الجزر تظن أن الإسلام لا ناصر له هناك وأنها تستطيع اتباع سياسة عنف للقضاء على الإسلام ، فانكشف الغطاء وتبين أن المسلمين هناك متمسكون بدينهم وأنهم يكوّنون الأغلبية من سكان أرخبيل سولو وجزيرة مندناو ، وأنهم رغم قلة مواردهم يستطيعون الثبات لخصومهم ، وبفضل تدخل البلاد الإسلامية ،

خففت السلطات الفليبينية من ضغطها على المسلمين وأعلنت أنها لا تفرق بين مسلم ومسيحي من أهل البلاد ولكن رجال الدين لا زالوا يضغطون على الحكومة مما جعل قضية مسلمي الفيليبين من القضايا الأساسية التي ينبغي أن يضع المسلمون لها سياسة ثابتة بعيدة المدى ، فإن المسلمين في الجزر كثيرون ، ثم أن الكثير من القبائل في وسط مندناو لا زالوا على الوثنية وهم أميل إلى الإسلام منهم إلى ديانة أخرى .

إن قضية المسلمين في الفليبين ما هي إلا جزء من الصراع الطويل بين الإسلام وغيره من الأديان في آسيا ، وقدكان ينبغي أن تصبح آسيا كلها إسلامية لو أن المسلمين وضعوا لأنفسهم سياسة شاملة بعيدة المدى لإدخال هذه القارة في الدين ، ولكننا أضعنا الوقت في خلافات جانبية وانصرفنا إلى مصالح عاجلة ، فلم تستطع كسب هذه القارة كلها للإسلام ، والخطأ هنا خطأ المسلمين وحدهم ، فهم في الواقع لم يقوموا بحق الإسلام عليهم في العصور الماضية ، أيام كانت الدنيا فراغاً خالياً من تعقيدات السياسة ومصالحها اليوم .

ولكن الإسلام تكفل بأمر نفسه وتمكن بفضائله وبجهاد قلة من أهله من أن يحقق لنفسه كسباً عظيماً في جنوبي آسيا ووسطها على الخصوص . ولقد مني الإسلام في وسط آسيا وشرقها بالشيوعية الكافرة بالأديان ، وابتلى في بعض مواطنه الآسيوية الأخرى بسياسات حكومية مناهضة للإسلام ، ولكننا إذا وفقنا إلى المحافظة على الموجود وتقويته وتعميق جذوره خرجنا في النهاية بنتيجة طيبة . ويهمنا قبل أن نغادر الفيليبين إلى قطر آخر من أقطار آسيا أن نذكر كل مسلم بإخوته المجاهدين في تلك الجزر ، فإن أعداءهم كثيرون والمؤامرات التي تدار عليهم شريرة وخبيثة ولا بد لنا من وقفة حازمة حاسمة مع أعداء الإسلام هناك في وقت قريب قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

● الاسلام فى كشمير والتبت

تبلغ نسبة المسلمين في كشمير ما بين ٧٠٪ و ٧٥٪ من جملة السكان . فهي بهذا من أكثر أقطار الدنيا إسلاماً ، ولا نجد لدينا تفسيراً لهذه الظاهرة خاصة الانتشار الواسع في كشمير – أو تفصيلا عنها لأن سلطان دول الهند الإسلامية عليها لم يكن ثابتاً أو متصلا ، ولكن معظم الباحثين يردون إسلام كشمير إلى جهود الدعاة من الفقراء والصوفية ونفر من دعاة الإسماعيلية كانوا يعملون من مركزهم في قلعة أَلَـمُوت في إقليم طبرستان جنوبي بحر قزوين .

ويقال ان أول هؤلاء الدعاة من الصوفية رجل يسمى بُلبل شاه تمكن من إقناع ملك كشمير الهندوكي بالانتقال إلى الإسلام ولقّبه صدرَ الدين في مستهل القرن الرابع عشر الميلادي من الدعوة للإسلام في كشمير وإنشاء أول مسجد فيها .

وفي سنة ١٣٨٨م هرب من همذان جماعة من الصوفية الفرس المعروفين بالسادة ، وكان زعيمهم يسمى سيد علي الهمذاني وكان معه سبعون من السادة فروا نجاة بأنفسهم من سخط تيمور لنك ، فتفرقوا في بلاد كشمير وأنشأوا الأربطة والزوايا وخلوات الصوفية في كل مكان في كشمير ، وأصبحت هذه الأربطة مراكز لنشر الإسلام ، وزاد إيمان سلاطين كشمير بالإسلام حتى قام أحدهم وهو السلطان اسكندر (١٣٩٣–١٤١٧م) بهدم معابد الهندوس وتحطيم أصنامهم فلقبه الناس لهذا بلقب بوتشيكان . وحوالي نهاية القرن الخامس عشر قدم من العراق أحد دعاة الشيعة ويسمى مير شمس الدين فوضع بذور التشيع في كشمير ، ولكن غالبية المسلمين في كشمير من أهل السنة . وهي على الجملة

بلد إسلامي ، وكان المفروض أن ينضم إلى باكستان ، بل ان حرف الكاف استعمل في اسم باكستان يرمز إلى كشمير ، ولكن الهند أصرت على الأحتفاظ بكشمير في أراضيها ، ووقعت الحرب بين الجانبين ، ثم عقدت هدنة لكي يستفتى أهل كشمير في أمر انضمامهم إلى الناحية التي يريدها أهلها ، ولكن هذا الاستفتاء لم يتم إلى اليوم ، وظلت الهند واضعة يدها على كشمير ، والحدود بين الهند وباكستان وكشمير من هذه الناحية هي خط وقف إطلاق النار .

وفي أيام سلاطين دلهي الكبار أصبحت كشمير من أكبر وأهم ولايات دولتهم ، فزاد انتشار الإسلام فيها ، ووفد عليها علماء المسلمين من كل مكان أو في أيام أورانجزيب تحول راجاكَشْتَوار أحد رؤساء الراجابوت إلى الإسلام على يد صوفي يسمى سيد شاه فريد الدين ، وبذلك امتد الإسلام إلى حدود التبت .

ثم أخذ الإسلام طريقه إلى التبت وغزا ولايتي بَلِسْتان ولداخ ، وسار الإسلام قدماً في التبت حتى القرن التاسع عشر ، ولكن أحد راجات الحدود واسمه رافبير سِنك كان من السيخ المتعصبين فبدأ يعمل على إيقاف تقدم الإسلام وتشجيع البوذية في التبت فأبطأ انتشار الإسلام ووقف عند الجزء الجنوبي من التبت ، وهناك نجد جماعة كبيرة من السكان نشأت عن تزاوج تجار الهنود المسلمين ومن حذا حذوهم من أهل البلاد من التبتيات ، وظل عدد هذه الجماعة في زيادة إلى يومنا هذا .

ولا تخلو مدينة رئيسية في التبت من المسلمين ، وفي لهاسا عدد كبير من المسلمين لا يقل عددهم عن أربعين ألفاً . ومن التبت انتقل الإسلام إلى ولاية يونان من جنوب الصين وولاية سِشْوان أيضاً .

● الاسلام فى الصين

تذكر التواريخ الصينية أن أول دخول الإسلام في الصين كان في أيام أسرة تانج التي عاصرت البعثة المحمدية وعصر الراشدين وعصر بني أمية . وكان القادمون إلى الصين من المسلمين تجاراً دخلوا بلاد الصين من الجنوب أيام بني أمية ، فاستقروا في كانتون حيث أنشأوا لأنفسهم جالية زاهرة واتخذوا المساجد وأطلق عليهم أهل الصين لقب هُوِي هُوِي .

وفي أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦–٩٦هـ/٧٠٥–٧١٥م)عبر قتيبة بن مسلم نهر سيحون وتخطى الحدود الغربية لدولة الصين ودخل كَشْغَر وضم جزءاً من ولاية سنكاينج إلى دولة الإسلام . وفي سنة ٧٢٦م أوفد الخليفة هشام بن عبد الملك سفيراً يسمى سليمان إلى الإمبراطور هُزوان تونج وانعقدت أواصر الصداقة بينه وبين المسلمين . وعندما قامت ثورة على هذا الإمبراطور يقودها ابنه سور تسونج سنة ٧٥٦م وطرد الابن أباه من العرش استنجد الإمبراطور المعزول بالخليفة المنصور العباسي فأنجده بقوة من الرجال أعادته إلى عرشه . ولم تعد هذه القوة إلى بلادها ، بل استقرت في الصين ، وتزاوج أفرادها من الصينيات وانضموا إلى إخوانهم أعضاء جالية كانتون فكثر عددها وحاول حاكم البلد إخراجها من البلد بالقوة ولكنه عجز . وانتهى الأمر بأن سمح لهم الإمبراطور بالإقامة في كانتون ، فاستقروا وأمنوا ، ولم يلبثوا أن امتزجوا بالسكان ، ويتحدث مؤرخ صيني كتب فيما بين سنتي ٧١٣م و٧٤٢م عن كثرة عدد جالية كانتون ، ولكننا لا نعلم إن كان أفرادها قد بذلوا جهداً لنشر الدعوة بين أهل البلد أم لا .

وعندما اجتاحت عالم الإسلام موجة الغزو المغولي هاجرت إلى الصين أعداد كبيرة من المسلمين من أهل فارس والعراق وبلاد ما وراء النهر واستقرت هناك واندرجت في أهل البلاد ونشرت الإسلام ، وظهر من بينها رجال كسبوا ثقة المغول فولوهم عدداً من كبار وظائف الدولة من أمثال رجل يسمى عبد الرحمن تولى رئاسة بيت مال الدولة سنة ١٢٤٤م . وعندما اعتلى قبلاي خان العرش سنة ١٢٥٩م عهد إلى مسلم من أهل بخاري يسمى محمد شمس الدين المشهور بالسيد الأجَل" في إدارة أموال الإمبراطورية ثم أقامه حاكماً لمقاطعة يونان ، وكان رجلا حكيماً يعرف كيف يستميل قلوب الناس ، فبنى مساجد كثيرة وكذلك بنى معابد كونفوشيوسية عديدة . وقد واصل أبناء السيد الأجل تقليد أبيهم في توطيد دعائم الدين الإسلامي في الصين ، فحصل حفيد له سنة ١٣٣٥م من الإمبراطور على اعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق الخالص ، وقد ظل الإسلام يحتفظ بهذا الوصف في الصين حتى قيام الثورة الشيوعية هناك . وأذن الإمبراطور في سنة ١٤٢٠م لشخص آخر من أحفاد السيد الأجل في بناء مسجدين كبيرين في عاصمتي الدولة وهما سنجان ــ فوونانكين ، مما أثار حفيظة الكثيرين من الصينيين المتعصبين ، ولكن الإسلام استمر يتوسع في الصين حتى قرر ماركو بولو الذي عاش في الصين فيما بين سنتي ١٢٧٥ و ١٢٩٢م أن أعداداً كبيرة من المسلمين تعيش في إقليم يونان ، وقرر رحالة آخر زار الصين في نفس الوقت أن جميع سكان تاليفو حاضرة يونان من المسلمين ، وكذلك وصف ابن بطوطة الذي زار الصين في منتصف القرن الرابع عشر ترحيب إخوانه المسلمين في مدن الصين به وقرر أن كل مدينة من مدن الصين فيها حي للمسلمين ينفردون بسكناه ولهم فيه المساجد العامرة ، وقال انهم معظمون محترمون في كل بلد من بلاد الصين .

يذكر مرجع صيني قديم يسمى « التاريخ القديم لأسرة تاج » أنه في السنة الأولى لحكم الإمبراطور يوانج ــ واي (٣١هـ / ٦٥١م (وَفَد على بلاط هذا

الإمبراطور وفد من المسلمين حاملين هدايا للإمبراطور وقالوا إن دولة الإسلام قامت منذ إحدى وثلاثين سنة ، أي أن ذلك الوفد زار الصين في خلافة عثمان . ويقول الصينيون من المسلمين أن هذه كانت أول مرة يدخل فيها الإسلام إلى الصين ، ويزعمون أن رئيس ذلك الوفد كان سعد بن أبي وقاص ، وأنهم وفدوا إلى الصين عن طريق البحر ، فأرست بهم السفن على شاطيء الصين الجنوبي ، ومن ثم اتجهوا إلى بلاد إمبراطور أسرة تانج في عاصمة تشانج ــ ان .

ويقول نفس المرجع أن امبراطور الصين استفهم عن أمر الإسلام وسأل عنه ، فسمع خيراً فوافق على دخول الإسلام في الصين وأذن في الدعوة له واعتبره على نفس المستوى مع الكونفوشيوسيه وأذن للمسلمين في بناء مسجد في العاصمة تشانج ــ آن ولا زال هذا المسجد قائماً في ذلك البلد الذي يسمى الآن سيان .

وعندما كبرت سن سعد بن أبي وقاص ــ كما تقول الرواية الصينية ــ أذن الإمبراطور له في العودة إلى بلاده ، فشرع في الرحلة ولكنه مات في الطريق ودفن في بلدة كوانج تشو وأقيم مسجد إلى جوار قبره ولا زال هذا المسجد قائماً هناك إلى اليوم ، وهو ثاني المساجد الأثرية في الصين .

وكان للعرب والفرس الذين استقروا في الصين مكان مرموق في تجارة الصين في عصر أسرة تانج هذه . وعندما انتقل الأمر إلى أسرة سونج (٣٤٩ــ ٥٦٧٨/٩٦٠ ــ ١٢٧٩م) كانت كوانج تشاو أكبر مراكزهم ، وكان لهم فيها حي كبير فيه سوق ضخمة ، وانشأت حكومة الصين إدارة خاصة للتجارة البحرية ومراقبة المواني وتحصيل الضرائب وكان يشغل هذا المنصب رجل من المسلمين .

وبينما كان الإسلام يثبت أقدامه على سواحل الصين الجنوبية بعد أن أدخله فيها التجار دخل الإسلام الصين من ناحية الشمال الغربي عن طريق البر . وقد

دخلت في الإسلام قبائل هسيونج فو الضاربة في مداخل الصين الغربية من ناحية حوض التاريم . وفي سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م قامت ثورة على الإمبراطور هوان تسونج – هز تانج فاضطر إلى اللجوء إلى سشوان والتحصن فيها ، وأرسل يستنجد بمسلمي شمال غربي الصين فسارعوا بإرسال قوة من ثمانية آلاف رجل أنجدته ، وتعبيراً عن شكره للمسلمين خيرهم بين البقاء في بلاده أو العودة فاختاروا كلهم البقاء ، فقدم إليهم الأموال وزوجهم بصينيات وأعطاهم أرضاً وبنى لهم بيوتاً . ومن هؤلاء نشأت الجاليات الإسلامية الضخمة في شمال غربي الصين .

وعندما تحسنت علاقات قبائل هسيونج نو بإمبراطور الصين ازداد تدفق المسلمين من الفرس والأفغان على الصين ، وانتقل الكثيرون منهم إلى العاصمة تشانجان وزاد انتشار الإسلام بين الصينيين أنفسهم .

– ازدهار الاســـلام فى الصين ثم اضمحلاله :

تمتع الإسلام في الصين بقبول حسن ولقي المسلمون معاملة طيبة طول عصر أسرة تانج التي انتهت سنة ٢٩٥هـ / ٩٧٠م فلما خلفتها أسرة سونج ازدادت التجارة ازدهاراً وتزايد توافد المسلمين على الصين ، وأصبحت كل تجارة مع بقية بلاد الشرق وأوروبا في أيدي المسلمين ، فعرفت أوروبا حرير الصين وخزفها وتحفها وصناعاتها الدقيقة عن طريقهم ، وحملوا إليها متاجر أوروبا وغربي آسيا . وكبرت جاليات المسلمين في بلاد الصين وانتشر الإسلام في الصين أكثر وأكثر . ونظراً لما امتاز به المسلمون من خلق طيب وأمانة والتزام بالقوانين ، فقد احترمهم شعب هان ، وهو اسم الشعب الصيني في لغتهم ، وزاد انتشار الإسلام تبعاً لذلك .

وأعقبت دولة سونج دولة يوان وهي دولة غريبة عن الصين أنشأها

خلفاء جنكيز خان ، وذلك أنه بعد وفاة جنكيز خان قُسِّمَت امبراطوريته بين أولاده ، وكانت الصين ومنغوليا من نصيب قُبلاى خان فأنشأ أسرة يوان ، وكان الإسلام قد امتد أثناء حكم المغول إلى وسط آسيا . ولما كانت الصين ومنغوليا قد دخلتا بمساحتهما الشاسعة في دولة واحدة فقد اتسع المجال لانتقال السكان من مكان إلى آخر فيها ، فانتقل الكثيرون من الصينيين إلى آسيا الوسطى وانتقل الكثيرون من العرب والترك إلى الصين ، وكثر توافد المسلمين من كل صنف إلى الصين فكان بينهم تجار ومتطببون وطلاب علم وفلكيون ومحاربون ، وقد دخل الكثيرون من هؤلاء الآخرين في الجيش الصيني . وبلغ المسلمون درجة كبيرة من القوة في عهد هذه الأسرة ، وشغلوا الكثير من المناصب الكبرى مما أتاح للإسلام الفرصة للامتداد والانتشار ، ويقول المؤرخ الصيني تنج – هسيو – ووانه كان هناك ثلاثون مسلماً يحتلون مناصب رئيسية في بلاط بكين ، وكان منهم حكام لكثير من الولايات .

وكان أكبر الموظفين المسلمين في بلاد الصين رجلا ذا كفاية عظيمة وقدرات متعددة هو السيد الأجل ، وقد تدرج في المناصب حتّى أصبح القائد الأعلى للقوات العسكرية المنغولية في سِشوان ، ثم أصبح حاكماً لتلك الولاية في سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ، وبعد سنتين تولى حكومة ولاية ونان، وبفضل كفايته انتشرت الثقافة الإسلامية في بلاد الشمال الغربي ، وكان السيد الأجل يحكم بعدل وإنصاف تامّين ، لا يفرق بين مسلم وغير مسلم فالحق وحده هو سيد الموقف .

ويقول المؤرخ رشيد الدين فضل الله في كتابه « جامع التواريخ » إنه في عصر الأسرة المغولية كانت الصين مقسمة إلى اثنتى عشرة ولاية ، لكل منها حاكم ونائب حاكم ، وأن ثمانية من بين الحكام كانوا مسلمين »

وهذا يدل على القوة التي وصل إليها المسلمون في عصر أسرة يوان .

دامت أسرة يوان اثنتين وتسعين سنة (٦٧٨ - ٧٧٠هـ / ١٢٧٩ - ١٣٦٨م) ثم خلفتها أسرة مِنْج التي حكمت ثلاثة قرون تقريباً (٧٧٠-١٠٥٤هـ / ١٣٦٨م - ١٦٤٤) . وفي عهد هذه الأسرة ازداد جاه الإسلام وانتشاره حتى أصبح من أديان الصين الكبرى .

وعندما بدأت أسرة مِنج حكمها كان عمر الإسلام في الصين ستة قرون ، وازداد عدد المسلمين زيادة كبيرة ، ولكن المسلمين ظلوا رغم ذلك يعيشون وفق نظامهم الخاص دون اتصال كبير ببقية السكان من غير المسلمين ، وكانت لغتهم صينية عربية وعاداتهم إسلامية ، ولم يقع اختلاف كبير بينهم وبين غيرهم من غير المسلمين ، ثم أخذوا يندمجون في السكان ويتخذون اللغة والعادات الصينية . ولم يعد من الممكن التفريق بينهم وبين بقية الصينيين . حتى أسماؤهم الإسلامية أعطوها طابعاً صينياً : فمن ذلك أن كل مسلم يبدأ اسمه بحرف م مفتوحة سمى نفسه ما وهو لفظ صيني شائع معناه الحصان فتسمى باسم « ما لمن كان اسمه محمود أو مسعود ، أما من كان اسمه يبدأ بميم مضمومة مثل محمد ومراد ومصطفى فقد اتخذ اسم « مو » ، ومن المسلمين من اتخذ اسماً مقارباً في النطق لاسمه فداوود سمى نفسه تا وكذلك طاهر تسمى باسم تا وحسين تسمى باسم هو ، ومن كان اسمه مركباً مع لفظ الدين مثل خير الدين وشمس الدين تسمى تنج ، ومن كان اسمه سعيد تسمى باسم ساى ، ومن كان اسمه نصر أو نجيب تسمى نا ، وسليم أو صالح تسمى باسم سا وعيسى وأمين تسميا باسم آى وهكذا .

واستمرت نفس المكانة لمسلمي الصين في عهد أسرة منج ، ولكننا نلاحظ في عصر هذه الأسرة تطوراً جديداً ، وهو أن أباطرة هذه الأسرة خافوا من أن تنزل ببلادهم غزوة جديدة مخربة مثل غزوة مغول جنكيز خان ،

فأغلقوا أبواب بلادهم وساروا على سياسة الانعزال ، فانقطعت الصلة بين مسلمي الصين وإخوانهم خارج الصين ، فأخذوا يندرجون في أهل البلاد وأقبلوا على الزواج من الصينيات ، فنشأ أولادهم صينيين مسلمين ، وكان هذا مما ثبّت أقدام الإسلام في الصين ، وقد لقي أولئك المسلمون الصينيون كرامة كبيرة من مؤسسي دولة مِنج وهو الامبراطور هونج–وو فمنحهم امتيازات كثيرة وشجعهم على إنشاء المساجد ، فزاد عددها زيادة كبيرة في كل نواحي الصين خلال عصر هذه الأسرة (١٣٦٨–١٦٤٤م) .

وقد تشجع أمراء المسلمين المجاورين للصين بهذه المعاملة وطمعوا في كسب الامبراطور إلى دينهم ، فكتب إليه واحد منهم هو الشاه رُخبَـهَادُر سلطان التركستان خطابين طويلين يدعوه فيهما إلى اغتنام السعادة بالدخول في دين الله (أنظر نصها في كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد وترجمة حسن إبراهيم وآخرين الطبعة ٣ سنة ١٩٧٠م ص ٣٣٧ – ٣٣٨) وكان لهاتين الرسالتين صدى بعيد ، فقيل في بعض الحكايات الشعبية أن أحد أباطرة الصين اعتنق الإسلام . وقد حكى تاجر مسلم يسمى سيد على أكبر زار الصين في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر أن عدد المسلمين الذين استقروا في الصين كان عظيماً ، وأنه كان في مدينة كنج فو حوالي ٣٠,٠٠٠ أسرة من المسلمين (أي ١٥٠,٠٠٠ نسمة على وجه التقريب) وأنهم كانوا يعيشون عيشاً سعيداً في عطف من الدولة ورضى من الحكام .

وقد تغيرت سياسة الأباطرة بعض الشيء تجاه المسلمين حينما حلت أسرة مانشو محل أسرة مِنج في حكم الصين سنة ١٦٤٤ م إذ انتهز رجال الدين البوذيون والكونفوشيوسيون فرصة تغير الدولة وحرضوا رجال الدولة الجديدة على المسلمين حسداً منهم لما كانوا يلقونه من نجاح في نشر دعوتهم ، فانقلبت عليهم السلطات ، فكانت النتيجة أن قاموا بثورة في ولاية خانسو ،

ولكن الثورة لم تلبث أن خمدت واستعاد المسلمون علاقاتهم الطيبة بالدولة ، لأن الامبراطور يونج–تشي تبين براءتهم مما اتهموا به ، واتضح له أن المسلمين من خير رعاياه وأخلصهم وأكثرهم نشاطاً ، ثم زادهم خليفته كيني لانج تكرمة ، نظراً لمعاونة اثنين منهم له في إخماد ثورة قامت عليه – وكان من كبار الأتراك العارفين بشئون الحرب .

وبعد القضاء على هذه الثورة نقل هذا الامبراطور إلى زنجاريا في غربي الصين – وكانت مركز الثورة – عشرة آلاف من المحاربين العاملين في جيشه وكانوا جميعاً من المسلمين ، فأخذ جيرانهم من الصينيين يقبلون على الإسلام احتذاء بهم . وكثر توافد الدعاة إلى الصين الغربية والجنوبية ، بل هناك خبر يتعلق بداعية صيني قبض عليه في كوانج سي بتهمة الدعوة للإسلام ، وذلك بتحريض من الكهنة

ويقرر المبشرون الكاثوليك في القرن التاسع عشر أن عدد المسلمين في الصين زاد زيادة عظيمة ، ويردون هذه الزيارة إلى أن المسلمين الصينيين يحاولون العيش في سلام مع غيرهم ، ولهذا يتحاشون القيام بنشاط واسع في الدعوة مخافة إثارة شكوك كهنة البوذيين ، وإنما كانت أعدادهم تزيد نتيجة لزواجهم من الصينيات وإنجابهم الأولاد الكثيرين ، وكان المسلمون يعمدون أيضاً إلى شراء الأطفال من آبائهم في أوقات المجاعات وينشئونهم نشأة إسلامية ، ولم يكن في تقاليد الصين ما يحرم ذلك . بل كان يعد من أعمال الخير ، لأنه يعين الآباء الفقراء على تحمل مصاعب المجاعات ، وفي إحدى المجاعات التي نزلت بولاية شانتونج اشترى المسلمون نحو ١٠,٠٠٠ طفل تربوا في كنف الإسلام ونشأوا مسلمين . وحدث هذا مرة أخرى سنة ١٧٩٠م عندما نزلت المجاعة بمقاطعة كوانج تونج إذ اشترى المسلمون مثل هذا العدد من الأطفال ، وكذلك كانوا يفعلون حيثما استطاعوا ، بل عندما قامت

حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أو لاد قتلى هذه الحرب ما بين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين في الصين بهذه الطريقة حتى بلغ عددهم في الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو ٥٠ مليوناً ، وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون في الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم أو من لا يجري على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم وما يقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لا يبالغون في تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصيني . ولم يمانعوا في أن يضعوا في كل مسجد من مساجدهم لوحة ــ كان القانون يفرضها ــ فيها دعاء للامبراطور بطول العمر .

وفي المناطق التي كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا ــ وهي بلاد التتار الصينيين ــ كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة مجاملة للصينيين ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائماً حريصين على السير طبقاً لتعاليم الإسلام وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون في الصين بكل حقوق المواطنين وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين في صعود ودينهم في انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صُن–يات–صُن التي قضت على أسرة مانشو استمرت في إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمي الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين في حروب التحرير ضد اليابان وفي حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت

غيرهم من أهل الأديان المنكرة للشيوعية ، فهاجر الكثيرون منهم إلى تايوان (فرموزا) وأصبحت هذه الجزيرة مركزاً للجماعة الإسلامية الصينية ، ويؤكد العلامة الصيني المسلم تا (داوود) تنج أن عدد المسلمين في الصين في سنة ١٩٥٠م يقدر بخمسين مليوناً أي أن واحداً من اثني عشر من سكان الصين آن ذاك مسلم ، فعددهم اليوم على حساب الزيادة العامة لسكان الصين قرابة ٦٥ مليوناً ، أي أن الصين تجيء خامسة في أعداد المسلمين فيها بعد أندونيسيا وبنجلادش والهند وباكستان ، ولكن حكومة الصين لا تعلن هذه الحقيقة .

وليس في ذلك التقرير مبالغة ، ففي طبعة سنة ١٩٤٨م من الكتاب السنوي الصيني Chine year book الذي كان يصدر في شنغهاي نجد عدد مسلمي الصين بلغ ٤٨,١٠٤,٠٠٠ نسمة وفي نفس الكتاب نقرأ بوضوح أن نسبة المسلمين في الصين هي العشر ، وإنه لمما يثير الدهشة رغم ذلك أن حكومة الصين أعلنت في سنة ١٩٥٠م أن عدد المسلمين فيها عشرة ملايين فقط ثم تقرر في نفس الوقت أنهم يؤلفون أكبر الأقليات الدينية في الصين وعددها أربعة هي على الترتيب : المسلمون (ويسمونهم هوى) والمغول (يسمونهم منج) والتبتيون (ويسمونهم تسانج) والمنشوريون ويسمونهم (مان) .

وجاليات المسلمين وهم جميعاً اليوم صينيون تتجمع في مقاطعات الشمال الشرقي والشمال الغربي أي في مقاطعات هو نان وهو باى وشانتونج ، أما في الجنوب الغربي فنجد أكبر جماعاتهم في يونان وسيشوان ، وفي الجنوب الشرقي نجدهم في وادي اليانجتسي في مقاطعة أنهوي وهي التي تضم العدد الأكبر من مسلمي الصين ، أما أقل النواحي الصينية إسلاماً فهي المقاطعات الساحلية : كيانجنسو وتشكيانج وفوكيان وكوانجتونج مع أنها كانت فيما سبق أكثر نواحي الصين إسلاماً ، ومن دلائل ذلك أن أسرة مينج عندما

جعلت عاصمتها في فانكنج كان فيها ستة وثلاثون مسجداً .

ونتيجة للظروف التي كان المسلمون يعيشون فيها قبل الانفتاح الصيني على العالم في أواخر أيام ماوتسي تونج نجد أن المسلمين كغيرهم قد انقطعت صلتهم بإخوانهم في العالم الخارجي خلال تلك الحقبة . ولم يعودوا يستقبلون الدعاة والفقهاء كما كانوا يفعلون قبلا ولم يعودوا يستطيعون السفر إلى الخارج بحرية ، وكل هذه أحوال أدت إلى اضمحلال جماعاتهم ، فبينما كانوا في الماضي — في عهد أسرة يوان — في عداد الجماعات الغنية في البلاد فكان منهم تجار وماليون وموظفون كبار وشخصيات كبيرة تضاءل ذلك كله الآن . وفي عصر أسرة مينج كان فيهم عدد كبير من أهل الفكر في الصين ، وكان تجار المسلمين يسيطرون على التجارة البرية مع بقية آسيا من مراكزهم في شرق الصين ، وكانت قوافلهم رائحة غادية ، وفي كل حوضي اليانجتسي وهواي هو والنواحي التي اشتهرت بزراعة الأرز كان المسلمون يحتكرون تجارة الحبوب ولا يشغل المسلمون في الصين الشعبية أي وظائف تذكر ، بينما هم يحتلون مراكز أعلى في تايوان ، ومساجدهم هناك عامرة زاهرة ، وليس معنى ذلك أن الإسلام ضعف في بلاد الصين ، بل معناه أن السياسة الاشتراكية التي تسير عليها الصين لا تشجع الأديان جميعاً ، بل تتجاهلها ، ومع ذلك فلا زال المسلمون نشيطين تحتل جالياتهم مكان الصدارة في النواحي التي يتكاثرون فيها وقد ذكرناها ، وفي بقية نواحي الصين نجدهم مشهورين بأعمال الصياغة ، وجميع التحف القديمة والمصنوعات الجلدية وتصنيع الشاي والتجارة فيه وتربية الماشية والقصابة والتجارة في اللآلىء واليَشَبَ المعروف بالجيد (Jode) وهم مشهورون بإجادة الرسم والتصوير وكتابة الخطوط . وهذا ليس بغريب ، ففي عصر أسرة تَشَنْج كانت التحف والطرف والجواهر في بكين وغيرها من كبريات بلاد الصين في أيدي المسلمين ، ولا زالوا إلى اليوم أكبر الاختصاصيين في الجواهر في بلا د الصين .

● الاسلام فى روسيا

خلال القرن الرابع عشر الميلادي ، وبعد أن أنزل جنكيز خان ورجال دولته وآله ما أنزلوا ببلاد الإسلام من تخريب ، وبعد ما كان منه من القضاء على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢١٨م وما تلا ذلك من امتداد سلطان المغول على الجناح الشرقي لمملكة الإسلام ، نجد ذلك الدين القيم يعود فيغزو بفضائله المغول أنفسهم ، فيدخل فيه خانات ايلخانية إيران وهم ورثة باتو عم هولاكو على ذلك القسم من امبراطوريته الواسعة ، وأول من هداه الله منهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام وتسمى باسم الملك السعيد بركة خان وأخذ كل المغول التابعين له باعتناق هذا الدين ، واجتهد في تعويض الإسلام عما لحق به من الأذى على أيدي أجداده ، فاهتم بإنشاء المساجد واستقدام الفقهاء والإحسان إليهم وتيسير مهمتهم في نشر الدين ، وفي عهد هذا السلطان بركة خان المغولي نجد العلاقات تتوطد بينه وبين سلطان مصر المملوكي ركن الدين بيبرس البندقداري .

وكانت طائفة كبيرة من المغول تسمى القبيلة الذهبية تسكن الأراضي الواسعة الممتدة من شمال بحر آرال إلى شمال بحر قزوين ومصب الفولجا . وكان أولئك المغول تابعين اسمياً لخان مغول إيران ، وهو بركة خان ، فلما أسلم أخذ الإسلام ينتشر بينهم .

وقد أنكر فريق من المغول على بركة خان إسلامه ، وكانوا على ديانة الشامانية ، ففكروا في الخروج عن طاعته والانضمام إلى هولاكو الذي ورث أملاك المغول في الجزء الغربي من الدولة ابتداء من إقليم الجبال أو عراق

العجم ، فانقسمت صفوف المغول مرة ثانية وانفصلت عنهم قبيلة نوجاى وهي تضم أتباع القائد نوجاى ، وكان بوذياً شامانياً ، وكان يسيطر على منطقة واسعة بين بحر آرال وبحر الخزر وهو قزوين .

وفي سنة ١٣١٣ م تولى زعامة القبيلة الذهبية أوزبك خان الذي ظل يحكمها حتى سنة ١٣٤٠ م ، وكان مسلماً متحمساً للإسلام حريصاً على إدخال كل القبيلة الذهبية فيه ، وكانت مملكة أوزبك خان تمتد من شمالي بحر آرال إلى مصب الفولجا ، فوضع خطة لنشر الإسلام في كل بلاد الروس ، وكانت المسيحية قد انتشرت بينهم على يد دعاة مسيحيين من بيزنطة (القسطنطينية) . وكان الإسلام يسود مصب نهر الفولجا حتى نوفوجورود ، ويسترسل حتى بلاد القرم . ولكن أوزبك خان كان متسامحاً ، فلم يأذن لنفسه في اضطهاد المسيحيين في بلاده، بل ترك دعاة المسيحية يبشرون كيف شاءوا، وله خطاب شهير كتبه سنة ١٣١٣ م إلى المطران بطرس رئيس المسيحيين في بلاده يؤكد له فيه تسامحه وتقديره للمسيحية ، ورد عليه البابا يوحنا الثاني عشر سنة ١٣١٨ م بخطاب شكر وتقدير . وبهذا لم يقدر لهذا الزعيم المغولي المسلم المتحمس أن يوقف تقدم المسيحية في بلاد الروس ، وظل الإسلام في روسيا مقتصراً على المناطق التي خضعت لمغول القبيلة الذهبية ، أتى من مصب الفولجا إلى نوفوجورود مع امتداد إلى الغرب حتى بلاد القرم . أما بقية الروس ما بين مسيحيين وغير مسيحيين فقد ظلوا يؤدون الجزية لأوزبك خان دون أن يرغموا على اعتناق الإسلام .

وكان يجاور مغول القبيلة الذهبية في جنوب روسيا شعب إسلامي آخر من أصل تركي هو شعب البلغار وكان يسكن شمالي البحر الأسود وغربه ، ويرجع إسلام البلغار إلى أيام الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ / ٩٠٨ — ٩٣٢ م) إذ أنه أرسل إليهم رسولا وعدداً من الدعاة والفقهاء .

وقد اجتهد البلغار في تحويل الروس إلى الإسلام ، وكانت مملكة هؤلاء الأخيرين تقوم في كييفَ وكانوا على الوثنية ، وكان ملكهم يسمى فلاديمير ، وكان التنافس شديداً بين المسلمين والنصارى على اجتذابه ، وقد أبدى ميلا للإسلام ولكنه كره الختان ولم يقبل تحريم الخمر ، وكان الروس شديدي الولع بها ، وكذلك أخفق اليهود في كسبه في حين أرسل المسيحيون داعية لَسِناً ذكياً شرح له المسيحية شرحاً حسناً بليغاً ، كان له أعمق الأثر في نفسه خاصة وقد وعده ذلك الداعية بملك مملكة السماء إذا هو دخل المسيحية ، وأخيراً انتهى رأيه إلى أن يبعث بوفدين من الروس إلى بلاد النصرانية وبلاد الإسلام فأي الوفدين وجد البلاد التي زارها أسعد وأرخى حالا كان ذلك دليلا على امتياز دين أهلها في رأيه ، فأما الوفد الذي ذهب إلى بلاد الإسلام فذهب إلى بلاد البلغار ، فوجد فيها فقراً فاشياً ، ووجدها فيما قال موحشة كئيبة . ووجد مساجدهم بسيطة لا زينة فيها ، وصلاتهم جليلة وقورة لا موسيقى فيها ولا إنشاد . وأما الذين ذهبوا إلى بلاد المسيحية فقد توجهوا إلى بلاد الألمان الكاثوليك فوجدوا — حسبما قالوا — وجوها نضرة وأجساماً ضخمة وكنائس جليلة يصلي الناس فيها على نغمات الموسيقى والإنشاد البهيج ، ثم ذهبوا إلى القسطنطينية حيث أحسن الامبراطور وفادتهم وجعلهم يشهدون الصلاة في كنيسة أيا صوفيا بضخامتها وجلالها وملابس قساوستها الزاهية الألوان وتراتيلهم الرخيمة ، فوقع في أنفسهم أن عقيدة أهل القسطنطينية لا بد أن تكون في رأيهم أقرب العقائد إلى الله سبحانه إذ أنه أضفى عليها هذا الجلال كله ، وبعد تداول طويل بين الملك ونصحائه استقر رأيه على اتباع المسيحية على مذهب الكنيسة الإغريقية (كنيسة الدولة البيزنطية) وهي ما نسميه نحن بعقيدة الروم الأرثوذكس سنة ٩٨٨ م . وهكذا كسبت المسيحية شعب الروس كله ، وانتشرت في كل ما سكنوه وخضع لهم من بلاد ، وهذا حدث يعتبر من أخطر حوادث التاريخ الإسلامي ، ولا نزال نحس أثره

إلى اليوم ، خاصة وقد تعصب قياصرة الروس للمسيحية تعصباً شديداً وأوقفوا تقدم الإسلام في بلادهم ، بل أخذوا في توسعهم في آسيا يضطهدون الإسلام فيما دان لهم من بلاد . ولم يتنفس مسلمو روسيا الصعداء إلا في سنة ١٩٠٧ م عندما أعلن قيصر روسيا التسامح الديني في بلاده .

وعندما قامت الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧ م كانت هناك في روسيا أعداد كبيرة نسبياً من المسلمين معظمهم من التتار الذين كان القياصرة يستجلبونهم من آسيا للاستعانة بهم في الشئون العسكرية ، وكان هؤلاء يسكنون مساحات واسعة تمتد من بلاد القِرم إلى السفوح الشرقية لجبال الكربات ، وكان الإسلام في القِرم قديماً كما ذكرنا ، وكانت هناك أعداد كبيرة من أولئك من أولئك التتار في ليقْوانيا ، وكانت سهول القرغير التي تقع شمال غربي بحر الخزار (قزوين) وتصل إلى شرقي الفولجا عامرة بالمسلمين ، فأين ذهب هؤلاء جميعاً ؟

نلاحظ أولا أن السلطات الروسية كانت تكره أن ينشيء التتار مساجد لهم ، فكانوا يقيمون شعائر دينهم في زوايا صغيرة بدائية يتخذونها من الخشب في قراهم وفي أحياء المدن التي يسكنونها . ولم يكن بينهم علماء أو رجال دين يفقّهونهم في أمور دينهم ، فكان إسلامهم تشوبه أشياء كثيرة خارجة عن الإسلام ، ثم إنه لم يكن يسمح لهم بالزواج بالروسيات إلا إذا دخلوا المسيحية على مذهب الروم الأرثوذكس ، ثم بدأت الحكومة الروسية في أيام كاترين الثانية تعمل على تنصيرهم وتضطهدهم وتنزل بهم العقاب الصارم والاضطهاد العنيف .

وقد تحمل تتار روسيا هذا العسف كله لكي يحتفظوا بدينهم ، وعاشوا في فقر وعُسر في مناطقهم محتفظين بدينهم حتى جاءت الثورة الشيوعية في أكتوبر ١٩١٧ م ، فرفضوا التخلي عن ديانتهم ، في أوائل أيام لينين

صدر قرار بنقلهم جميعاً إلى سيبريا وتفريقهم في نواحيها .وفي فيافي سيبريا وغاباتها اختفى تتار روسيا المسلمين .

وأما تتار القرغيز فقد ظلوا متمسكين بدينهم الإسلامي رغم كل محاولات الروس ، لتنصيرهم ، وفي أيام كاترين الثانية لجأت الحكومة الروسية الاستعمارية في ذلك الحين إلى حيلة مضللة ، فقيدت أولئك الناس في السجلات مسيحيين ، واعتبرت من يبقى على الإسلام منهم بعد ذلك مرتدين توقع عليهم عقوبة صارمة . وزعمت الوثائق الروسية أنهم كانوا في الأصل وثنيين ثم تنصروا ثم ارتدوا عن المسيحية . ولما كان هؤلاء المساكين جهلاء وأميين وفقراء فلم يعلموا شيئاً عما صنعته الحكومة بهم ، وتعرضوا للأضطهاد والعقاب الشديد دون أن يفهموا كيف تزعم الحكومة أنهم كانوا وثنيين ثم دخلوا المسيحية ثم ارتدوا عنها إلى الإسلام .

ومن أغرب ما حدث وأكثره دلالة على قوة الإسلام الذاتية الدافعة أن القرغيز كانوا رغم ذلك يزدادون إقبالا على الإسلام ، بل أنشأوا في قازان — عاصمة قطرهم ، مركزاً للدعوة الإسلامية ، وكانوا يطبعون منشورات الدعوة إلى الإسلام والتعريف به بلغتهم ، وكان العارف بالإسلام عندهم يسمى المُلاّ ، وهو لفظ فارسي معناه الشيخ أو الفقيه ، وهم يجمعونه على « مُليّات » فكان المليات منهم من أساتذة جامعة قازان وطلابها ينتشرون في القرى والفيافي يدعون بني جلدتهم إلى الإسلام ، ويعرفونهم به ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً وأدخلوا في الإسلام ألوفاً من القرغيز وخاصة ابتداء من سنة ١٩٠٥ م وهي السنة التي أعلنت الحكومة القيصرية فيها حرية الأديان في الامبراطورية الروسية ، وبلغ عدد من دخل الإسلام على أيدي أولئك المليات فيما بين سنة ١٩٠٦ و ١٩١٠ م ثلاثة وخمسين ألفاً ، وكان مجتمع القرغيز المسلمين في ذلك الحين أرقى وأعلا مستوى وأشدتماسكاً من المجتمعات الآسيوية

التي كانت تعيش في أقاليم السهوب في وسط آسيا . وكانوا ينفرون من المسيحية ويرفضون الدخول فيها ، لأن القساوسة كانوا يلجأون إلى العنف ويستعينون على هؤلاء الناس بجاه الدولة ، فارتبطت المسيحية في نظرهم بسياسة الدولة الروسية الغاشمة في ذلك الحين ، وأصبح الإسلام عندهم ديناً قومياً مناسباً كل المناسبة لظروف حياتهم .

وكان ميل هؤلاء القرغيز ومن جاورهم إلى الإسلام قديماً ، ففي القرن الثاني عشر دخلت في الإسلام قبائل الفوتياك التي كانت تسكن شمال بلاد القرغيز وتمتد شمالا بغرب وتصل إلى البحر الأبيض الشمالي ، وفعلت مثل ذلك قبائل الشريميس التي كانت أراضيها تجاور الفوتياك ، فأقبل رجالها على الإسلام إقبالا شديداً خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، بل وصل الإسلام عن طريق هذه القبائل إلى فنلندا ، فدخل فيه نفر من الفنلنديين ، ولكن الجماعة الإسلامية في ذلك القطر الأوروبي المتطرف إلى الشمال كانت منفصلة تماماً عن الجماعات الإسلامية الكبيرة ، ولم يكن بينها رجال يعلّمون الناس الدين الصحيح أو يؤلفون لهم رسائل فيه .

وكل هذا الانتشار للإسلام في روسيا يرجع الفضل فيه إلى التتار الذين كانوا في يوم من الأيام من ألد أعداء هذا الدين ، وليست هذه أول مرة نرى فيها ظاهرة تحول أعداء الإسلام إليه وتحمّسهم له وعملهم على نشره ، فالحقيقة أن الإسلام فاتح غلاب وقد دل على قوته وقدرته على التسرب إلى قلوب خصومه وهدايتهم إلى طريق الحق منذ طوى أعداءه الألداء من القرشيين المكيين تحت جناحه وسيّرهم في خدمته وفتح لهم أبواب النصر والقوة والتوفيق .

وليس لدينا أية معلومات يعتمد عليها عن موقف الإسلام في روسيا اليوم ، لأن الروس كأهل الصين وكافة الشيوعيين لا يذيعون بيانات صحيحة عن أنفسهم أبداً ، ولكن سلطان الفكر الشيوعي في تلك البلاد غاشم وهو

فكر إلحادي يضع مبادىء الماركسية واللينينية فوق الدين ويضطهد مخالفيه دون رحمة ، ومن هنا فأنت لا تستطيع التفاؤل كثيراً بوضع الإسلام وأحوال المسلمين ومستقبلهم في أي بلد يسوده النظام الشيوعي بما في ذلك المسلمون في الجمهوريات الروسية الإسلامية في آسيا وعددها ست هي قازاكستان وقرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان وآذربيجان .

ـ الاسلام بين تتار سيبيريا ووسط آسيا :

كانت سيبيريا ـ أو الجانب الأكبر منها على الأقل ـ داخلة في بلاد الامبراطورية المغولية التي أقامها جنكيز خان ، فلما مات صارت في أملاك ابنه الأكبر جوجي خان ، ثم توارثها أبناؤه من بعده حتى صار عرشها في القرن السادس عشر إلى كوتشم خان أحد أحفاده ، وقد بدأ حكمه سنة ١٥٧٠م، وكان شديد الحماس للإسلام فقام بكل ما يستطيع لإدخال رعاياه في دين الله ، واستقدم الدعاة والفقهاء من بخاري ، وجعل عاصمتها قازان على نهر ايرتيش مركزاً كبيراً للدعوة الإسلامية .

في ذلك الحين ـ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ـ كانت الجيوش الروسية تتقدم في سيبريا غازية ، فاجتاحت سهول القرغيز وكل نواحي سيبريا التي كان الإسلام قد انتشر فيها ، وبدأ الروس تطبيق سياسة التعصب المسيحية الأرثوذكسية ، كما هو دأبهم ، ولكن الإسلام ظل يتقدم في سيبريا وظلت كل قبائل نواحي القرغيز ومنغوليا متمسكة بالدين الحنيف ، بل أنشأ شعراؤها قصائد تضم قواعد الإسلام وتحكي بطولات عظماء الفاتحين المسلمين . ولكن الدولة الروسية الشيوعية تحاول القضاء على الإسلام في تلك النواحي عن طريق إرغام الناس على الدخول في المذهب الشيوعي ، وهو مذهب مادي يلغي الأديان ولا يعترف بها ، والنتيجة أن عدد المسلمين في النواحي التي ذكرناها

من سيبيريا يتناقص وإسلامهم يزداد سطحية يوماً بعد يوم نتيجة للدعاة الشيوعيين وتوجيه التعليم كله توجيهاً علمانياً إلحادياً مركسياً . ونعتقد أن أقل ما نستطيع عمله لمعاونة هؤلاء الإخوة أن تخصص إذاعات لهم بلغاتهم ، ويكون الإرسال من مراكز الإذاعات الإسلامية ، وليس من الضروري أن تتناول هذه الإذاعات مسائل سياسية بل يكون تركيزها في مخاطبة الناس على شئون الدين ، فيعرَّف الناس بدينهم وعقائده وعباداته مرة بعد مرة ، وتتلى عليهم آيات القرآن ثم تنقل معانيها إلى لغاتهم ، وكذلك يُفعل مع الأحاديث النبوية ، ولا بد كذلك من تعريفهم بتاريخ الإسلام وأمجاده وأبطاله ودوله وحضارته ، وتذكيرهم بماضيهم الإسلامي المجيد مع النص دائماً على أنهم مسلمون وأن واجبهم هو المحافظة على دينهم ، هذا مع بيان ما في العقائد الماركسية من مغالطات ومخالفات لقواعد الإنسانية ومكارم الأخلاق . إنهم يخصصون محطة إذاعة ماركسية للدعوة في بلادنا مركزها إريفان في جمهورية أرمينية ، فلماذا لا نقيم إذاعة مماثلة كل عملها المحافظة على أولئك الإخوة داخل نطاق الإسلام حتى يتأذن الله بالفرج القريب ؟

● انتشار الاسلام فى أفريقية المدارية والاستوائية

نترك آسيا ونتجه الآن إلى افريقية لنرى كيف أن الإسلام فتح ما فتح من بلادها بفضائله الذاتية ، وبالحكمة والموعظة الحسنة التي عرض بها دعاة الإسلام هذه الفضائل وأقنعوا الناس بها ، والكلمة الطيبة التي فتحت مغاليق القلوب ونقلت إلى الإسلام أقواماً كان الغرب يقول إلى حين قريب أنهم ليسوا من البشر .

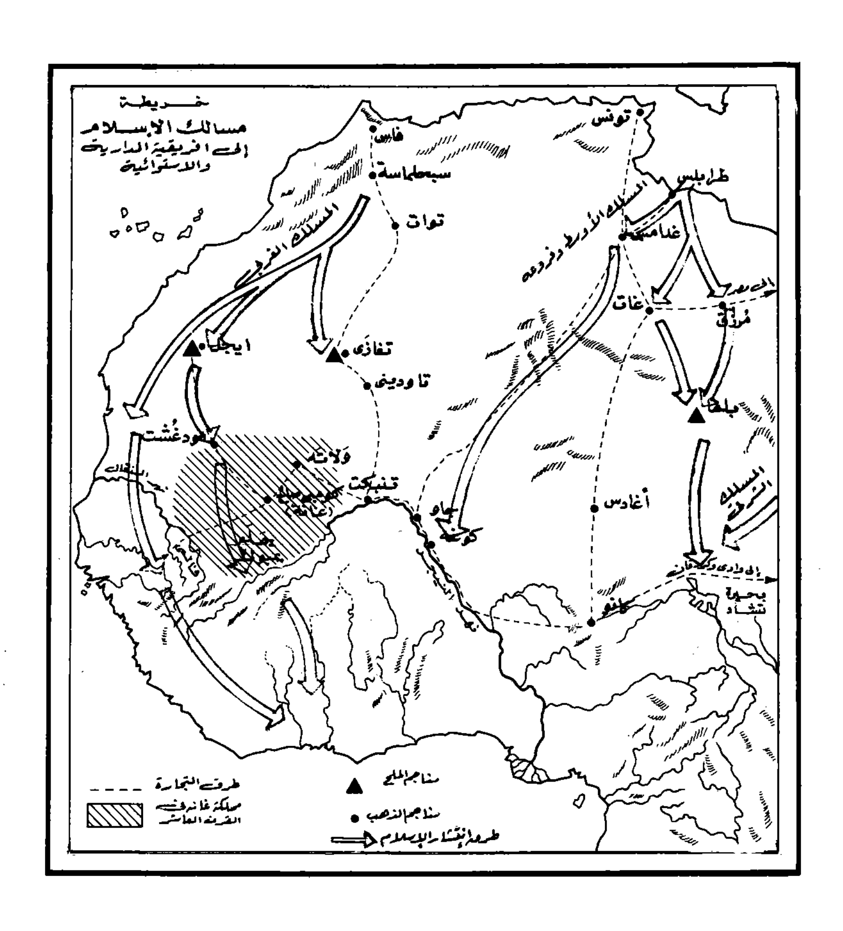
لم يفتح المسلمون من بلاد أفريقية بالجيوش إلا مصر والشمال الإفريقي ، أما بقية ما دان للإسلام من بلاد هذه القارة التي يسمونها بالسوداء ، وما هي بسوداء أصلا ، فقد دخل أهلها في الإسلام رغباً وعن محبة صادقة .

وكما سبق أن ذكرنا ، لم يحارب المسلمون أهل مصر ليفرضوا عليهم الإسلام ، بل هم حاربوا الروم الذين كانوا يحتلون أرض مصر ويفرضون عليهم سلطاناً غاشماً ، وقد كان من المفروض بعد أن استقر أمر المسيحية في بلاد الدولة الرومانية أولا ثم في بلاد دولة الروم ثانياً ، ودان بها أهل مصر كما دان بها أهل روما والقسطنطينية أن يستوي الحاكم والمحكوم تحت راية المسيحية ، وأن يزول كل معنى من معاني الاستعمار والسيادة والاستغلال في أرجاء هاتين الدولتين المسيحيتين ، ولكن المسيحية لم تغيّر من قلوب أهل القسطنطينية شيئاً ، وظلوا يعتبرون أهل مصر والشام وبعض نواحي العراق والمغرب أتباعاً لهم وخدماً ، بل تعدى الأمر إلى ما هو أسوأ من ذلك . فقد ذهب أهل دولة الروم مذهباً خاصاً بهم في المسيحية ، وهو المذهب الذي قرره الأساقفة في مجمع خليقدونية الذي عقد سنة ٣٥١م وقرر أن المسيح عيسى ابن مريم له طبيعتان ،

إنسانية من ناحية أمه السيدة العذراء مريم بنت عمران ، وإلهية لأنه كلمة الله التي تجسدت بشراً سويا ، ثم غلبت في زعمهم الطبيعة الإلهية على البشرية فلم يبق بشراً من عيسى ابن مريم عليه السلام إلا الصورة ، أما حقيقته فهي إلهية خالصة ، فهو الله — تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيرا — حل في جسد عيسى ابن مريم ليتعذب على الصليب فيما قالوا ويشتري بعذابه خطيئة آدم عليه السلام عندما خالف ما أمره به ربه ، فمن آمن بالمسيح على هذا المذهب فقد بريء من خطيئة آدم ، ودخل في جملة المخلّصين من العذاب ، وكان عليه بعد ذلك أن يظل تابعاً للقساوسة والكنيسة لأنها هي وحدها سبيل استمرار المغفرة وبدونها يعود الإنسان إلى اللعنة الأبدية .

ورأي قيصر الروم وأهل حاشيته أن القيصر راعي الكنيسة وحامي المسيحيين ومن ثم فإن له ولبطارقته الحق في صياغة هذه العقيدة على النحو الذي يرون أنه أصلح لرعاياهم ، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى كلها يرمي إلى جعل المسيحية خاضعة للدولة ورجالها ، ورفض أهل مصر والشام ذلك وتمسكوا بما رأى بطارقتهم ، وقالوا أن السيد المسيح عيسى ابن مريم له طبيعة واحدة إلهية وبشرية في آن معاً . وأن البشرية لم تتلاشى قط ، وخاطبوه قائلين : أبانا الذي في السماوات والأرض ، وسموا مذهبهم هذا بالمونوفيزية أي مذهب الطبيعة الواحدة ، وكذلك قال معظم أهل الشام ، وأخذت الدولة تضطهد أهل مصر والشام والمغرب ممن كان يقول بالطبيعة الواحدة .

وبينما أهل مصر والشام والعراق والمغرب في هذا العذاب دخلت جيوش الإسلام فاتحة ، فلم تفرض الإسلام على أحد ، وإنما تركت الناس أحراراً ، فمن أسلم منهم فهذا حظه وقد هداه الله ، ومن لم يسلم فقد خلص من اضطهاد دولة الروم وأقبل على دينه يمارسه كيف يشاء . وفي تاريخ فتوح مصر نجد المقوقس عظيم أقباط مصر يصالح العرب باسم أهل مصر ، في حين يعارضه


خريطة
مسالك الإسلام
إلى افريقية المدارية
والاستوائية
فاس
سجلماسة
توات
تونس
طرابلس
غدامس
السلك الغربي
السلك الأوسط وفروعه
السلك الشرقي
غات
مرزق
تغازى
ايجل
تاوديني
أودغشت
ولاتة
تنبكت
جاو
أغادس
بحيرة تشاد
طرق التجارة
مملكة غانة في القرن العاشر
مناجم الملح
مناجم الذهب
طريق انتشار الإسلام

قَيْرُس ممثل كنيسة القسطنطينية . والمقوقس مصري صلبية ، وأخوه مينا الذي يسميه العرب أبا ميامين كان بطريق المصريين ، وابنته ارمانوسة هي التي أسرها عمرو بن العاص في بلبيس ، فمنّ عليها وأطلقها فعادت إلى أبيها معززة مكرمة .

وكذلك كان فتح المغرب تحريراً لأهل المغرب من البربر من الروم في إفريقية خاصة ، وهي تقابل ما يعرف اليوم ببلاد تونس ، فلما قُضي على الروم أخذ الناس في المغرب يدخلون في دين الله أفواجا ، أما طول مدة فتح المغرب فلا ترجع قط إلى أن البربر رفضوا الإسلام وأراد العرب قسرهم عليه ، وإنما يرجع إلى اتساع بلاد إفريقية والمغرب ووعورة أراضيها وتعدد قبائل البربر وتأبي مواطني بعض هذه القبائل ، ثم إن دعاة الخارجية انبثوا بين البربر وأخذوا يحرضونهم على بني أمية ودولة السنة و الجماعة ، و ثبت على مذهب السنة معظم البربر ، ودارت الحرب بين الجانبين ، فهي إذن حرب داخلية داخل إطار أمة الإسلام التي أصبح البربر بإسلامهم جزءاً منها .

وقد انتهت الحرب بتمام إسلام أهل المغرب وعودتهم جميعاً إلى مذهب السنة والجماعة ولله الحمد والمنة ، وكان ذلك النصر المؤزر في نهاية القرن الهجري الثاني / الثامن الميلادي . أصبح أهل الشمال الإفريقي جميعاً أهل إسلام ، بل مد الإسلام رواقه على الأندلس .

• • •

وقد عاشت إفريقية قبل الإسلام وهي منقسمة قسمين وكأنهما عالمان لا يعرف الواحد منهما الآخر : إفريقية شمالي الصحراء الكبرى ، وهي بحر الرمال الهائل ، وإفريقية المدارية والاستوائية جنوبي ذلك البحر .

ولكن الإسلام كما قلنا دين طيار ، ينتقل مع الريح من بلد إلى بلد لا تقف في سبيله جبال أو رمال ، فكيف عبر الإسلام وحده ، وبقوته وفضائله بحر الرمال الشاسع وأدخل في أمته أمم ما تحت الصحراء ؟

• • •

والصحراء الكبرى حاجز بشري منيع يحول بين اتصال إفريقية المتوسطية بإفريقية المدارية كما لو كان محيطاً من المياه ، لأن عرضها يبلغ في أضيق أجزائها ثلاثة آلاف كيلو متر كانت تقطع في الماضي في ثلاثة شهور على الأقل ، ومن العسير جداً على أي مسافر أن يحمل معه ماء لشخصه ولدابته يكفي ثلاثة شهور ، ثم إن رحلة الفرد الواحد مستحيلة لكثرة الأخطار وصعوبة تدبير النوم والراحة والطعام على إنسان بمفرده ، فلا بد من قافلة من بضع مئات من الناس معهم بضع مئات من الدواب ، وهنا تتبين استحالة قطع الصحراء ، فليست هناك عيون ماء تكفي لهذا القدر من الأحياء مسافة شهور ثلاثة .

لنضف إلى ذلك أن جو الصحراء — حتّى في الشتاء — لا يسمح لأهل الشمال بالعبور إلى الجنوب ، ولأهل الجنوب بالانتقال إلى الشمال بانتظام ، فإن أهل الشمال لا يستطيعون الصبر على لأواء الرمال السائلة وهي العروق ، والصحاري الحجرية زمناً طويلا ، لأن حرارة الشمس طول النهار حتّى في الشتاء لا يحتملها إلا من تعود عليها من المَوْلِد ، ثم ان عواصف الرمال عنيفة ومفاجئة وخانقة ، وهي أحياناً تدوم أياماً وتجفف المياه حتّى في القرب ، وقد هلك الألوف من أهل الشمال في هذه الرحلة المهلكة . أما السود من أهل إفريقية المدارية والاستوائية فلا يصبرون على حرارة الشمس في الصحراء إلا بضعة أيام ، تجف بعدها أجسادهم ويموتون ، لأن طبيعة أجسادهم مكونة في مواطنهم المدارية والاستوائية على أساس شرب مقادير كبيرة من الماء تبخر معظمها عن طريق المسام ، وبهذا يستطيعون تبريد أجسادهم في حر المناطق الاستوائية والمدارية ، ومسام أجسامهم أضعاف مسام غيرهم مرات كثيرة ، ولهذا يسرع تبخر مياه أجسادهم وتجف في الصحراء .

وعلى طول التاريخ لم تكن هناك إلا ثلاث طرق للاتصال بين شمال إفريقية ووسطها . :

أولها طريق نهر النيل ، فيهبط المسافرون إلى إسنا ومن هناك يشرع طريق يسمى طريق الأربعين ، لأنه يقطع في أربعين يوماً ، تصل القافلة بعدها إلى كردفان ، وعاصمتها الأبيّض ، وهي واحة كبيرة وافرة المياه ، ومن ثم تسير القوافل إلى إقليم دارفور وقاعدتها الفاشر ، وهي من أكبر محطات القوافل في الطريق إلى واداي ، وواداي كانت إقليماً وافر المياه بعض الشيء بين دارفور وإقليم بحيرة تشاد، وقاعدة واداي زالِنْجي ، ومن هناك تسير القوافل إلى منطقة بحيرة تشاد ، وتسمى في نصوصنا بلاد الكانم ، وكانت فيما يلي واداي غربا منطقة تجمع مائي : تهبط إليها مياه الجبال القريبة منها وكذلك مياه أنهار إفريقية الإستوائية ، وهذه المياه لا تجري في وديان أو مسايل وإنما تتسرب إلى باطن الأرض وتسير في مسارب تحتية ويحفر الناس عليها .

والطريق الثاني هو الطريق من طرابلس في ليبيا إلى إقليم فزان الغني بواحاته وعيون الماء فيه وآباره ، وبعد ذلك تمر القوافل بمنطقة ضيقة تتوالى فيها الواحات الصغيرة تسمى منطقة كُوّار ، وبين الواحة والواحة ما لا يزيد على مسيرة يومين ، ولهذا تسمى منطقة كوار عند الفرنسيين بدهليز الواحات Le couloir d'oasis بعد ذلك تصل القافلة إلى بلاد الكانم ومنها تتجه إلى حيث شاءت من بلاد إفريقية المدارية والاستوائية .

والطريق الثالث هو طريق ساحل المحيط الأطلسي من وادي درعة في أقصى جنوبي المغرب إلى وادي نهر السنغال ، ومسافة الصحراء هناك نحو شهرين ، منها مسافة شهر يوجد الماء فيها على مراحل معقولة ، ولكن تتوسطها مساحة صحراوية لا تقطع في أقل من شهر بلا ماء أصلا ، فكانت القوافل تتزود بالماء لهذه المدة . وهذه الصحراء يسميها البكري صحراء تنسر ، وكانت تسكنها في الماضي قبائل مغربية صنهاجية تسمى في مجموعها بصنهاجة الصحراء ، وأكبر قبائلها لمتونة وجُداله ، ومَسوفَة ولَمْطَه ، وبنووارث وتارجا

وهذه هي المجموعة القبائلية التي أقامت دولة المرابطين . وكانت القوافل تتزود بالماء والغذاء من منطقة تافِلالْت جنوبي منابع نهر المولويه في المغرب الأقصى ، وهي منطقة واحات وعيون ماء جارية وقاعدتها سِجِلماسه ، فإذا فصلت القافلة من سجلماسه سارت في حماية قبائل صنهاجة الصحراء حتى تصل وادي نهر السنغال ، والمحطة الأولى في طريقها مدينة أودُغَشتْ . وهي باب إفريقية المدارية من هذه الناحية .

* * *

وقد استطاع الإسلام أن يجد طريقه إلى إفريقية المدارية والاستوائية عن هذه الطرق الثلاث . فماكاد يدخل المغرب حتى أخذ يتلمس طريقه إلى الجنوب واستطاع بقوته الذاتية وفضائله أن يجد طريقه عبر الصحراء ويصل إلى أهلها ويدخل قلوب أهلها شيئاً فشيئاً .

وفي دراسة مفصلة نشرتُها في المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية سنة ١٩٦٩م عنوانها «فزان ودورها في انتشار الإسلام في إفريقية » بينت كيف وصل الإسلام أول ما وصل إلى إفريقية المدارية عن الطريق الثاني أي الأوسط الذي تحدثنا عنه آنفاً : طريق طرابلس ففزان ووَدّان فكوار ، وذكرتُ كيف وصل الإسلام إلى فزان وكوار لأول سنوات فتح المغرب ، فقد كان عمرو بن العاص قد أتم فتح برقة سنة ٢١هـ / ٦٤١م ثم طرابلس سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م ثم أرسل إلى فزان بعثاً عسكرياً يقوده نافع بن عبد القيس القهري — وهو زوج أخته — ففتح بلاد الصحراء : زويله وودان وفزان ، وترك فيها حامية إسلامية ودعاة يعلمون الناس قواعد الإسلام .

وكان عقبة بن نافع بن عبد القيس القهري يرافق أباه في ذلك البعث ، وكانت سنه إذ ذاك لا تجاوز عشر سنوات . وبعد ذلك أقام نافع بن عبد القيس سنوات متنقلا ما بين الإسكندرية وبرقة وزويلة وفزان . وعندما عاد إلى

الفسطاط ترك ابنه عقبة مع القوات الإسلامية المعسكرة في نواحي الصحراء فنشأ عقبة جندياً مدرباً عارفاً بشئون الصحراء وطرقها ومداخلها وقبائلها .

وكان عقبة بطبعه رجل دين ودعوة ، فكانت تلك السنوات سنوات تكوينه العقلي والديني . واشتهر أمره في هذه النواحي بسبب حرصه على نشر الإسلام بين الناس .

وفي سنة ٢٠هـ/٧٥٠م أقامه يزيد بن معاوية بن أبي‌سفيان قائداً على قوات الإسلام الغازية في المغرب فسار في قوة من الفرسان أمده بها يزيد من مصر إلى برقة فزويلة ففزان فودان ثم كوار .

وفي كل ناحية من هذه النواحي كان يستوثق من إسلام رؤسائها وطاعتهم للعرب ، ويترك في الناس من يعلمهم أصول الإسلام .

ومن كوار صعد عقبة بن نافع بجيشه إلى غدامس ، ومنها دخل إفريقية (وهي تونس) وقد أقامه يزيد والياً عليها . فبدأ عمله بإنشاء القيروان لتكون قاعدة للإسلام في إفريقية ومركزاً تصدر منه جيوش الفتح بدلاً من صدورها من الفسطاط . وقد استغرق إنشاء عقبة للقيروان ومسجدها خمس سنوات (٥٠ ــ ٥٥هـ / ٥٧٠ ــ ٧٥٥م) .

والمهم لنا الآن أن عقبة فتح طريق فزان وكوار للإسلام ، فبدأت قوافل التجارة ، وفيها مسلمون ، تسير في هذا الطريق وتُدخل الإسلام إلى إفريقية المدارية ، ومع الزمن أنشئت على الطريق المساجد والزوايا والرُّبط ، وقامت الجماعات الإسلامية .

عن هذا الطريق هاجرت خلال القرن الثالث الهجري قبيلة بربرية لا نعرف ماذا كان اسمها في مواطنها الأولى في المغرب ، واستقرت بعض الوقت في إقليم تشاد ، ثم اتجهت غرباً إلى حوض النيجر ، واستقرت في غرب المنطقة التي يسميها العرب بالساحل . والمقصود بذلك الساحل الجنوبي من الصحراء

الكبرى ، إذ أن هذه الصحراء عندهم هي بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هي الساحل الشمالي لبحر الرمال ، أما منطقة الساحل غربي حوض النيجر فهي ساحله الجنوبي ، والواحات في ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لا يطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهي سيوه (سنتريه عند العرب) والفرافرة (الفرفرون عندهم) والبحرية (وهي البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصري قديم معناه المـــاء .

في منطقة الساحل النيجرية هذه عُرفت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سونِنْكَه وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله ، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى وسيطر رجالها على مدن مثل ده تنيكت (تمبكتو) وماسه وجِنِي ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البمبارا والونقارا والتكرور والفولا ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهي غانة ، وموضعها اليوم قرية خربة تسمى كومبي أو كومبي صالح إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالي الحالية . وقد ذكر ذلك محمود كعت في كتابه المعروف باسم « الفتاش » (١) .

وقد اتسع ملك السوفنكه ، وتَموّلوا بفضل تبر الذهب الذي يكثر في أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم السمراء . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء

---

(١) بدأ محمود كعت كتـــابه هذا سنة ١٥١٩/٩٢٥ ونشره المستشرق الفرنسى هوداس فى باريس سنة ١٩١٣ ، وهو من اهم مراجعنا عن تاريخ الاسلام فى افريقية المدارية والاستوائية (انظر قائمة المراجع فى آخر هــذا الكتاب) .

وظل ملكهم قائماً حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي .

وقد حمل الإسلام إلى السوننكة في مواطنهم في إفريقية المدارية التجار والدعاة القادمون عن طريق فزان ، وقد أفاض المؤرخ محمود كعت الوعكري في كتابه المسمى « بالفتاش » الكلام عن اتساع مملكة السوننكه هذه ، ووصف ملوكها بأنهم ملوك الذهب وسمى مملكتهم مملكة غانة نسبة إلى عاصمتها أو مملكة كيمغ نسبة إلى أول ملوكها ومعنى كيمغ ملك الذهب .

ـ اسلام مملكة غـانا

أول الممالك الاسلامية فى أفريقية المدارية

في نهاية القرن الثامن الميلادي قامت قبيلة من قبائل السوننكة وهي سيسي أو صوصو ، وقضت على ملك آل كيمغ وحلت محلها . وكان الصوصو قد اختلطوا بأهل البلاد حتّى أصبحوا سوداً مثلهم ، ولهذا لم يجدوا صعوبة في بسط سلطانهم على كل ما كان يملكه أسلافهم . أما بقايا السوننكة من البربر فقد هربوا إلى إقليم التكرور عند مجرى نهر الغامبيا . وتغلبوا على التكاررة ، وحكموا بلادهم ، وظلوا يسودونها حتّى قام عليهم التكاررة وغلبوهم فتفرقوا في البلاد ومنهم من ذهب إلى الصحراء الكبرى الغربية التي تفصل بين المغرب وإفريقية المدارية . وفي الصحراء أقاموا ودخلوا في شعب الطوارق واختلطوا به ، ومنهم من ذهب إلى بلاد غانة .

ولم يكن السوننكة السود كلهم على الإسلام ، وإنما كان منهم الكثيرون من الوثنيين ، وكان الدين الحنيف ينتشر بينهم ، ويحل محل الوثنية شيئاً فشيئاً . وهؤلاء المسلمون الغانيون الذين دخلوا الإسلام على أيدي السوننكة هم الذين مهدوا لتحويل بلاد غانة كلها إلى الإسلام عندما دخلها المرابطون فيما بعد .

وكان سادة غانة الجدد من السوننكة أقوى من سكانها القدامى ، وكان سلطانهم أوسع ، وجدير بالذكر أن دولتهم كانت تسمى غانة أيضاً ، وكان يطلق على ملوكها لقب كيمغ أو قيمغ كذلك .

وقد تمكن رجال هذه الدولة من الإستيلاء على أودغشت ، وقد كانت مركز التجارة الرئيسي لكل القوافل الصادرة من غانة وغيرها من بلاد إفريقية

المدارية إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسي وصلوا إلى واحات سجلماسه عاصمة إقليم تافللت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة أكبر المراكز التجارية في إفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب في تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاماً عنها أبو عبيد البكري والشريف الإدريسي وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة على أودغشت حادثاً فاصلا في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية المدارية لأنه مكن الغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق اسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكري يقول أنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوماً من مدينة غانة القديمة التي تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومبي صالح ، وتقع على مقربة من بليدة تجدادست Tegdadust شرقي منطقة تاجنت Togent

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربي نهر النيجر مثل وَلاتَه وأنبارة وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بلغت مملكة غانة الثانية التي أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د. ابراهيم علي طرخان في كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة — بجانب ادكار وهودْ — باسيكورو Bassikuru ووجادو في الشرق وديارا في الغرب ، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو في الجنوب الشرقي ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسي ، وصارت أعظم قوة سياسية في السودان الغربي ،

ويمكن القول بصفة عامة أنها امتدت نحو الشمال وخضع لها أغلب قبائل الصحراء الجنوبية، وربما وصلت غزواتها إلى منطقة ادرار(١) وامتدت من ناحية الغرب إلى أعالي السنغال وفرعه باولي Bowle وحدود مملكة التكاررة . ووصلت في الشرق إلى قرب تُنْبُكت ، وجنوباً بغرب إلى أعالي النيجر وأعالي السنغال ومنطقة الذهب في وَنْقارَه ، ولكنها لم تتحكم في ونقارة نفسها » وأضاف أنه من المحتمل أن تكون قد امتدت إلى أطراف منطقة الغابات الإستوائية ، واقتربت من مواطن الوثنيين المعروفين في الكتب العربية باسم « الكفار اللمْلَميّة كما يقول الإدريسي » .

وقد ازدهرت غانة عاصمة هذه الدولة الكبيرة ـ ومكانها اليوم موضع كومبي صالح كما ذكرناه في عصر دولة السوننكة الثانية التي نتحدث عنها ـ وكان فيها حي كامل للمسلمين ، ولكن الوثنية كانت غالبة على المملكة وأهلها ، وكانوا يعبدون أصناماً تسمى الدكاكير مفرده الدكور ، ونفهم من كلام أبي عبيد البكري أن الحي الإسلامي في غانة كان مدينة قائمة بذاتها منفصلة عن « مدينة الملك » وهي المدينة الأصلية وعاصمة البلاد . وكان في القسم الإسلامي أحد عشر مسجداً أما في « مدينة الملك » فكان يوجد مسجد واحد لمن يفد من المسلمين .

ـ مدينة أودغشت بين المسلمين وملوك مملكة غانة

قلنا ان مدينة أودغشت كانت مركزاً تجارياً ضخماً في افريقية المدارية ، وكانت تقع في شمالي حوض السنغال ، وهي أول ما يلقاه من يعبر الصحراء

---

(١) ادرار منطقة تقع الى غرب الطرف الجنوبى لجبال الاطلس الصحراوية جنوبى المغرب الاقصى ·

الكبرى قادماً من الشمال من كبار المدن ذات الأسواق العامرة ، وكان مرد غناها إلى أنها كانت السوق الكبير للذهب الذي يستخرج من بعض أنهار إفريقية المدارية ، ثم أنها كانت تقع في منطقة غنية واسعة الموارد ، فكانت لذلك عماداً كبيراً لمملكة غانة . وكانت قبائل صنهاجة الصحراء تمتد حتى تصل إلى أودغشت وحوض السنغال ، واسم النهر نفسه مشتق من اسم صنهاجة ، فقد أطلق ذلك الإسم عليه البرتغاليون ، فقالوا صنهاجال أي الصنهاجي ، ونطقوه سنغال Senegal ولزم الإسم النهر من ذلك الحين ، أما المسلمون فقد أطلقوا على هذا النهر اسم نهر غانة ، وقبل أن تستولى قبائل صنهاجة الصحراء على أودغشت كانت شهرتها بالذهب قد طبقت الآفاق ، قال أبوعبيد البكري في وصف إفريقية والمغرب « وذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض ، وهو يطنب في كتابه في الكلام عن غنى تلك المدينة وما كان لأهلها من الثروة والخيرات ، ويقول أن معظم الناس هناك كانوا من الصنهاجيين ولكنهم كانوا خاضعين لسلاطين غانة ، وقبل أن يدخل المرابطون الناحية كان الإسلام قائماً في أودغشت ، وكان القرآن يعلم فيها للصغار في الكتاتيب(١) ، ويقول : وكان ملك أودغشت في الخمسين وثلاثمائة (أي في سنة ٣٥٠) تين بروتان بن ويسنو بن نزار ، رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدي إليه الجزية ، وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة ويعقد في مائة ألف نجيب » . وهذا فيما علمنا أكبر قطيع من الجمال ملكه إنسان في التاريخ .

ولم يذكر البكري أو غيره أن ملك غانة هذا كان مسلماً ، ولكن أهل أودغشت كان فيهم إسلام كثير ، نشره فيهم تجار المغرب والصنهاجيون منهم

---

(١) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان . الجزائر سنة ١٨٥٧ ص ١٥٨ .

خاصة ، وشيئاً فشيئاً أسلم معظم أهل أودغشت وأصبحت مركزاً للإسلام في إفريقية المدارية ، وكان ذلك قبل مجيء المرابطين .

ـ دخول المرابطين أودغشت واسلام مملكة غانة :

وعلى الرغم من أن صاحب أودغشت ومعظم كبراء دولته كانوا من المسلمين إلا أن الإسلام لم يعم أهلها ، وكانت غالبيتهم من السود الكعارتة والماسينا والياتِنْجا والفولا وكان معظمهم يدينون بالولاء لمملكة غانة ، بل كان صاحب أودغشت يخشى دولة غانة وسلطانها ، وعندما ضعفت مملكته بعد وفاته أدى خلفاؤه الجزية لغانة ودخلت في طاعة ملكها السوننكي .

وكانت مملكة غانة خطراً شديداً يهدد بربر صنهاجة الضاربين في الطرف الغربي للصحراء الكبرى الفاصلة بين المغرب وإفريقية المدارية ، وأهمها لمتونة ومسوفه وجداله وجزولة وبنو وارث وتارْجا ، وكانت هذه القبائل الصنهاجية مهددة من الشمال في نفس الوقت بقبائل زناته التي بسطت سلطانها على المغرب الأقصى كله خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بعد انقضاء الدور الأول من تاريخ دولة الأدارسة على يد الفاطميين في حدود سنة ٢٩٧ / ٩١١ ونتيجة لنزاع هؤلاء مع الأمويين في الأندلس على مصير المغرب الأقصى ، فانتهز الزناتيون الفرصة وسادوا المغرب الأقصى حتى استولوا على سجلماسة ، وضغطوا على صنهاجة الصحراء ضغطاً خطراً .

وهذا الشعور بالخطر على المصير والضياع بين الزناتيين من الشمال وسلطان غانة من الجنوب كان الدافع الحقيقي الذي جعل يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة جدالة يرحل إلى المشرق باحثاً عن وسيلة يستطيع أن يجمع بها كلمة قومه وتوحيدهم لتحريرهم من استبداد الزناتيين من الشمال وضغط الغانيين من الجنوب . ولعله نظر في ذلك إلى ما أدركته قبيلة أَوْرَبَة البربرية وحلفاؤها عندما اتحدت

تحت لواء إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأقامت دولة الأدارسة وعزت بها . كان يحيى بن ابراهيم يعرف أن عصب الدين هو الرباط الوحيد الذي يمكن أن يجمع الصنهاجيين بعضهم إلى بعض ويخرجهم من فوضى المنازعات المحلية القبلية الصغيرة ويطلق قواهم الكامنة التي تستطيع تحطيم النطاق المضروب عليهم ، وعندما التقى يحيى بن ابراهيم بأبي عمران الفاسي في القيروان أخذت الفكرة صورة واضحة أمامه : فهو في حاجة إلى إمام يعلم قومه الدين وأخلاقياته والنظام والاتحاد ، خاصة وقد كانت جُدالة من أكثر القبائل الصنهاجه الصحراوية فوضى واختلاف أمر ، ولم يجد أبو عمران من طلابه شاباً طموحاً عميق الإيمان جريء القلب يقوم بهذه المهمة ، فنصح يحيى بن ابراهيم بأن يطلب ذلك إلى وَجّاج بن زَلّلو فقيه سجلماسة وكان يقيم في قرية من قرى تافللت تسمى ملكوس ، وكان وجاج أيضاً صنهاجياً صحراوياً من قبيلة لمطه ، وكانت مضاربها في أقصى الصحراء جنوباً على أبواب إفريقية المدارية ومركزها مدينة مشهورة على البحر تسمى نول لمطة وكان بعض الجغرافيين العرب يرون أنها آخر بلاد الإسلام في أقصى بلاد المغرب إلى الجنوب .

وطلب ابراهيم الجدالي إلى وجاج بن زللو أن يرشح له واحداً من تلاميذه ، وشرح له المهمة التي كان يرجو أن يقوم بها هذا التلميذ ، وهي مهمة دينية سياسية ، والفقيه المطلوب ينبغي أن يكون من ناحية معلماً للقوم ومن ناحية أخرى زعيماً سياسياً لهم . ووقع اختيار وجاج بن زللو على عبد الله بن ياسين ، وكان شاباً عظيم النشاط واسع الذكاء ، وكان مؤهلا بطبعه للقيام بهذه المهمة ، فقد كان رجل سياسة قبل أن يكون رجل فقه ، وكان يحس بمأساة قومه إحساساً عميقاً : ذهب إلى الأندلس فدرس على من تيسر له من شيوخه ، وفي طريق عودته من الأندلس إلى سجلماسة مخترقاً المغرب الأقصى من شماله إلى جنوبه رأى استبداد زناته بصنهاجة وقدر في نفسه – كما يقول ابن عذارى – قوة

الزناتيين ، وأحس أنها قوة يسيرة يسهل التغلب عليها ، فما كاد وجاج بن زللو يعرض عليه الأمر حتّى قبل وتوجه مع يحيى بن ابراهيم الجدالي إلى مواطن جُداله ، وأراد أن يدفعهم في الطريق الذي رسمه لنفسه بالعنف ، فثاروا به وطردوه ، فعاد إلى وجاج . فأرسله إلى لمتونه أقوى قبائل صنهاجة الصحراء وأكثرها تماسكاً ، وكان يرأسها شيخ ذو خبرة وتجربة وطموح وبُعد نظر هو يحيى بن عمر ، فرحب بعبد الله بن ياسين . وكان هذا الأخير قد تعلم كثيراً من التجربة السيئة عند الجداليين ، فقرر أن يربط بين طموحه وطموح صاحبه يحيى بن عمر : فعبد الله بن ياسين هو الإمام والمعلم والموجه الديني ، ويحيى ابن عمر هو الرئيس السياسي ، ومع أن العلم الصحيح بالفقه الإسلامي لم يتوفر لعبد الله بن ياسين ، فكان يفتي أحياناً بما يخالف السنة ، إلا أنه كان يعوّض هذا النقص بالعمل على أن يكون ليحيى بن عمر نصيب الأسد مما كان عبد الله بن ياسين يفرضه من إتاوات باسم الزكاة – حتّى أنه كان يُلزم المؤمنين بإخراج ثلث أموالهم زكاة لكي يطهّرَ لهم الثلثان الباقيان كما قال – فحظي بذلك عند يحيى بن عمر .

وكان يرأس قبيلة لمتونة بيت عريق هو بيت طرغوت بن ورطاسن . وقد صاهر يحيى بن عمر ورطاسن وتزوج ابنته واندرج في غمار بني طرغوت بن ورطاسن حتّى ذهب كثير من المؤرخين إلى أنه ابن لورطاسن ، وتمكن يحيى ابن عمر بملكاته من أن يصل إلى الرياسة بعد موت ورطاسن ، ولكنه كان ذكياً أريباً فحفظ لآل طرغوت بن ورطاسن مكانتهم وأشرك رجالهم معه في الأمر فأيدوه وشدوا من أزره وأزر عبد الله بن ياسين صاحبه ، وإذا كان يحيى بن عمر قد أصبح رأس البيت المالك إلا أن أولاد ورطاسن ظلت لهم في الدولة مكانة كبرى وخاصة اثنان من بني ورطاسن هما بيت بالوفكا أو سِلِنْكان وبيت واسينو ، فأما بيت سلنكان فقد أخرْجَ سلسلة من أعاظم قادة

المرابطين هم مَزْدَلي بن سِلنكان وبنوه وأما بيت واسينو فقد أطلع القائدين العظيمين يحيى بن واسينو وابنه عمر ، ولكل من آل سلنكان وآل واسيتو صفحات مجيدة في تاريخ جهاد المرابطين في الأندلس .

المهم أن عبد الله بن ياسين وفق توفيقاً عظيماً في مهمته ، فتمكن من جمع صفوف لمتونة وتكوين قوات من المجاهدين في سبيل الدين سماهم المرابطين ، وتمكن بعد ذلك من جمع كلمة كل قبائل صنهاجة الصحراء إلى لواء واحد : فانضمت صفوف جدالة ولمتونة ومسوفة وتارجا وبني وارث ، واستطاع هذا الرجل أن يحول هذه الكتلة الصنهاجية إلى قوة عسكرية مجاهدة ضخمة تحارب في جبهتين : جبهة زناتة في الشمال وجبهة السودان الغاني في الجنوب ، وفي كلتا الجبهتين كان توفيقه عظيماً ، واستولى على أودغشت من الغانيين وعاقب أهلها لخضوعهم للسوتنكيين الغانيين ، واستولى على سجلماسة من أيدي الزناتيين ، وبهذا ملك المرابطون طريق التجارة و الثروة والمال وتجردوا لما هو أهم من ذلك وأبعد مدى ، وهو الجهاد .

فقد وصل المرابطون مجاهدين في ناحية الجنوب إلى حوض السنغال ثم استولوا على غانة واستولوا كذلك على تمبكت وولانه وبلاد قبيلة جِني ثم وضعوا أيديهم على مناجم الذهب الكبرى شمالي جبال فوتا جالون ، وكانت هذه المناجم — إلى جانب تبر الأنهار — أعظم مصدر للذهب في الدنيا حتى اكتشاف أمريكا وقد أكد ذلك رينيه موني . وبهذا الذهب اشتد ساعد الحركة المرابطية وخاصة إذا ذكرنا سيطرتها التامة على طرق التجارة الرئيسية من المغرب الأقصى إلى إفريقية المدارية والاستوائية . وهذا الذهب كان الأساس في إصلاح العملة المرابطية المشهور ، فقد أعادوا الدينار إلى وزنه ، وأصبحت العملة المرابطية من أصح عملات الدنيا وانتشر استعمالها في غرب أوروبا كله ، وعرف الدينار المرابطي هناك اسم Maravedi أي مرابطي .

هذا يفسر لنا كيف تمكن المرابطون من التغلب على الزناتيين الذين كانوا يسودون أحواض ووديان درعة وأم الربيع وتانسيفت في المغرب الأقصى وعندما استقر المرابطون في السهل الواسع الذي يشقه نهر تانسيفت شرعوا في إنشاء مدينة مراكش في ٢٣ رجب ٤٦٢هـ / ٣ مايو ١٠٧٠م التي أصبحت فيما بعد من أعظم عواصم الإسلام وأجملها .

ولكن إنشاء مراكش يعني لنا انقسام دولة المرابطين إلى دولتين شمالية وجهتها شمال المغرب الأقصى ، وجنوبية وجهتها بلاد السودان . وكل اهتمام المؤرخين المسلمين بعد ذلك اتجه نحو الفرع المرابطي الشمالي الذي أتيح له أن يوحد المغرب الأقصى وإقليم تلمسان بل أدخل مدينة الجزائر في سلطانه ثم عبر بعد ذلك إلى الأندلس وقام بإنقاذ جبهة الإسلام المتداعية في ذلك الحين على يد يوسف بن تاشفين ، مما مدّ في عمر الإسلام في الأندلس أربعة قرون ، في حين لم يذكر لنا أحد شيئاً وافياً عن أعمال المرابطين الجليلة في إفريقية المدارية .

ونفصل ما أجملناه في الفقرة السابقة فنقول : ان يحيى بن عمر توفي في جهاده في السودان ، فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر الذي سار في طريق أخيه معتمداً على عبد الله بن ياسين حتى توفي هذا الأخير سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م في حروبه مع زنادقة برغواطة في شمال المغرب الأقصى .

وكان لعمر بن ابراهيم والد يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر أخٌ يسمى تاشفين ، عمل في خدمة أخيه حتى مات فخلفه ابنه يوسف ، وكان شاباً موهوباً فارتفع مكانه عند عمه أبي بكر ، وأصبح من أكبر قواد المرابطين . فبينما كان أبو بكر بن عمر يرقب بناء مراكش بلغته أخبار مقلقة عن أهله في جنوبي الصحراء وحوض السنغال ، لأن قبيلة جدالة عدت على قبيلة لمتونه فاستغاثت به ، فترك القيادة في يد ابن أخيه يوسف بن تاشفين ومضى إلى الجنوب إلى ديار المرابطين الأولى ، وما كاد يوسف بن تاشفين يصل إلى القيادة حتى

عمل من أول الأمر على الاستبداد بالأمر ، فكسب ولاء المرابطين الذين كانوا معه ، ثم تزوج زينب بنت اسحاق النّفْزاوية تلك الأميرة الجميلة التي كان أبو بكر بن عمر قد تزوجها ثم طلقها عندما سار إلى الجنوب . فلما عاد أبوبكر ابن عمر من الجنوب بعد أن اطمأن على مصير لمتونة وجد ابن أخيه قد أخذ كل شيء وتبين ألا فائدة من النزاع ، وكان رجلا ورعاً ، فاتفق مع ابن أخيه على أن يقتسما الأمر : فتولى يوسف بن تاشفين ومن معه العمل في الشمال ويتجه أبو بكر بن عمر إلى غانة ، وبالفعل انسحب إلى الجنوب وقضى بقية عمره في الجهاد .

ـ قيام دولة غانة الاسلامية :

استولى المرابطون على أودغشت سنة ١٠٥٥م ثم اتجهوا بقيادة أبي بكر ابن عمر إلى غانة واقتحموها سنة ١٠٧٦م وقضوا على الوثنية فيها ، وعملوا على تحويلها كلها إلى بلاد إسلامية خالصة وأقاموا عليها حاكماً مسلماً من الغانيين أنفسهم ممن دخل آباؤهم الإسلام منذ زمن طويل . ومن ذلك الحين أصبحت بلاد غانة كلها بلاداً إسلامية ، وهكذا يكون أبو بكر عمر قد حول معظم بلاد إفريقية الغربية المدارية إلى الإسلام وجعلها جزءاً أصيلا من دولته . وعندما توفي مجاهداً سنة ١٠٨٧م كان قد وقف بالإسلام على أبواب إفريقية الاستوائية عند منطقة الغابات الكثيفة واستعدوا للتوغل فيها .

ومنطقة الغابات الإفريقية الإستوائية تبدو للمقبل من الشمال وكأنها سياج ضخم لا يُقتحم من الغابات الإستوائية الكثيفة وبالفعل كانت الحدود الشمالية للغابات الإستوائية حاجزاً هائلا يفصل شعوب إفريقية المدارية من دخول إفريقية الإستوائية ، مَثَلُها في ذلك مَثَل حاجز الصحراء الكبرى ، فقد كانت هي الأخرى حاجزاً بشرياً حضارياً يفصل إفريقية الشمالية المغربية عن إفريقية المدارية .

فأما الحاجز الصحراوي فقد حطمه الإسلام كما رأينا وشق طريقه خلال رمال الصحراء عن طريق طرقه الثلاث التي ذكرناها ، وها هو الإسلام يتأهب لتحطيم حاجز الغابات .

وقد ضعف سلطان المرابطين على غانة بعد موت أبي بكر بن عمر سنة ١٠٨٧م ولكن الإسلام ظل ينتشر ويتوسع . وبهذا يكون أبو بكر بن عمر قائد الجناح المجاهد الجنوبي من المرابطين قد قدّم للإسلام خدمة لا تقل أهمية مما أداه يوسف بن تاشفين قائد الجناح المجاهد الشمالي من حركة المرابطين .

وكانت نهاية دولة غانة الإسلامية على يد فريق من قبائل الصوصو الذين كانوا يسكنون جنوبي المملكة غربي الحوض الأدنى للنيجر ، وكان الصوصو على العموم قبيلة قوية من سكان إفريقية المدارية المغربية ، وقد رأينا أن فريقاً منهم هم الذين قضوا على دولة غانة الأولى التي أنشأها مهاجرون مغاربة عبروا الصحراء عن طريق السوننكة الممر الأوسط : فزان ثم كوار ، وهم السوننكة الذين ذكرناهم .

وقد خضع بقية الصوصو لملوك غانة المسلمين ، حتى إذا تفرق أمرهم وضعفت مملكتهم أعلنوا استقلالهم وانفصلوا عن الدولة ، فلما تأكدوا من ضعفها تشجعوا للهجوم عليها ، فبدأوا بغزو إقليم دابارا المجاور لهم ، وكان جزءاً من دولة غانة ، فلما لم يصادفوا رد فعل قوي من ناحية ملوك غانة قام أحد رؤسائهم وهو سوما نجورو بالتقدم شمالا واستولى على مدينة غانة عاصمة الدولة سنة ١٢٠٣م وقضى على الدولة ، وهرب فريق من سكان مدينة غانة من المسلمين بقيادة زعيم يسمى الشيخ اسماعيل إلى مدينة ولاته إلى الشمال وأنشأوا مركزاً تجارياً كبيراً أصبح بعد ذلك من أعاظم مراكز التجارة في إفريقية الغربية الإسلامية .

تمكن سوما نجورو من الإستيلاء بعد ذلك على كل بلاد دولة غانة ، ثم

اصطدم في الجنوب برجال دولة إسلامية صغيرة كانت إذ ذاك ناشئة في كانجابا ، وأصحابها من قبائل الماندنجي الذين سنتحدث عنهم في القفرة التالية فانتصر عليهم وقتل ولدين من أولاد ملكهم ناريه نمغان .

أما أصغر الأولاد (وهو الإبن الثاني عشر للملك) فقد هرب ونجا من الموت وهو المشهور في التاريخ باسم ماري جاطة أي ولد الأسد ، هرب إلى الجنوب ، وكان ذلك فيما بين سنتي ١٢١٨ و ١٢٣٠م . وفي منفاه البعيد أخذ ماري جاطة يجمع الأنصار ويستعد للانتقام ممن قضوا على ملك أبيه ، وقد تمكن من ذلك سنة ١٢٣٥م بعد مغامرات ومخاطرات ، ثم دخل مدينة غانة وقضى على بقية الصوصو ثم خربها تماماً سنة ١٢٤٠م . وكان ماري جاطة مسلماً وعلى يده قامت ثانية الدول الإسلامية في إفريقية الغربية المدارية وهي دولة مالي .

ــ دولة مالى الاسلامية

خَلَفَت دولة غانة في رياسة المغرب الإفريقي المداري دولة مالي . ومالي إسم حديث بعض الشيء ، لدولة قديمة تعاقبت عليها الأسر المالكة قبل الإسلام وقد أنشأها قبيل عظيم من أهل السودان الغربي يسمى بالماندنجو .

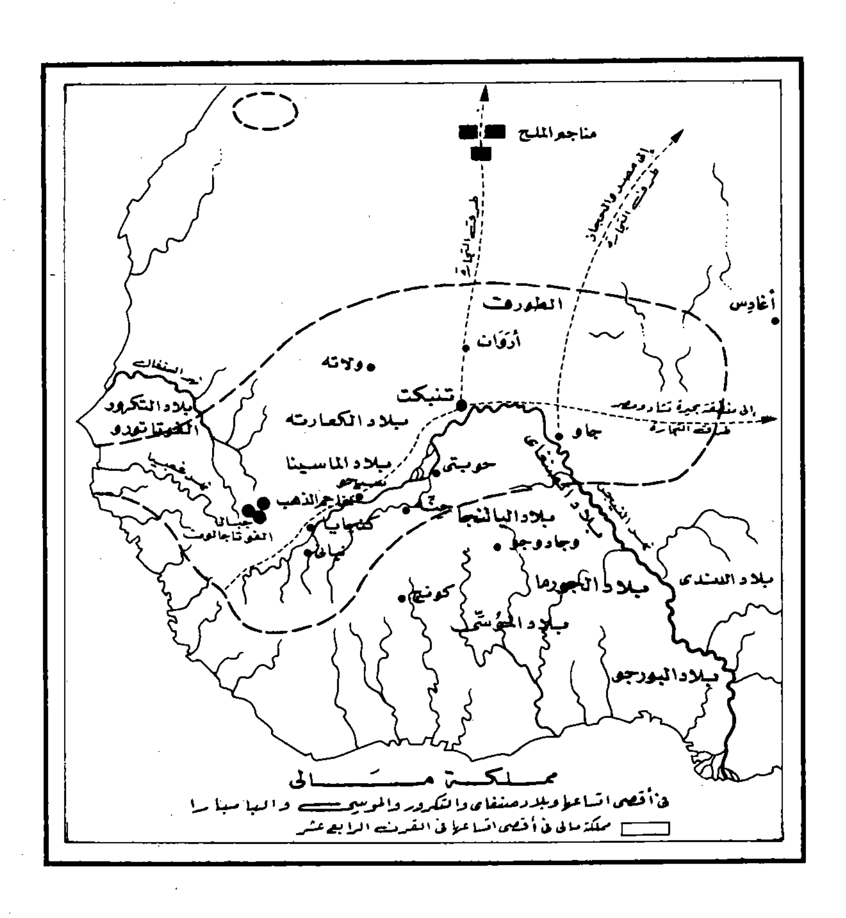
ولقبائل الماندنجو أسماء أخرى كثيرة أطلقها عليهم جيرانهم ومن اتصلوا بهم من الأمم ، فسماهم أهل حوض نهر غمبيا باسم الماندنجو وعنهم أخذ البرتغاليون والإنجليز هذا الإسم .

أما قبائل الحوسَى الذين يسمون عادة باسم الهاوسا (وسنتحدث عنهم) وهم جيرانهم من الشرق فقد أطلقوا عليهم اسم ونقاره أو وَنْجاره . وهم يعنون بهذه التسمية فرعين من فروع شعب الماندنجو وهما فرع السوننكة الذي تحدثنا عنه وهو منشيء دولتي غانة الوثنية والإسلامية وفرع الجولا .

أما الفولا أو الفولانيون وبعض التكاررة فيسمونهم باسم مالنكه ، وعنهم أخذ الإسم الفرنسيون فاستخدموا لفظ مالنكه Malinké في الكلام على الماندنجو .

وتطلق عليهم قبائل البامبارا (التي تسكن إلى جنوبهم وهي فروع من الماندنجو) اسم مالي .

وأصل إسم الماندنجو غير معروف على التحقيق ، فهناك من يقول أنهم منسوبون إلى ماندي ، وهو لفظ معناه المدينة أو العاصمة . فهم على هذا القول أهل المدينة أو أهل الحاضرة .



مملكة مالى

فى أقصى اتساعها وبلاد صنغاى والتكرور والموسى والبامبارا

مملكة مالى فى أقصى اتساعها فى القرن الرابع عشر

وهناك من يقولون أن اللفظ مكون من « ما » ومعناه الدم و « دنج » وهو الطفل أو الإبن ، والمعنى إذن ابن الدم أي المنسوب إلى أمه .

وفي الحقيقة يشتق الإسم من ماندي وهو اسم اللغة التي كانت تتحدث بها غالبية القبائل الساكنة بين المجرى الأعلى لنهر النيجر والمحيط الأطلسي ، فالماندنجو هم المتكلمون باللغة الماندية وهم يضمون قبائل المالنكي ، وهي التي تزعمت الماندنجو وأنشأت دولة مالي ، والبامبارا الذين يسكنون في الجنوب ، ويحرف هذا الإسم إلى بانمانا Banmane على ألسنة المستعمرين البرتغاليين . وقد قام بينهم — أي البرتغاليين — وبين البامبارا صراع عنيف ، لأن هؤلاء الأخيرين تزعموا الماندنجو في القرن السابع عشر وتولوا الصراع مع المستعمرين .

والسوننكة الذين تحدثنا عنهم فرع من فروع الماندنجو .

أما لفظ مالي الذي يستعمل عادة للدلالة على الماندنجو والدول التي أنشأوها فهو تحريف للفظ ماندي الذي اشتق منه اسم مدينتهم الكبرى التي عرفت باسم مالي . ويسميها بعض الكتاب العرب باسم مَلِ بدلا من مالي .

التـــكرور :

ومن الخطأ القول بأن الماندنجو هم التكرور أو التكاررة ، إذ الحقيقة أنهم شعب غير الماندنجي ولكنهم خضعوا لهم فترة من الزمن ، ولهذا تلقب ملوك مالى أحياناً باسم ملوك التكرور .

ولفظ تكرور والجمع تكاررة أو تكارة يستعمل في السودان الشرقي للدلالة على كل السودان الذين يسكنون غربهم إلى المحيط . وبالمثل يطلق لفظ الفلاّته في السودان النيلي على كل قادم من نيجريا .

والتكاررة فريق من أهل السودان الغربي يسكنون حوض نهر السنغال الأوسط ، فالسنغاليون تكاررة ، وقد ينطق الإسم تكور أو توكور ولهذا

يسميهم الفرنسيون توكولير Toucouleurs وأصلهم فرع من الفولا أو الفولانيين ، وهم شعب كبير معروف في كل إفريقية المدارية ، أصلهم البعيد من بربر إقليم فزان ، عبروا إلى ناحية تشاد ، ومن ثم انتشروا وتكاثروا واختلطوا بالسكان واصبحوا سودانيين ، وإن كانوا أقل سواداً من جيرانهم . وفي أراضي السهوب الممتدة من غربي نيجيريا الحالية إلى ساحل المحيط ، وعلى هذا الساحل من السنغال إلى الكمرون تمكن الفولا من إنشاء عدد من مراكز التجمع الفولانية الكبيرة : في فوتا تورو وفي السنغال وعند سفوح جبال فوتا جالون في غينيا وفي إقليم ماسينا في جمهورية مالي الحالية وفي إقليم ليبتاكو في جمهورية الفولتا العليا ، وفي ناحية واسعة تمتد من شمال نيجيريا الكمرون تسمى ببلاد أومارة .

والفولانيون الذين استقروا في إقليم فوتاتورو في السنغال هم الذين عرفوا بالتكاررة الذين نتكلم عنهم .

وفي موطنهم هذا أسلم التكاررة على يد عبد الله بن ياسين في اندفاعه نحو الجنوب ، وتحمسوا للإسلام حماساً شديداً ، وفي الجزء الأدنى من نهر السنغال الذي سكنوه تقع الجزيرة التي اتخذها عبد الله بن ياسين معتَصَماً لأصحابه ومَمهداً لتكوين الجماعة الذين سماهم المرابطين ، ومن قلب بلاد التكرور خرجت شرارة الحركة المرابطية التي احتضنتها قبائل صنهاجة الصحراء (لمتونة ومسوفة وجدالة وبنو وارث وتارجا) التي حملت الدعوة بعد ذلك . وعندما انقسمت حركة المرابطين قسمين : شمالي وجنوبي كان التكاررة هم صلب الجناح الجنوبي الذي قاده أبو بكر بن عمر وغزا به غانة . ولا زال التكاررة أو التكرور بعد ذلك حصناً من أقوى حصون الإسلام في إفريقية المدارية الغربية ، وهم الذين نهضوا بحركة الحاج عمر التي سنتحدث عنها في القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد تمكنت جماعات منهم سكنت إفريقية

المدارية من السنغال إلى أريتريا من إنشاء دويلات إسلامية إفريقية كثيرة .

وعندما قامت دولة مالي خضع لها التكاررة ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية متماسكة داخل الكيان المالي مسيطرة على بلاد فوتا تورو في السنغال ، وكان لهم أثر بعيد في إسلام دولة مالي نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالي حيث تركناه .

سيطر الماندنجو وهم أصحاب دولة مالي على البلاد الممتدة من نهر النيجر إلى المحيط الأطلسي ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحي أسراً حاكمة مثل أسرة الترورين في حوض السنغال الأعلى ، وأسرة الكوناتيين (نسبة كوناته) شمال بلاد الترورين ، وأسرة كايتا التي لا نعرف شيئاً محققاً عن أصلها وإن كانت المأثورات الشعبية في مالي تقول أن منشأها كان رجلا مسلماً من الماندنجي أو الفولا الخاضعين لهم يسمى موسى ديجيو تولى عرش مالي فيما بين سنتي ١٢٠٠ و ١٢١٨م . وهناك رواية تقول أنه من سلالة بلال الحبشي مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلاً من الحجاز أوجاء أبوه إلى بلاد الماندنجي وتزوج فيهم واستقر في بلاد التكاررة ثم دخل في عداد جماعة البولا (بالباء الخفيفة وهي جماعة من العسكريين المرتزقين كان ملوك أسرة الكوناتيين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه في عداد هذه الطبقة وتمكن عن هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذه وهو محرف عن عبارة عربية ماندنجية هي «الله — كوي» أي الله خالق كل شيء ثم حرفت إلى «الله —كوي» ثم الأكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان هذا كله مجرد فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ثم اختُرعت الأسطورة بعد ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الأكوي أو موسى كايتا مدينة جريبة في إقليم كانجابا عاصمة له .

وأنجب موسى عدداً كبيراً من الأولاد ، فخلفه أكبرهم ويسمى ناري فان ماجان أو ناري فامغان الذي ظل يحكم حتّى سنة ١٢٣٠م ، وقد بذل أثناء حكمه جهوداً كبيرة لنشر الإسلام بين رعيته .

وقد خاض ناري فامغان Naré Famaghan حروباً طويلة مع إخوته الذين نازعوه العرش ، وتغلب عليهم آخر الأمر ونقل عاصمته إلى شرقي جبال الفوتا جالون .

وعندما توفي سنة ١٢٣٠م خلفه ابنه «كوننيوغو — سمبا — كايتا» وفي أيامه قام سوما نخورو ملك الصوصو بهجوم عنيف على دولة مالي وهزم الماندنجي وقتل ملكهم وعشرة من إخوته ، ولم ينج من هذا المصير إلا ابنه الأصغر سنديانا .

تشرد سنديانا في الأقاليم الجنوبية لدولة مالي وفي صحبته نفر من أصحابه الشجعان ، وتمكن من أن يجمع جيشاً قوياً من الماندنجي ويقودهم في صراع عنيف مع ملك الصوصو الوثني وتمكن من الانتصار عليه سنة ١٢٣٥م في موقعة حاسمة عند كيرينا قرب باماكو الحالية ، وطرد الصوصو من بلاد مالى وأعاد الاستقلال إلى بلاده وتربع على عرشها ، وغلب عليه اللقب الذي أطلقه أصحابه عليه وهو «ماري جاطه» أو «ماري دياتا» ومعناه : الأمير الأسد أو أسد مالي .

ويعتبر ماري جاطة البطل القومي للبلاد ، وهو أعظم سلاطين مالي على الإطلاق ، فقد وسع حدود مالي وغزا بلاد الصوصو وأخضعهم تماماً ، ثم خرب ما بقي من مدينة غانة القديمة ، وقسم دولته إلى اثنى عشر قسماً إدارياً ولّى على كل منها رجلاً من كبار قواده . وكان عظيم الاهتمام بإدخال كل رعاياه في الإسلام ، وينسب إليه إدخال زراعة القطن في مالي . وفي أيامه ازداد رخاء مالي وتكاثر سكانها وعمهم كلهم الإسلام ، ولا زال يعمل حتّى دخل فرع الونجارا كله — من أكبر فروع الماندنجي — في الإسلام .

وفي أيامه ثبتت عاصمة مملكة مالي في نياني ، وقد اهتم بها وعمرها حتى أصبحت من أكبر المدن الأفريقية ، ومن اسم نياني اشتق اسم مالي الذي أطلق على المملكة كلها وحل محل اسم مملكة الماندنجي التي ضمت كل أراضي مملكة غانة السابقة مضافاً إليها بلاد الماندنجي بكل فروعهم ، فامتدت هذه المملكة حتى شملت حوض نهر غمبيا أيضاً وشملت كذلك بلاد التكرور في حوض السنغال وبلاد الجُلُف (يسمون في الكتب الأوروبية الولف Wolof) ، فأصبحت بذلك أكبر مملكة ظهرت في إفريقية المدارية في العصور الوسطى ، إذ شملت كل غربي إفريقية المدارية من المحيط الأطلسي ومعظم حوض النيجر الأعلى والأوسط حتى الحدود الشمالية للغابة . وقد قدرت مساحة مملكة مالي الإسلامية أيام ماري جاطة بمساحة أوروبا كلها .

وقد عرفت دولة مالي أيام ماري جاطة باسم مالي الجنوبية ، أما مالي الشمالية فهي مالي التي غزاها الصوصو وخربوها وحكموها حتى طردهم منها ماري جاطة كما ذكرنا . وقد توفي سنة ١٢٥٥م .

وخلف ماري جاطة ابنه مَنْسا عليّ فسار على طريقة أبيه في سياسة الدولة والاهتمام بنشر الإسلام فيها ، ثم تعاقب الملوك من أسرة كايتا على مالي حتى نصل إلى عصر السلطان كَنْكَن موسى (٧١٢هـ – ٧٣٨ / ١٣١٢ – ١٣٣٧م) الذي بلغت الدولة أوجها أيامه قوةً وثروةً وحضارة ، وقد اشتهر أمر ذلك الرجل في عالم الإسلام بسبب علاقاته التي ربطها مع ملوك الإسلام المعاصرين له ، وتتحدث كتب التاريخ عن حجته المشهورة سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م ، وقد مر فيها ببلاد الإسلام من مالي إلى القاهرة عن طريق بلاد البُرْنو والكانِم ثم واداي . ولقي السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأهدى إليه وإلى رجال السلطنة من هدايا الذهب ما بهر عيون الناس في مصر والشام وأعطى الناس فكرة مبالغاً فيها عن ثراء هذه المملكة السودانية المسلمة وثروتها ، وقد ترجم له ابن حجر

العسقلاني في الدرر الكامنة (٤ / ٣٨٣) وسماه موسى بن أبي بكر سالم التكروري ملك التكرور . وفي الحجاز أفاض الهدايا والصدقات على الناس .

وقد زادت هذه الحجة التاريخية من هيبة السلطان كنكن موسى أو مَنْسا موسى ، فتمكن بعد عودته إلى بلاده سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م من ضم تنكبت إلى بلاده ، ثم أعاد غزو مملكة صُنْغَى في حوض النيجر وثبّت دعائم الإسلام فيها . ولم يثبت لقوات مَنسا موسى إلا أهل دولة جِنّي Jenné في حوض النيجر الأوسط وذلك بسبب حصانتها لإحاطة المستنقعات بها من كل ناحية .

وخلفه أخوه مَنْسا سليمان ، وكان على شاكلته في الحماس للإسلام (٧٤١ ــ ٧٥٧هـ/١٣٤١ ــ ١٣٥٦م) فأكثر من بناء المساجد واستقدام العلماء والإغداق عليهم فكثرت حلقات العلم في المساجد ، وأنشئت الكتاتيب في القرى والمحِلات لتعليم اللغة العربية ، ثم حج سنة ١٣٥٦ . وفي أيامه زار ابن بطوطة سلطنة مالي في عصر أبي عنان فارس المتوكل سلطان بني مرين (٧٤٩ ــ ٧٥٩هـ/١٣٤٨ ــ ١٣٥٨م) وقد دخل ابن بطوطة مالي في جمادي الأولى ٧٥٣هـ / يوليو ١٣٥٢م وغادرها في المحرم سنة ٧٥٤هـ / فبراير ١٣٥٢م وهو يصور مالي دولة إسلامية زاهرة .

وبعد منسا سليمان أخذ أمر مالي في التدهور بسبب سوء الحكم وفساد التدبير وهجمات أعدائها عليها وأهمهم هنا رجال دولة صُنْغَى ثم الفولانيون والتكاررة وأخيراً البرتغاليون .

وكان ملوك صُنْغَى من ألد أعداء مالي ، فما زالوا يهاجمونها حتى اضطر سلطان مالي محمد الأول المنسوب إلى قو بن ماري جاطة الأول إلى الاستغاثة بالأتراك العثمانيين سنة ١٤٨١م وكانوا قد ثبتوا أقدامهم في طرابلس وإفريقية

والجزائر ،ولكنهم لم يسعفوه ، ثم استعان بالبرتغاليين سنة ١٤٨١م ، فلم يكن حظه معهم بأحسن ، ولكنه فتح أبواب بلاده للبرتغاليين ، فعرفوا طرقها وأحوالها ، مما كان له أثر سيء بعد ذلك في تيسير مهمة الاستعمار .

وعلى أي حال فقد ضعف أمر مالي ضعفاً شديداً ابتداء من القرن السادس عشر تحت ضربات صُنْغَى التي حلت محلها في الرياسة السياسية في غرب إفريقية المدارية .

ـ دولة صنغي ، أو صنغاى

الصُنْغَيْ (صُنغاي) قبيلة من أهل السودان الغربي يسكنون من قديم الزمان على ضفاف النيجر الأوسط ، ومدينتهم الكبرى جاو التي ستصبح عاصمة دولتهم ، وتمتد بلادهم حتى تشمل المساحة الواسعة في انحناء النيجر الأكبر .

وتجاورهم من الشمال جماعات من الطوارق ، وهم خليط من سكان الصحراء القدامى والبربر وبقايا المرابطين ، وهم – أي الطوارق – يسيطرون على طرق الصحراء الكبرى التجارية وواحاتها ، وهم ليسوا لصوص صحراء أو قطاع طرق كما يصفهم الفرنسيون ، وإنما هم شعب إفريقي قائم بذاته له خصائصه من الشهامة والشجاعة وعزة النفس حتى إنهم يلقبون بأمراء الصحراء ، وقد اندرجت فيهم جماعات من بقايا المرابطين بعد انهزامهم أمام الموحدين ، مفضلين العيش أحراراً في شظف الصحراء على الحياة الآمنة تحت سلطان الدول الكبرى وخاصة الموحدين .

وتجاور الصنغى من الغرب والجنوب جماعات شتى من أهل السودان أهمهما الماندنجي أصحاب غانة ، وقد تحدثنا عنهم ، والجورمان والموسّي الذين يسميهم مؤرخو العرب الموشّي وهم يسكنون إقليمي ياتينجا وجورمان والكَمَارْتَه والمَسِينا ، وتمتد بلاد صنغى شرقاً حتى تتصل بالبُرنو والكانيم في إقليم تشاد .

كان الصنغى في أول أمرهم جماعة متماسكة من قبائل نهر النيجر التي لا تدخل في جماعة الماندنجي الكبيرة وظلت أعدادهم تتزايد حتى سيطروا على المساحة التي ذكرناها .

ومن فروع الصنغى نذكر السودكو ، وكانوا يعملون في صيد السمك في نهر النيجر ، وربما يكون أصلهم من مهاجرة المغرب ، وهناك أسطورة شعبية تؤيد هذا القول ، فتزعم أن مهاجرَين بربريّين وصلا إلى حوض النيجر الأوسط عَبْر الصحراء ، وكانا ذوي علم وتجربة ، فتمكنا من كسب ثقة الصنغى فبايعهما هؤلاء مَلِكَيْن عليهما ، وجاء من بعدهما أولادهما الكثيرون .

ومن ملوك صنغى من السوركو هؤلاء أسرة دِيَا التي حكمت صنغى من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر الميلاديين ، ومن أشهر ملوكهم الملك كوغا أو كوكيَة الذي يذكره ابن حوقل .

وهؤلاء السوركو هم الذين أسسوا مدينة جاو ومدينة بومبا ، وانتشروا حتى بلدة Jenné جني وهي لمركز منافسيهم جماعات البوزو ، وكانوا صيادي سمك أيضاً .

وكان الملوك من أسرة دِيا يحرضون الصنغيين من أهل المدن والاستمرار على دفع السوركو إلى الشمال تخلصاً من منافستهم لهم .

ثم قام الملك صِنيا الخامس عشر باتخاذ جاو عاصمة له في قلب بلاد السوركو. وهذا الملك هو الذي تحول إلى الإسلام وتبعه في ذلك الصنغيون والسوركو . وكان استيلاء الملك صِنيا على جاو عظيم الأهمية ، لأن الطرق الصحراوية التي تؤدي إلى فزان وطرابلس ومصر تشرع من عندها ، ولا زالت إلى يومنا هذا المحطة الأخيرة لطريق السيارات من مدينة الجزائر إلى نيجيريا . .

وقد دخل الإسلام بلاد صُنغى من زمن بعيد من ناحية الطريق الصحراوي الأوسط ، ولا نستطيع تحديد تاريخ وصوله بلاد هذا القبيل القوي من أهل

السودان ، ولكنهم يظهرون على مسرح التاريخ القرن الحادي عشر الميلادي. وعلى رأسهم ملوكهم المسلمون الذين جاءوا بعد الملك صنيا .

وقد تعرضت بلاد صُنغي للغزو من قِبَل دولة مالي أيام توسعها ، فقام عليّ بن ماري جاطة الأول بغزو بلادها ، ثم غزاها سيكرة الذي اغتصب عرش مالي من أحفاد ماري جاطة ردحاً من الزمان ، وتمكن من الاستيلاء على جاو عاصمة صنغى ، ولكن سلطان مالي علي صنغى لم يدم طويلا ، فلم يلبث هذا السلطان أن تراخى . فلما عاد السلطان منسا كنكن موسى من حجه سنة ١٣٢٥ ميلادية أمر قائده سجمان الذي يسميه ابن خلدون سقمنْجَه فغزا صنغى واحتل عاصمتها جاو ، ثم زارها كنكن موسى وابتنى فيها جامعاً ، وترك فيها حامية ، وأخذ عدداً من رؤسائها وأبناء أمرائها رهائن وفرض عليها الجزية . ثم دخل كنكن موسى مدينة تُنْبُكت ، وكانت خاضعة لصنغى ، وقد رحب به أهلها لأنهم كانوا يئنون من سلطان صنغى عليهم ونهبهم أموالهم وكان ذلك سنة ٧١٨ – ٧١٩ هـ / ١٣١٨ – ١٣١٩م وفيها بنى داراً للمملكة أو للحكم وجعلها مستقر حكامه .

وبعد عودة كنكن موسى إلى مالي قامت قبائل الموشّي أو الموسى الوثنية بغزو تنبكت حوالي سنة ٧٣٠هـ أ ١٣٣٠م ونهبتها وخربتها، ثم عادت تنبكت بعد ذلك إلى سلطان مالي ، وظلت خاضعة لها مدة قرن من الزمان حتّى عادت صنغى إلى الإستيلاء عليها بعد أن قوي شأنها .

وفي عهد مغان الأول بن مانسا كنكن موسى (٧٣٨ – ٧٤٢هـ / ١٣٣٧ – ١٣٤١م) هرب رهائن صنغى وعادوا إلى بلادهم ، وكانوا نفراً من خيرة رؤساء قبائل الصنغى وأمرائهم ، وكان منسا كنكن موسى يعرف أن وجودهم عنده هو أكبر ضمان لطاعة أهل صنغى ، ولهذا كان يشدد الحراسة والرقابة عليهم ، فلما جاء ابنه مغان أهمل هذه الحراسة ، فتمكن الرهائن من تدبير

أمر هربهم والعودة إلى بلادهم ، وكان فيهم أميران من أمراء صنغى هما علي كولن وأخوه سليمان نار ، فجمعا قومهما وتمكنا من التغلب على حامية الماندنجي في جاو ثم مضيا قدماً في استخلاص بلاد الصنغى من حكم مالي ، وتصدى لهم منسا سليمان الذي خلف منسا مغان الأول بنجاح واسترجع الكثير من بلاد صنغى ولكنه عجز عن استرجاع جاو عاصمتها .

وتولى علي كولن العرش في جاو سنة ١٣٥٥م واستقلت صُنْغَى عن مالي بعد أن ظلت خاضعة لها نحو نصف قرن ، ثم أخذت في التوسع في أراضي مالي منتهزة فرصة ضعفها وتألُّب أعدائها عليها ، وخاصة قبائل الموشى أو الموسى ، وكانت على الوثنية ، وبلادها تقع جنوب بلاد مالي ، وكانت لا تكف عن العدوان على بلاد الإسلام في مالي وغيرها ، فغزا رجالها منطقة بحيرة دبو Debó المتصلة بالنيجر . وعندما قامت دولة صنغى الإسلامية أخذ رجال الموشى بها يهاجمونها وينهبون بلادها .

أخذ علي كولن لقب سُن أو شُن ومعناه خليفة السلطان أو نائبه ، وهو مؤسس أسرة سن وهي ثانية الدول التي قامت في بلاد صنغى . والأولى هي دولة الأرواء التي قضت عليها مالي .

ظلت حدود دولة صنغى مقتصرة على العاصمة جاو وما حولها أيام سُن الأول علي كولن وأخيه وخليفته سُن سليمان نار ، ولكن خلفاءها تابعا سياسة غزو أراضي مالي ، ففي عهد سُن محمد داعٌ ، وهو العاشر في سلسلة ملوك أسرة سُن خرب الصنغيون عاصمة مالي وأسروا الكثير من أهلها ، ثم استولى سن ــ سليمان دام ، وهو السابع عشر من ملوك صنغى على بلاد « ميم » التي تسمى أيضاً باسم ميما ، ويعرف هذا الملك أيضاً باسم « شُن دام » وكانت ميم من بلاد مالي وخربها ــ وقد وصفه القاضي محمود كعت صاحب كتاب الفتاش « بالفسق والفجور » .

تولى العرش بعد سليمان دام أكبر ملوك أسرة سُن وهو سُن عليّ الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لملك صنغى الواسع ،تولى سـ نة٨٧٣هـ/١٤٦٨م وتوفي سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م وكان رجلا جريئاً واسع النشاط قليل التقيد بإشراط الإسلام، لأن رجال الدين كانوا يعترضون عليه كثيراً فأبغضهم وكثر إيذاؤه إياهم وعدوانه على المساجد والزوايا التي كانوا يقرأون فيها ، ولهذا حمل عليه السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان واتهمه بالظلم والفجور وكانت أم سن علي من قبائل الماندنجي أصحاب مالي .

ومع ذلك فقد كان سُن عليّ الثامن عشر من ملوك أسرة سن أعظم فاتح مسلم ظهر في بلاد السودان الغربي ، فسمى بعليّ بِرْ أو عليّ الكبير أو الشّن أو السّن فقط ، وقد أنشأ خلال سنوات حكمه السبعة والعشرين دولة تعادل مساحتها مساحة دولة إيران والعراق معاً تمتد من سيجو على نهر النيجر إلى ما يعرف اليوم باسم داهومي ، فطار صيته حتى وصل أوروبا ، وأرسل إليه الملك جواو (يوحنا) الثاني ملك البرتغال سفارة تخطب وده .

وفي سنة ١٤٦٨م غزا سُن عليّ تنبكت ، وكان السوارق يحتلونها منذ سنة ١٤٣٥ م وكانت مركزاً تجارياً كبيراً حافلا بالمتاجر والمساجد وأهل العلم والدين ، فطرد منها الطوارق وجعلها العاصمة الثانية لبلاده ، ثم وقع الخلاف بينه وبين العلماء ، فاضطهدهم وأودع الكثيرين منهم في السجن ، ثم أحرق البلد .

ثم استولى على جني Jenné ، وهي ثالثة بلدة على نهر النيجر في تلك العصور بعد جاوه وتنبكت ، وكان يحكمها رؤساء من السوتنكه المسلمين ، فجعلوها إمارة صغيرة غنية ، لأن تجارة الذهب تحولت من غانة إليها ، وكانت شهيرة بعلمائها ومساجدها ، ويقول السعدي أن سُن عليّ لم يستطع الاستيلاء عليها إلا بعد حصار دام سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام ،

ثم دخلها بحد السيف ، ولكنه لم يفعل بها ما فعله في تنبكت ، وإنما اكتفى بالاستيثاق من طاعتها وعاد إلى جاو .

ثم نهض مرة أخرى وهاجم بلاد المجموعات الوثنية الكبرى الباقية في جنوب حوض النيجر مثل البورجو واستولى على عاصمتهم مدينتي ، وأطال الإقامة فيها قبل أن يهاجم قبائل الموشى ثم قبائل الدوجون في عقر دارهم ، وكانت بلادهم جبال « الباندياجارا » دون أن يستطيع التغلب عليهم ، فانصرف عنهم وعاد إلى محاربة الطوارق . ويذهب بعض الباحثون الفرنسيون إلى أن إصراره على محاربة الطوارق كان ناشئاً عن كراهته للإسلام ، والحق أن الرجل لم يكن عدواً للإسلام وإنما كان مبغضاً للفقهاء وعلماء القرى الذين أصروا دائماً على اتهامه بالفسوق والخروج على الدين .

ثم هاجم بلاد الفولا أو الفولانيين ، وأصلهم من بربر الصحراء جنوبي بلاد السوس ، وكانوا قبيلا قوياً نشيطاً ، واشتهروا كذلك بجمال نسائهم وذكائهن ، فكانت الواحدة منهن إذا تزوجت أميراً أو كبيراً سودانياً لم تلبث أن سيطرت عليه وعلى قصره ، أما رجالهم فلم يلبثوا بفضل علمهم أن استولوا على الوظائف الكبرى في دولة صنغي ، فأثار ذلك مخاوف سُنْ عليّ فطردهم من الوظائف وحمل عليهم ، ثم قام بمهاجمة أراضي الفولا في جورما ثلاث مرات سنة ١٤٦٥ م وسنة ١٤٧٠ م وسنة١٤٨٨ م فاشتد الدعاء عليه في هذه البلاد الإسلامية .

وكأنما استجاب الله لدعاء الناس ، فلما قام مرة رابعة بغزو بلاد الفولا في سنة ١٤٩٢م ، غرق وهو يحاول عبور نهر أثناء علو تياره ، وخلفه ابن له مرتد عن الإسلام ، فعزله الصنغيون وولوا على أنفسهم قائد جيشه محمد ابن أبي بكر الطوري سنة ١٤٩٣ وأنشأ أسرة مالكة جديدة هي أسرة أسكيا أو أسكي أو الأساكي .

اسرة اسكيا :

ويقول السعدي في أصل هذا الاسم أن بنات سُن عليّ صِحن « أسكيا » ومعناه : لا يكون إياه أي عسى ألا يكون هذا هو غاصب عرسنا ، فلزمت هذه الصيحة آل الطوري وأصبحت أساً على بيتهم . والطوري هو الذي تحرف إلى توري في استعمالنا اليوم وأوْلىَ بنا إذا قلنا سيكوتُوري أن نقول الشيخ الطوري .

احتفظت ضنغى بازدهارها في عصر الأساكي خاصة وقد كان السلاطين من هذا البيت متمسكين بالإسلام مما زاد تعلق الناس بهم ، وقد حكم أبو بكر محمد الطوري أو الأساكي من ١٤٩٣م إلى ١٥٢٨ م وقد نظم بلاده تنظيماً حسناً ، فقسم دولته إلى ولايات ، وليّ على كل منها عاملا من المخلصين له من أهل البلاد المسلمين ، واتخذ تنبكت عاصمة له واستقدم إليها العلماء والفقهاء وأكرمهم وأكثر من بناء المساجد والزوايا ، وأفاض المال على الفقهاء والعلماء الذين كانوا يقرأون العلم على الناس في هذه المساجد والزوايا .

وفي سنة ١٤٩٧م قام أسكيا محمد بن أبي بكر الطوري بالحج إلى البيت الحرام ، واصطحب معه ٥٠٠ فارس و ١٠٠٠ جندي ، وحمل معه ٣٠٠,٠٠٠ مثقال من الذهب ، وقد استقبله شريف مكة من أسرة الحسنيين استقبالا حفياً ومنحه لقب خليفة .

وعاد محمد الطوري إلى بلاده وقد ازداد حماسه للإسلام فشدد الحملة على قبائل الموشي في ياتنجا وأدخل الكثيرين منهم في الإسلام .

وعلى الرغم من قضاء صنغى على مُلك مالي إلا أن سياسة الصنغيين في ترك حكم الأقاليم في يد أهل الطاعة لهم من سكان البلاد أتاح الفرصة لحكام مالي الماندنجيين للاحتفاظ بجانب كبير من استقلالهم ، بل إن كبيرهم في مالي ظل يحتفظ بلقب مُنْسا . فلما شدد أسكيا محمد بن أبي بكر الطوري

قبضته على بلاد مالي استغاث آل منسا الماليين بالأتراك العثمانيين سنة ١٤٨١م ، وكانوا قد ثبّتوا أقدامهم في الجزائر ، ولكن استغاثته لم تثمر عن شيء .

ويذهب المؤرخون البرتغاليون إلى أن محمد الأول مَنْسا ملك مالي اتجه إلى البرتغاليين طالباً معاونتهم على سلطان صنغي ، وأن هؤلاء أسرعوا بالاستجابة خوفاً من مجيء الأتراك العثمانيين إلى إفريقية الغربية ، فأرسل ملك البرتغال سفارتين جاستَا خلال البلاد وتعرفتا على أحوالها ، ورسم رجالها الخرائط والصور ، مما كان له أثر سيء بعد ذلك على بلاد السودان الغربي عندما شرع البرتغاليون في اتخاذ المراكز والقلاع الحصينة المعروفة باسم الفرنتيرات Fronteiras على سواحل المغرب وإفريقية . ولم يقدم البرتغاليون لمنسا محمد أي مساعدة .

وقد حاول أسكيا محمد الطوري الامتداد نحو الشرق ، ولكن الحَوْسَى تصدوا له فلم يستول إلا على ثلاث من دويلاتهم ، وكانت بلاد الحَوسى مكونة من ولايات صغيرة متحالفة يجاور بعضها بعضاً ، ثم اتجه إلى الشمال ووقع بينه وبين حكام الأطراف التابعين لدولة السعديين سلاطين المغرب الأقصى في ذلك الحين وقائع كثيرة استولى فيها على مناجم الملح الشهيرة في جنوبي دولة السعديين ، ولكن أسكيا داوود (١٥٤٩ – ١٥٨٢م) تنازل عنها لسلطان السعديين في مقابل مبلغ سنوي قدره ١٠,٠٠٠ مثقال من الذهب .

وبعد موت أسكيا محمد الطوري اختلف أبناؤه على خلافته وكانوا فيما يقال نحو المائة . ولكن الأمر عاد فانتظم واستقام سلطان الصُّنْغي في ملكهم الواسع ، وعمرت تنبكت وازدهرت حتى بلغ صيتها بالغنى والأمن ووفرة الذهب بلاد أوربا ، وتوافد العلماء عليها وانتشر التعليم بين أهلها حتى أصبحت الكتب العربية أعظم المتاجر وأوفرها ربحاً هناك . في هذه الفترة : أواخر القرن السادس عشر الميلادي ، زار تنبكت الرحالة المغربي الحسن الوزان –

الذي ارتد عن الاسلام وتنصر وتسمى باسم ليو الإفريقي (ويقال إنه عاد إلى المغرب وإلى الإسلام في أواخر أيامه) وزار أيضاً بعض بلاد صنغي الأخرى ، وقال « إن مرابح تجارة الكتب فاقت مرابح تجارة الذهب » ، وأضاف أن المصاحف والكتب الدينية الأدبية العربية كانت موضع فخر الناس ، وأن ثروة الرجل ومكانته كانت تقدر بعدد الكتب في خزائنه وعدد الخيل في مرابطه .

وبينما كانت بلاد صنغي في هذا الازدهار جاء الغزو المغربي الذي ستحدث عنه ، فكان ضربة قاصِمة ونهائية لدولة صنغي ، فعندما تمكن القائد المغربي جَوْدَر باشا من هزيمة جيش صنغي سنة ٩٩٩هـ/١٥٩٠م ودخلت قواته تنبكت ، قام على صنغي كل أعدائها القدامى : الماليون المندينجي بزعامة محمد الثالث سلطان مالي ، وخلع سلطان صنغي ، وكذلك قام « حمد آمنة » سلطان الفولا في حوض السنغال وأعلن استقلاله عليهم .

انتهى أمر دولة صنغي بهذا الغزو المغربي ، وعادت مالي إلى الظهور وحاول ملوكها الاستعانة ببعض الحكام المحليين ولكنهم لم يستطيعوا شيئاً ، وحاولوا التعرض للحاكم المغربي فلم يوفقوا إلى شيء .

وعقب ذلك اختفت دولة مالي هي الأخرى فكأن الغزو المغربي كان نهاية لمجد الدولة الإسلامية السودانية الذي وصفناه ، بالضبط كما كان غزو نادر شاه الأفشاري شاه فارس الهند وتخريبه لدهلى نقطة البداية لانحلال سلطان المسلمين في الهند وقد وقع الحادثان المؤسفان في نفس الوقت ، وهو عصر آخر الدولة الإسلامية الكبرى التي سادت عالم الإسلام من أقصاه خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وهي على الترتيب من الشرق إلى الغرب : سلطنة مغول الهند ، ثم دولة الصفويين ثم الأفشاريين في إيران ثم دولة سلاطين مماليك مصر والشام في السام ومصر ثم دولة سلاطين

آل عثمان في الأناضول والروملي والعراق ومصر والشام والحجاز والمغرب إلى حدود المغرب الأقصى عندمجرى المولويه ثم دولة سلاطين السعديين في المغرب الأقصى ، ثم دولتا مالي وصنغي في بلاد السوادن الغربي .

وقد أكلت هذه الدول الإسلامية الكبرى بعضها بعضاً بينما كان العدو الغربي يتحفز على الأبواب : أكل الأفشاريون دولة سلاطين الهند ، وأكل سلاطين آل عثمان سلاطين مصر والشام ، وأكل سلاطين السعديين دولتي إفريقية الغربية المدارية الإسلامية ، فأدوا بذلك أكبر خدمة لقوات أوروبا الناهضة لتأكلهم جميعاً من بحار الهند إلى ساحل الأطلس بما في ذلك البحر المتوسط وسبحان من جعل بأس المسلمين بعضهم في بعض شديداً .

- غزو سلاطين المغرب لبلاد السودان الغربي

في ذلك الوقت كان عرش مراكش عاصمة سلاطين السعديين أصحاب المغرب الأقصى قد آل إلى أحمد المنصور الملقب بالذهبي (١٥٧٨–١٦٠٣م) في ظروف مواتية لزيادة قوة البيت السعدي (نسبة إلى حليمة السعدية مرضع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نسبوا إليها مع أنهم أشراف ينحدرون من الدوحة النبوية الشريفة) فقد كسب أخوه وسلفه عبد الملك في الرابع من أغسطس ١٥٧٨م نصراً مؤزراً على البرتغاليين في موقعة وادي المخازن المعروفة أيضاً بمعركة الملوك الثلاثة ، وكانت نتيجة هذا النصر خروج البرتغاليين نهائياً من بلاد المغرب وانقطاع أطماعهم الاستعمارية فيه ، ونتج عن ذلك النصر أن البيت السعدي قفز إلى مراتب البيوت الحاكمة الكبرى في عالم النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ، فتوافدت السفارات الأوروبية على بلاط فاس . وأصبحت هذه عاصمة دولة كبرى تمتد من تلمسان إلى طنجة ومن طنجة إلى أقصى السوس جنوباً عند وادي درعة . وقد تمكن أحمد السعدي الذي اتخذ لقب المنصور من إقامة دولة قوية منظمة أقرت الأمن وأشاعت الرخاء في الوطن المغربي كله .

وقد اتخذ أحمد المنصور الأتراك العثمانيين مثلا يحتذيه ، فاتبع النظام التركي في ترتيب قصره وشئون دولته ، واتخذ من الأتراك مدربين لجيشه ، ونظم هذا الجيش على أسس عثمانية ، واتخذ لقب باشا لعمال النواحي ، وكانت في جيشه أعداد كبيرة من الأسبان الذين دخلوا في الإسلام ، ومنهم الكثيرون كان آباؤهم أندلسيين قد تنصروا بالقوة في أسبانيا فعادوا إلى الإسلام

ودخلوا في خدمة ذلك السلطان المسلم ، وكان في الجيش كذلك أعداد كبيرة من السودان والقبليين والمتسللين من الجند العثماني . وكان عدد رجال ذلك الجيش عظيماً ، ونفقته ثقيلة . ففكر السلطان أحمد المنصور في فتح بلاد السودان للفوز بذهبها الكثير الذي طبقت شهرته الآفاق في تلك العصور ، واختار لقيادة حملة الفتح واحداً من الأندلسيين الذين انضموا إلى جيشه وهو جودر باشا وجعل معظم جيشه من أولئك الأسبان الأندلسيين ، وكانت تلك فكرة غير موفقة من ذلك السلطان الطموح ، لأن بلد السودان كانت تقوم فيه دولة صنغي المسلمة ، وكان سلاطينها من آل سُن أو شن رجالا أقوياء يعيشون في صراع دائم مع الوثنيين لأنهم كانوا يعملون على توسيع رقعة الإسلام من حولهم ، ثم إن المغرب الأقصى كان يجني خير الثمرات من تجارته النشيطة مع بلد السودان ، وكان علماء المغرب هم حملة الثقافة والعلم في تلك البلاد الواسعة . وكان ينبغي أن يفكر المنصور في أن حملة كهذه تعبر الصحراء وتقطع ألوف الكيلومترات في الفيافي والقفار كان لا بد أن تكلف صاحبها مالا طائلا ولا تعود عليه بعد ذلك بما يعادل هذه النفقات .

وسارت الحملة في فوضى شاملة سنة ١٥٨١ م وهلك في رمال الصحراء من رجالها مئات كثيرة ، وكان هدفها مناجم الملح في تغازّه وكانت مصدراً كبيراً من مصادر الإيراد لسلطان صنغي . فبدأت الحملة بالاستيلاء على واحات جرارة وتوات في جنوبي الجزائر الحالية ، وعندما رأى ملك البرنو (سنتكلم عنهم بعد قليل) أن جيوش سلطان المغرب قد اقتربت من حدوده أعلن الطاعة له ودعا له على منابره .

وبعد خمسة أشهر من رحلة المهلكة في الصحراء وصلت الحملة إلى بلاد صنغي وأوقعت هزيمة كبيرة بهم في موقعة فونديبي على بعد ٥٠ كيلومتراً

شمال جاو في ١٢ أبريل ١٥٩١م ثم دخل الجيش جاو فوجدها خاوية على عروشها قد غادرها أهلها ، فاستقر جودر باشا برجاله في تُنبكت .

وشعر رجال الحملة بخيبة أمل كبرى عندما علموا أن مناجم الذهب لا زالت بعيدة جداً عنهم ، وأنهم لا بد أن يسيروا قدر ما ساروا في بلاد صحراوية أيضاً حتى يدخلوا في الغابة ويصلوا إلى سفوح جبال الفوتاجالون .

وشك السلطان أحمد المنصور في صدق جودر باشا فعزله وأرسل مكانه قائداً مغربياً يسمى محمود زرجون ، فوصل إلى تنبكت وأخذ الرياسة من جودر ، وانتقل هذا الأخير إلى جاو .

وتفرق أمر صنغي ، وانتقل بعض زعمائها إلى دندي تاركين بلادهم نهباً للطوارق والبامبا را والفولا .

أما القائد محمود زرجون فلم يوفق في إرسال مقادير الذهب التي كان السلطان يطالبه بها . فعزله وتولى مكانه القائد منصور ، وأمر السلطان بأن يقبض على القائد محمود زرجون ويقتله ، وأن يضع القاضي في الحديد ويرسله إلى المغرب مع نفر كبير من فقهاء تنبكت لأنه اتهمهم بخيانته . وكان من بين من وقع عليهم هذا العقاب المؤرخ أحمد بابا التنبكتي الذي حُمل إلى مراكش وظل في سجن السلطان حتى عفا عنه خليفة المنصور فعاد إلى بلاده سنة ١٦٠٧ م .

وأما القائد جودر فانتظر حتى هدأت الأحوال ، ثم عاد إلى مراكش محملا بالأموال ، وأما بقية جنده فقد بقوا في البلاد وتزوجوا من أهلها واشتركوا معهم في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الطوارق والنيمباره أصحاب سيجو والماندنجي أصحاب مالي القديمة وانتهى أمرهم بأن استقوى أمرهم في دندي وأصبحوا من أهلها ، فلم ينشئوا دولة ، وإنما اشتغلوا بالتجارة مع بلاد المغرب . فعادت هذه التجارة وانتعشت على أيديهم .

ويئس سلاطين المغرب من بلاد السودان ، فلما توفي آخر الباشوات الذين أقاموهم على تنبكت سنة ١٦٢٠ م لم يبعث السلطان له خلفا . وانفرد الجند المغربي الأندلسي بالأمر ، وساروا في الحكم بطريقة سيئة ، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يعرفها أولئك الجند المرتزقة . يستوي في ذلك للقادة منهم والجند، فكانوا جميعاً نهابين للأموال لايعمر قلوبهم ولاء لدولة أو إحساس خلقي . ولقد حاول القائد محمود زرجون إعادة الدولة الصنغية ، ولكنه لم يستطع ، لأن ميزانه الأخلاقي كان خالياً من أفكار العدل والتنظيم . فكان همه العدوان على سراة الناس وكبار التجار وسادة الناس إما للحصول على أموال الناس أو خوفاً من قوتهم السياسية . فلما مضى لسبيله أصبح اختيار باشا تنبكت أي قائد حاميها متروكاً للجند . فأقاموا في المدة من ١٦١٢ إلى ١٦٦٠م واحداً وعشرين باشا وعزلوهم وفي المدة من ١٦٦٠ – ١٧٥٠ م أقاموا وعزلوا ١٢٨ باشا آخرين حتى لقد اقتصرت ولاية بعضهم على ساعات لقوا بعدها حتفهم على أيدي منافسيهم . وكان الضباط منهم يصاهرون كبار السودانيين في حين تزوج الجنود دون تحفظ . ونشأت عن هذه المصاهرات طبقة جديدة مغربية أندلسية سودانية أطلق عليها اسم أرْما أو الأرما ، وهو تحريف للفظ الرماة العربي ، لأن أولئك الجنود اشتهروا من أول الأمر بإجادة الرمي بالبندق . ولم تكن البنادق إذ ذاك ترمي الرصاص ، وإنما كانت ترمي قطعاً من الرصاص أو الحديد في حجم البندق . وكان القوس نفسه يصنع من الحديد الصلب الرقيق اللدن ، أما سِيَة القوس فكانت تصنع من حبال قوية من الكتان . وكانت تلك الأقواس توضع على آلة من حجر فيها قناة محفورة بحجم البندقة ، ويجذب الرامي القوس بيده والسهم في سيته ورأسه مصوبة نحو البندقية في مجراها بعد أن يصوب المجرى نحو الهدف ، ثم يطلق القوس فيندفع السهم في قوة هائلة ويقذف بالبندقه أو بصف البندقات في المجرى فيصيب العدو ، وكان هذا القوس

يسمى بقوس الحديد أو قوس الرِّجل ، لأن الرامي كان يجذب القوس برجله لتكون قوة اندفاعه بعد ذلك أشد . وتلك كانت بنادق القرن الثالث عشر والرابع عشر ، فلما اكتشف البارود حُوِّلت قناة البندق إلى اسطوانه طويلة قطرها قطر البندقه ، وجعل السهم يمر في القناة ، ثم تحشى القناة من أمام بالبارود ، ويوضع داخل قناة البندق زناد إذا ضربه رأس السهم اشتعل فأشعل البارود فاندفع وقذف بندق الحديد بقوة شديدة وهذه هي بدايات البنادق التي نعرفها اليوم ، وقد ظهرت في القرن السادس عشر وعرفها المسلمون واستعملوها ، ولكن الأوروبيون سبقوهم في تجويدها وتطويرها فكان ذلك التطوير حاسماً بالنسبة لعلاقاتهم بنا .

وقد أصبحت طبقة الأرما السودانية المغربية هي الطبقة الأرستقراطية في البلاد ، منهم النبلاء وأبناء القادة والنبيلات بنات علية القوم ، وفيهم الأوساط من سلالة الضباط وبنات الأسر . ومنهم العامة من أبناء الجند . ومن الغريب أن معظم هؤلاء الأخيرين اشتغلوا بالحرف وخاصة صناعة السابَطّات وهي الأحذية واشتهروا بذلك .

والكسب الوحيد الذي حققه السلطان أحمد المنصور الذهبي من وراء هذه المغامرة التي قضى فيها على دولة إسلامية مجيدة في فجر عصر الاستعمار هي مقادير ضخمة من تبر الذهب أرسلها إليه قادة الحملات الأولى ، ويقول اليفرني في « نزهة الحادي » أن وفرة الذهب الذي وصل إلى المنصور جعلته يدفع رواتب جنده ونفقات جيشه وقصوره بالذهب الصامت . وكان في دار سكته في فاس ١٤٠٠ طابع أي مطرقة يرسم السكة تعمل كل يوم ، ومن هنا لقب هذا السلطان بالذهبي ، ويحكي التاجر الانجليزي لورنس مادوك Laurence Madoc الذي أقام ردحاً من الزمن وكيلا تجارياً في مراكش أنه رأى مرة ثلاثين بغلا محملة بأجوال تبر الذهب الواردة على

المنصور ، كل ذلك مع أن المغاربة لم يصلوا قط إلى مناجم الذهب عند سفوح الفوتاجالون جنوبي نهر السنغال ، وإنما جاءهم الذهب به مما صادروه من سراة تنبكت وجاو ، وكان التبر عندهم في خزائن مترعة ، ثم إنهم سيطروا على مناجم الملح في تغازه ، وكان عامل السلطان هناك يتولى بنفسه عمليات مقايضة الذهب بالملح وزناً بوزن فيما يقال ، وهو مستبعد ، ثم إن المنصور جنى ذهباً كثيراً من فدية ألوف البرتغاليين الذين وقعوا في الأسر في معركة وادي المخازن .

والذي يهمنا هنا هو أن الغزوة المغربية كانت إيذاناً بنهاية العصر الذهبي لدول السودان الغربي الإسلامية ، فقد قضى الجند المرتزق الذي ذكرناه في عنف وقسوة على تلك الطبقات الممتازة من الماندجيين والغانيين والصنغيين قامت بعبء هذه الدول ، ثم إن تخريب تنبكت وجاو مرة بعد مرة ومصادرات سراتها وتجارها واضطهاد علمائها وفقهائها كان له أسوأ الأثر على مستقبل الثقافة والحضارة الإسلامية في تلك البلاد .

ولا يسأل عن ذلك السلطان أحمد المنصور الذهبي ورجال الدولة السعدية بقدر ما يسأل عنه قادة الجيوش الغازية من الأندلسيين المسمون بالعلوج الذين شوهوا سمعة الإسلام والمسلمين في بلد السودان الغربي فترة طويلة من الزمن . وكان هذا التشويه من أكبر ما أعان المستعمرين البرتغاليين والفرنسيين والانجليز على غزو تلك البلاد الشاسعة وتقاسمها بينهم مستعمرات .

الدور الحضارى للدول الاسلامية فى افريقية المدارية الغربية :

وقبل أن نختم هذه الفقرات عن الدول الإسلامية السودانية الغربية الكبرى لا بد من الإشارة إلى العمل الحضاري الضخم الذي قامت به تلك الدول . فقد اجتهدت كلها في توسيع نطاق الإسلام في إفريقية المدارية والاستوائية

الغربية وجعلته الديانة الرئيسية من حدود الصحراء الكبرى إلى بلاد الكونغو . ومع الإسلام أخذت هذه الدول أصول الحضارة العربية ، وسارت بها إلى الأمام وطوعتها لظروف حياتها في البيئة الإفريقية ، فأنشأت الدول الكبرى ونظمتها على أسس إسلامية ، وأقامت المدن وعبأت الجيوش واتخذت الحروف العربية لكتابة لغاتها ، واجتهد أهلها في تعلم العربية ودراسة القرآن الكريم واقتباس علوم الإسلام وفنونه ، فنهضت الثقافة نهضة كبرى وقامت حلقات الدرس في المساجد في المدن والزوايا في القرى .

وكان للشريعة الإسلامية في تلك البلاد أبعد الأثر ، فلأول مرة في التاريخ يعرف سكان السودان الغربي شريعة محكمة وقانوناً يقوم على العدالة ومكارم الأخلاق .

وقد أقبل أهل إفريقية الغربية على دراسة الشريعة الإسلامية ، ورحل المئات من أبناء هذه البلاد إلى مراكش وفاس والقيروان والقاهرة لدراسة الشريعة الإسلامية والتفقه فيها ، وتكاثرت أعداد أولئك الطلاب في الأزهر خاصة حتى أنشيء لهم رواق خاص يسمى رواق غانة عنيت به مشيخة الأزهر وأوقف عليه الناس الأوقاف الواسعة ، وكان ملوك غانة ومالي وصنغي الذين ذهبوا للحج يشترون في مصر الأراضي والضياع والدور ويوقفونها على رواق غانة ، وكانت مشيخة الأزهر تختار شيخاً أزهرياً للرواق وتحرص على أن يكون ذلك الشيخ غانياً ، لأن الكثيرين من طلاب غانة كانوا يستقرون في مصر ويصبحون من أهلها ، أما العائدون منهم إلى بلادهم فكانوا يحتلون مكانة رفيعة بين الناس ، فيعولون القضاء والافتاء ، حتى القبائل المسلمة التي كانت خارجة عن طاعة السلاطين كانوا يستقدمون الفقهاء ليقيموا العدل والشريعة ويعلموا الناس القرآن والسنة ، فنشأت الكتاتيب في كل مكان في السودان الغربي .

بل كان هؤلاء الفقهاء حَمَلَةَ إسلام عاونوا على إدخال قبائل كبرى في الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة العادلة نفوسهم بعدالتها وسموها ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون في البلاد كانوا يلقون من الناس تكرمة وأرزاقاً واسعة ، فكان ذلك حافزاً لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا في تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها في اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسّي التي كانت معادية للإسلام لأسباب قبليه ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والجوكون والبورجو التي تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة فيما يعرف الآن بداهومي وساحل العاج والكمرون والجابون استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام .

وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقاً ومسالك في أوعر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقاً عازلا يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوروبي فتحت جيوش الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهى لم تحكمها قط ، وإنما كان همها أن ترهب الأهالي ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس والكاكاو وما إليها دون ثمن تقريباً ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيداً وبيعهم في الأسواق رقيقاً وخاصة للنخاسين الأوروبيين الذين أنشأوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب في هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها في الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات يصيدوهم كالحيوانات ويجرُّونهم بالسلاسل إلى الشواطيء حيث يكدسون في سفن دون أدنى رعاية صحية

أو إنسانية فلا يصل منهم حيّاً إلى الشواطيء الأمريكية إلا العُشر ، وهناك يباع الناجون في الأسواق بالمزاد .

فأين الإسلام السمح الرحيم من ذلك كله ، لقد دخل عن طريق الكلمة الطيبة وعن طريق الشريعة السمحة ، دخل قلوب الناس واستقر فيها وفتح لهم طريق الحضارة والنور ، وتحول مع الزمن إلى دين قومي لأولئك الناس .

وقد حكى أحد الرحالة قصة تؤكد ما قلناه ، قال : « أرسلتني جماعتي الدومينيكية إلى قرية صغيرة تسمى باهو غير بعيدة عن الشاطيء في إقليم الفوتاجالون ، وكنت قد تدربت على التطبيب وبناء البيوت واستعمال الأدوات الحديثة لكي أخدم أولئك الناس واجتذبهم إلى الكاثوليكية ، وكان معي ستة من المساعدين وقدرٌ طيب من المال لنبني كنيسة ومستشفى ومدرسة ، ومضينا في عملنا ثلاث سنوات ، فبنينا الكنيسة والمستشفى والمدرسة ، وبينما نحن نعمل نزل القرية فقيه مُرابط (Marabout) مسلم من أهل تمبكتو يسمى حاجي أبسلام (عبد السلام) وأخذ يدعو ويقضي بين الناس ، وفي أقل من ستة شهور كانت القرية كلها وما حولها قد دخلت في الإسلام بعمل ذلك الفقيه المرابط الواحد ، وانصرف الناس عنا وعن كنيستنا ومستشفانا ومدرستنا ، ووجدنا أنفسنا بدون عمل إطلاقاً ، وكتبنا بذلك إلى رؤسائنا في بوردو ، فأرسلوا أسقفاً ليستجلي الأمر ، فأقام معنا ثلاثة شهور ، ثم قال لنا : أظن يا أولادي أنه لا مستقبل لنا هنا . دعوا كل شيء لأولئك الناس وأمضوا عنهم فقد تغلب عليكم ذلك الفقيه الواحد »(١) .

---

(١) رواه الاستاذ شارل مونتاى :
Charles Monteil, les Bambara de Segŧe et les Karata. Paris 1929
ونقله عنه ابنه المستشرق فنسان مونتاى فى دراسة له عن الاسلام فى افريقية الغربية .

وهكذا وبينما كان الملوك يتحاربون كان العلماء يعملون في قاعات المساجد والمعلمون يعملون في قاعات الكتاتيب وتحت الشجر ، وهاجر الكثيرون من أهل المغرب والأندلس ومصر إلى بلد السودان حاملين معهم شتّى العلوم والفنون والحرف ، وقد ظهر تفوق الإفريقيين في بعض العلوم والفنون ، ففي الطب مثلا نبغ الكثيرون من الماندنجي والغانيين والصنغيين والفولانيين في الطب والجراحة ، وقد ذكر أحمد بابا التمبكتي عدداً من أطبائهم في « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » وقال إنه كانت لهم مهارات خاصة في الجراحة ، وفي تمبكت كان أبناء السودانيين يجرون بنجاح عمليات استخراج حصى المثانة وقدح ماء العين وهي عملية الكاتراكتا ، وابتنى المعماريون في عواصم السودان المساجد الجميلة السامقة . أما التجارة فقد استمر ازدهارها ، فأصبح تجار السودان من أمهر وأغنى تجار العالم الإسلامي كله ، وعمرت طرق التجارة والحج بالقوافل والركبان على مدار العام .

وليس من الصواب في شيء أن يقال أن الأوروبيين حضّروا إفريقية . إذ الحقيقة أن العرب والمسلمين عامة هم الذين أخرجوا إفريقية المدارية والاستوائية من سبات القرون وأدخلوهم في نطاق التاريخ ، وعندما جاء الأوروبيون لم يكن لهم هم إلا القضاء على ما وجدوه من معالم الحضارة هناك حتّى يردوا الناس إلى البدائية والجهالة ثم يستغلوهم كيف شاءوا . وهذا ما حدث فعلا . والفرق بين ما فعله العرب في إفريقية وما فعله الأوروبيون ، هو أن العرب أعطوهم أساس الحضارة وهو الإسلام وأخذوا بأيديهم حتّى وضعوهم على أول طريق الحضارة ، فأقاموا بأنفسهم حضارتهم الأصيلة النابعة من طبعهم أي حضارتهم الإفريقية الإسلامية . أما الغربيون فقد أجتهدوا في القضاء على شخصية الإفريقي وإنشاء طراز من الإفريقي على أساس أوروبي غريب كل الغرابة عن الطبيعة الإفريقية .

- **فترة الركود :**

بعد القضاء على دولة صنغي عادت إفريقية الغربية المدارية إلى سابق عهدها من الفوضى ، فانقسمت البلاد من جديد إلى إمارات أو مشيخات قبلية صغيرة ومع أن معظم هذه التكوينات السياسية الصغيرة كانت إسلامية إلا أن الحروب بين بعضها وبعض وعودة الصراعات القبلية القديمة أبطأت بحركة انتشار الإسلام الجماعية بين بقية أهل القبائل التي قامت عليها ممالك السودان الثلاثة الكبرى التي ذكرناها . ومع ذلك فقد ظل الإسلام ينتشر في بطء على أيدي بعض الأمراء الصغار ورؤساء القبائل ، وعلى أيدي الدعاة من أهل الطرق الصوفية والتجار الذين لم يكفوا أبداً عن حمل راية الإسلام والسير بها إلى الأمام . كذلك ظهرت دويلات إسلامية صغيرة قامت بنصيب مشكور في ذلك .

وأهم هذه الدول دولتان أنشأتهما قبائل البامبارا على ضفتي نهر النيجر بعد زوال دولة صنغي سنة ١٥٩١م . والبامبارا جماعة سودانية زراعية كبيرة كانت تعمل في الزراعة في حوض النيجر الأوسط منذ قرون ، ثم استقرت في بلادها جماعة من دعاة الإسلام من الفولا ودفعتهم إلى إقامة نظام سياسي إسلامي ، وابتداء من القرن السابع عشر تشهد قيام دولتين من سودان البامبارا : الأولى على الجانب الأيمن للنهر مركزها سيجو والثانية على يساره أنشأها فرع الماساي من البامبارا ومكانها منطقة كعارتة . وقد انتشر الإسلام بين البامبارا في بطء شديد ، لأن هذه القبائل كانت شديدة التمسك بعقائدها التي تقوم على الترويح(١) وهو اعتبار كل الكائنات ذات أرواح خبيثة أو شريرة ، والقول بأن هذه الأرواح تقرر كل شيء في مصائر البشر ، ومن ثم تقام لها الطقوس

(١) ترجمنا بهذا اللفظ لفظ Animisme الاوربي .

والعبادات التي لا تخرج عن الرقص الديني . وقد حكم البامبارا الشرقيين ملك نشيط هو مماري كوليبالي (١٧١٢ – ١٧٥٥م) قاد قومه سنة ١٧٢٥م في مهاجمة جيرانهم الأقوياء من قبائل الكونج وتمكن من توسيع رقعة بلاده ، وقد استعبد مماري قبائل الكونج استعباداً حقيقياً مما يدل على ضعف إسلامه أوبعده عن الإسلام ، ثم تولى أمرهم فيما بين سنتي ١٧٦٠ و١٧٩٠م انجولو ديارا N'golo Diara فمد سلطانه على كل المنطقة الواقعة في اتجاه النيجر وغيّر سياسة سلفه ، فرفع الاستعباد وأقر مساواة الإسلام وذلك بفضل الفقهاء الذين أتى بهم من تنبكت .

وفي أثناء ذلك فقدت بلاد السودان النظام الذي أقامته الدول الكبرى التي ذكرناها ، وبفقدان النظام والسلطة المركزية عادت القبيلة إلى ما كانت عليه ، واحتربت القبائل بعضها مع بعض ، فلم تصبح الطرق آمنة كما كانت قبلا ، فتراخى نشاط التجارة وقلت قوافل البضائع التي كان الدعاة يسيرون في صحبتها وغلبت النزعات القبلية الهمجية ، ومن ثم نجد الوثنية تعود مرة أخرى إلى نواح شاسعة من بلد السودان الغربي . ومع أن الدعاة ظلوا يعملون في زواياهم ، ويجتهدون في الدعوة ، إلا أن ركائز الإسلام ضعفت وهي السلطة الإسلامية القادرة على حماية جماعة العلماء والفقهاء ورعاية المساجد وتأمين الأسواق الكبيرة العامة التي كانت الميدان الكبير الذي كسب الدعاة فيه الألوف من المؤمنين . وظلت هذه الحالة من التراخي قائمة حتى نهض الفولانيون والتكاررة نهضة إسلامية أخرى خلال القرن الثامن عشر أعادت إلى الإسلام السوداني قوته وفتحت أمامه مناكب الأرض ومداخل القلوب من جديد .

● نهضة الاسلام فى السودان بزعامة الفولانيين والتكاررة

كان الفولانيون شعباً من الرعاة موطنه الأصلي في حوض السنغال ، وقد انتشرت فروع هذا الشعب وجماعاته في كل المساحة الواسعة الممتدة من السنغال إلى إقليم تشاد . واشتهرت منهم أربعة فروع كبيرة هي :

(أ) الفولانيون السنغاليون المعروفون بفولا فوتا تورو .

(ب) الفولانيون الغينيون المعروفون بفولا الفوتا جالون .

(ج) الفولانيون في إقليم ماسينا وبلاد الحوسَى (الهاوزا) .

(د) الفولانيون في أَدَماوَه في جنوب شرقي نيجيريا وبلاد الكمرون .

ـ دولة الفولانيين السنغاليين فى اقليم فوتافورو :

وقد دخل الفولانيون في الإسلام على أيدي المرابطين منذ القرن الحادي عشر الميلادي وتحمسوا له وقاموا يدعونه وكسبوا إلى جانبهم التكاررة أو شعب التكرور ، ومواطنه الأولى في شمال حوض نهر غمبيا ، وهم بدو أيضاً ، وقد اختلط الفولانيون والتكاررة على مر الزمن وأصبحا عماد الإسلام في بلد السودان الغربي حتّى قيل أن بلاد التكرور وهي ملتقى أجناس شتّى بحكم موقعها تشبه المدينة المنورة من حيث أنها مركز إشعاع دينْي عظيم .

وقد خضع التكاررة لدولة غانة قبل أن تدخل الإسلام ، ثم أصبحوا خلفاء المرابطين ، ودخلوا في الإسلام على أيديهم وحاربوا في صفوفهم ، وبفضلهم أصبحت منطقة الفوتا تورو مركزاً كبيراً للدعوة الإسلامية ، وقد سبق أن ذكرنا

اتجاهات الهجرات

أنه يقال إن الفولانيين أصلهم قبيلة من صنهاجة الصحراء ، وهم في العادة ينسبون أنفسهم إلى مَسُّوفة . إحدى كبريات قبائل صنهاجة الصحراء ، وكان لرجالها فضل عظيم في إقامة دولة المرابطين .

واستمر التكاررة والفولانيون خاضعين لدولة غانة الإسلامية ، ثم خضعوا لدولة مالي ، وفيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين قامت أسرة من أسر قبائل الجُلُف التي تسمى عادة بالوُلُف – وهم قبيلة هجين من الفولانيين وبربر الصحراء – بإقامة دولة بزعامة انجاجا انجياي وبسطت سلطانها على بلاد التكرور ، وكانت إذ ذاك خاضعة لدولة مالي التي كانت في أوج قوتها . وكان هذا الفريق من الجُلُف على الوثنية .

وفي سنة ١٧٧٦م أقام زعيم من التكاررة هو الإمام (في لغتهم تحرف إلى المامي) بالثورة على سلطان الجُلُف وقتل ملكهم وأدخل هذا الفريق من التكاررة في الإسلام ، وقامت بفضله دولة إسلامية قوية في كل حوض السنغال (أي بلاد الفورتا فورو) تضم الفولانيين والتكرور والوُلُف . وقد استمرت هذه الدولة قائمة عاملة على نشر الإسلام فيما حولها حتى قضى عليها المستعمرون الفرنسيون .

– دولة الفولانيين في منطقة جبال الفوتا جالون وهي غينيا :

منطقة الفوتاجالون منطقة جبلية واسعة ، وهي تعتبر خط تقسيم مياه تنحدر منها إلى الغرب أنهار السنغال والجامبيا والكونكوري ، ومنها ينبع نهر النيجر ويسير شمالا بشرق ، وله فرع ينحدر من الجبال غرباً نحو المحيط الأطلسي .

ونظراً للارتفاع ووفرة المياه في ذلك الإقليم نجد بلاد الفوتاجالون منطقة غنية بالزراعات والماشية وهي ذات جو معتدل ، وفي القرن السادس عشر

الميلادي ، أي في فترة اضمحلال دولة صُنغاي تدخل هذه البلاد الغنية جماعات من الفولا السنغاليين ومن الفولانيين الضاربين في بلاد الماسينا ونشر الإسلام بين أهلها والراجح أن هذه الجماعات المهاجرة من الفولانيين كانت هاربة من سلطان الأساكي رؤساء صنغى .

وبعد أن تم إسلام الفولانيين في إقليم الفوتاجالون نجدهم يبايعون بالملك سنة ١٧٢٥م شيخاً عاماً ذا قوة وعزم وهو الفَعْ كراموكو ، والفَعْ أو « الفا » لفظ عربي محرف مقتبس من لفظ الفقه(١) أو الفهم ، وقد تلقب بهذا اللقب المؤرخ القاضي الفَعْ محمود كعت صاحب كتاب (الفتاش) فاجتهد الفع كراموكو في القضاء على الوثنية في بلاده حتى أصبحت إسلامية خالصة .

وخلفه زعيم من أسرة أخرى من الفولا هو إبراهيم سَوْرِي فأكمل عمل سابقه ، وعندما توفي وقع النزاع على الأمر بين الأسرتين ثم اتفقا حوالي سنة ١٧٨٤م على تبادل العرش كل سنتين ، فيملك « فع » أو الفا من أسرة كراموكو هو وأصحابه سنتين ، ثم يتنازل عن العرش هو وأصحابه ووزراؤه للمرشح من أسرة السوري ، فيتخذ الوزراء والقواد من قبيلته . وقد عرف هذا النظام من التناوب باسم « نْظاما ألْفايا » (والفايا جمع الفا أو الفع في لغة الفولا) .

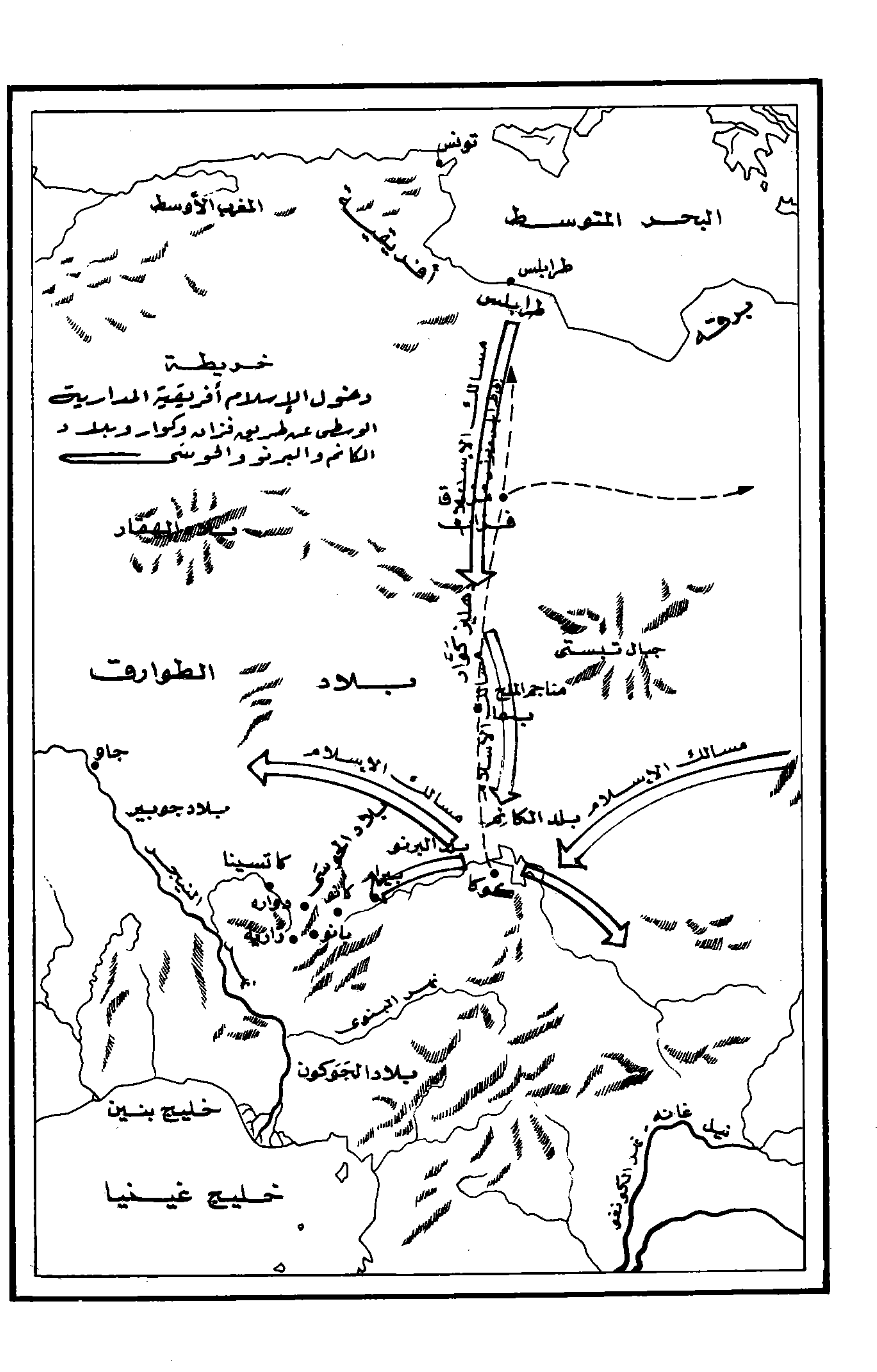
وقد ظل هذا النظام قائماً حتى ألغاه الاستعمار الفرنسي عندما ثبت قدمه في البلاد سنة ١٨٨٨م .

– الفولانيون فى اقليم الماسينا الداخل فى بلاد الحوسى :

وقد هاجرت من الفولا جماعة من إقليم فوتافورو أي وادي السنغال إلى إقليم ماسينا عند التقاء النيجر بأحد فروعه قرب بحيرة ديبو وإقليم باني . وهناك

---

(١) ينطق لفظ الفقه هنا بفتح الفاء : الفقه وهم يسقطون فى النطق بقية اللفظ الاجنبى فيقولون الفا أو الفع فى الفقه والفهم .



خريطة
دخول الإسلام أفريقية المدارية الوسطى عن طريق فزان وكوار وبلاد الكانم والبرنو والهوسى
تونس
البحر المتوسط
المغرب الأوسط
أفريقية
طرابلس
برقة
بلاد الطوارق
جبال تبستى
مناجم الملح
بلاد الكانم
بلاد البرنو
بلاد الهوسى
مسالك الإسلام
جاو
كاتسينا
كانو
زاريه
بلاد الجوكون
نهر البنوى
خليج بنين
خليج غينيا

استقروا وكبرت قطعان ماشيتهم وزادت ثرواتهم ودخلوا في طاعة مالي ، فكافأهم سلطانها بأن عين أحد رؤسائهم وهو ماجا جالو Maga Diallo حاكماً (= أرْدُو بلغتهم) لإقليم بفاجا . وعاش الفولا هنا في سلام مع سادة الدول المتتابعة من غانة وصنغى والبامبارا . ولكن أحدهم حاول الثورة على اسكيا داوود في منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، فتمكن هذا من القضاء عليه وعلى أنصاره ، وبعد ذلك نجدهم حلفاء للملوك البامباراة .

وهاجرت جماعة أخرى من الفولا إلى إقليم ليبتاكو على الضفة الشرقية للنيجر ، وكان توفيقهم هناك أكبر مما أدركه سابقوهم . وفي القرن السابع عشر نجد واحداً منهم وهو إبراهيم سايدو يبسط سلطانه على المنطقة الواقعة في وسط منحنى النيجر كلها . واستمر أولاده وأحفاده على سلطانهم هذا ، وتمكنوا من حماية بلادهم من غارات الطوارق في الشمال والموشِي في الجنوب ، وظلوا على ذلك حتى انضموا سنة ١٨٦٠م إلى دولة سوكوتو على يد سلطانها عثمان دان فوديو .

وهناك هجرة فولانية رابعة تعتبر من الناحية الإسلامية أهم من الهجرات الثلاثة السالفة ، وتدل على أن الفولا كانوا بحق من أنشط الجماعات القبلية السودانية في العمل على نشر الإسلام وتوسيع رقعته في بلد السودان الغربي .

ففي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي كانت جماعات من الفولا قد استقرت في إقليم جوبير ، وهي منطقة داخلة في بلاد الحوسَى ، وفي سنة ١٧٥٤م ولد فيها عثمان دان فوديو أو فوجو ، تربى وشب على حب الإسلام والولع بالتبحر في علومه ، واشتهر أمره بالتقى والورع والزهد ، مما جذب حوله الأتباع ، فأسلم على يده عدد كبير من أهل هذه الناحية ، فلما صار لجماعته هذا القدر من الاتساع والحماس ثارت مخاوف رجال الحوسَى في إقليم جوبير ، فلما أحس عثمان دان فوديو ذلك منهم واستوثق من قوى جماعته ،

أعلن الجهاد على الحوسى سنة ١٨٠٤م ، وكان الكثير من هؤلاء قد انضموا إليه ، فانتصر على قوات الحوسى وأصبح سيد المنطقة ، واتخذ لنفسه لقب الشيخ وأمير المؤمنين ، ثم مضى فأخضع ماجاوره من بلاد الحوسى مثل كُتْبينا وزاريه ونوبه وكبّه وأنشأ من ذلك كله سلطنة واسعة اتخذ سوكوتو عاصمة لها وأخذ يتوسع في بلاد قبائل اليوروبا .

وحاول عثمان دان فوديو أن يستولى على بلاد البُرنو إلى الشرق ، ولكن هؤلاء وقفوا في وجهه بقيادة قائد عسكري يسمى الكانمي ، وانتهى الأمر بأن اتفق الجانبان على التصالح وإيقاف القتال .

وفي تلك الأثناء ظهر بين الفولا الذين استقروا فيما كان يعرف باسم أدَماوَه وهي الكمرون شيخ عالم مجاهد يسمى ادما خلع عليه الناس لقب مؤدِّب أو موديبو بلغتهم ومعناه العالم الفقيه . وكان عثمان دان موديو بعد أن أتم إخضاع بلاد الحوسى فيما عدا القانم قد استقر في عاصمته سنة ١٨٠٩م . وفي سنة ١٨١١م نجده يستدعي موديبو أداما ويسلم له رايته البيضاء وهي رايته في الجهاد ، ويكلفه بمواصلة الحرب حتى ينشر الإسلام فيما يلي نهر البنوي وهو فرع كبير من فروع النيجر يصب في ضفته الشرقية ، فنهض أداما بالمهمة وأعلن على الوثنيين حرباً عنيفة فأدخل معظم ما يعرف اليوم بالكمرون في الإسلام ، وبلغ من قوة سلطانه أن تغير اسم الإقليم من بنوي إلى أدَماوَه نسبة إليه . وتوفي مؤدب أداما سنة ١٨٤٧م ، وخلفه ثلاثة من أبنائه على التوالي . وفي سنة ١٩٠١م احتل الإنجليز البلاد وأقاموا رابع أولاد مؤدب أداما ، واسمه أداما أيضاً — أميراً على تلك البلاد التي أصبحت مستعمرة .

وفي تلك الأثناء ظل عثمان دان توجو سلطاناً في بلاده وهي إقليم جوبير في منعطف نهر النيجر وما دخل في طاعته من البلاد شرقي النهر ، فلما توفي سنة ١٨١٨م تقاسم ملكه اثنان من أسرته هما أخوه عبد الله (يكتب وينطق

عبد اللاي) وابنه محمد بلو . فأما عبد الله فقد انفرد بالولايات الغربية من المملكة واتخذ لنفسه بلدة جاندو عاصمة . وأما محمد بلو فقد أخذ الولايات الشرقية ، وهي فتوحات عثمان دان فوجو شرقاً واستمر يحكم من سوكوتو عاصمة أبيه ، وقد تكشف محمد بِلُو عن رجل علم يؤلف في التاريخ والدين ، وقد بدأ تاريخه لمملكة أبيه بانكار كل ما كان للحوسّى قبل ذلك من أعمال ، بل أنه قضى على الوثائق والمؤلفات الخاصة بهم . وكان غرضه من ذلك القضاء على كل أثر للكفر في بلاده ، وفي سبيل ذلك أعدم أصولا ذات قيمة علمية كبيرة ، لأن كل ما ألفه الحوسّى عن أنفسهم قبل الإسلام كان مكتوباً بلغات وأقلام إفريقية صميمة .

ــ حمادو الشيخ :

كانت لفتوح عثمان دان فوجو في الغرب آثار عميقة على جماعات الفولا الضاربة في الغرب ، فقد أثارت حميتهم وحركت نفوسهم للدعوة للإسلام والتوسع في بلاد السودان ، وظهر من بينهم حوالي سنة ١٧٧٥م داعية مجاهد مرابط عظيم يسمى حمادو باري في منطقة الماسينا ، اشترك حمادو باري في جيوش عثمان دان فوجو التي قامت بفتح بلاد الحوشي . واشتهر أمره في بلاده وهي الماسينا حتى خشي أمره أميرها المسمى حمادي ديكو وهو من أحفاد أسرة ديارُه أو جادُه ، وكذلك خافه ملك بمباره وقاعدته في سيجو ، وأعلن الإثنان عليه الحرب ، ولكنه تمكن من دحر جيوشهما عند بلدة نوكوما سنة ١٨١٨م .

ومكافأة له على ذلك منحه عثمان دان فوجو لقب الشيخ وجعله أميراً على منطقة ماسينا ، فاستولى على جِنّة (جني) وتنبكت ومد سلطانه على جزء من بلاد البامباره ، وأنشأ لنفسه مدينة جعلها عاصمته وسماها حمد اللّاي أي الحمد لله .

وتمكن حماد الشيخ (أو حمادو سيكو بلغة القوم هناك) من تنظيم دولته تنظيماً دقيقاً ، فقسم هضاب الماسينا إلى ولايات ، وأقام على كل ولاية والياً لشئون الحكم وقاضياً لشئون القضاء ، وأنشأ مجلساً للحكم من أربعين شيخاً من المرابطين بالإضافة إلى ستين شيخاً آخرين من كبار المرابطين ، وجعل هذه الهيئة تركز السلطة العليا في البلاد .

أما في شئون المال فقد قرر ضريبة قدرها العشر على جميع حاصلات الأرض ، وقدر جباية قليلة على الماشية وأخذ الزكاة على المال بنصابها الشرعي ، وقدَّر على سكان كل ناحية ضريبة من الطعام تقوم بشئون أئمة المساجد وقَوَمَتِها وخدمها . وبهذه الأموال سيّر أمور دولته ودفع أرزاق جنده .

واتخذ خطوات عملية نحو إقرار السكان لإخراجهم من حالة البداوة إلى الاستقرار ، فأصدر أمراً بأن تنشيء كل جماعة منهم قرية تستقر فيها ، وأن يجعلوا في قريتهم سوقاً في يوم مقرر من الأسبوع ، وطلب من كل أهل قرية أن يحددوا حوز قريتهم ويقوموا باستصلاح أرضه وتجفيف مستنقعاته وإنشاء المساجد في القرى .

ونتيجة لهذه الإجراءات انتعشت البلاد ورخيت الأحوال ، فزاد إنتاج الملح وحَب الكولا في ناحية غينيا خاصة ، وتوافد التجار على البلاد من أوروبا ومصر حاملين شتّى البضائع المستحدثة ، وكثر الحرير المصري في الأسواق ، وقدم إلى البلاد الصناع وأهل الحرف من كل صوب ، وأصبحت بلاد الماسينا وامتدادها فيما يعرف بغينيا اليوم ملتقى الناس والقوافل والمتاجر ، وعمرت الطرق بتجار الفولا والبمبارة والديولا ، أصحاب ناحية كونج ، والحوسّى القادمين من نواحي بحيرة تشاد والتكرور من السنغال والمغاربة والطوارق والعرب .

وعلى هذه الصورة من الاستقرار والازدهار وجد الرحالة الأوروبيون

الأَوّل دولة الفولا في حوض النيجر عندما بدأوا يتوغلون في أراضي القارة مرتادين ومكتشفين على زعمهم(١) ، ومن أولئك المستكشفين رينيه كاييه الفرنسي الذي وصل إلى تنبكت سنة ١٨٢٨م بعد محاولات كثيرة لعبور الصحراء وقد زعم هذا الرجل أنه مصري هارب من الفرنسيين الذين كانوا قد دخلوا مصر إذ ذاك ، وأنه يريد العودة إلى بلده الإسكندرية وأنه يستجدي أهل الخير ليطعموه ويرشدوه على الطريق حتى يعود إلى بلده ، وكان كاذباً في ذلك إنما كان جاسوساً وعيناً للاستعمار .

وفي ذلك الوقت بالذات حفلت إفريقية بالمغامرين الأوروبيين الذين كانوا يجوسون خلال إفريقية للتعرف على أحوالها وإبلاغ بلادهم عما رأوا حتى تسارع إلى افتراسها ، وإذا كان رينيه كابيه قد نجح بعد أن وصل إلى تنبكت في العودة إلى المغرب الأقصى ثم إلى فرنسا حيث أذاع على الناس تفصيل ما رأى ، فإن مغامراً إنجليزياً آخر هو كلابرتون قد تشجع وقام برحلة مماثلة ولكنه قتل وهو في الطريق إلى تنبكت ، في حين أن مغامراً آخر يسمى لانج Lainge خرج من طرابلس سنة ١٨٢٥م ووصل بالفعل إلى تنبكت ، ولكنه لقي مصرعه في طريق العودة على أيدي رجال قبيلة الأروان . وقد ذكر رينيه كاييه في كتابه أن تنبكت خيبت رجاءه ، فقد كاد يجن للوصول إليها لما كان يسمع من غناها وكثرة الذهب ورخصه فيها ، فلما وصل وجد — كما قال — مدينة كثيرة الخراب فيها ست مساجد وبعض النخيل ، ولم يجد فيها إلا شجرة

---

(١) الحق أن من يسمون بالمستكشفين الاوربيين لم يكونوا مستكشفين ولا مخرجين الى النور بلادا كانت فى غيابات الظلام ، لان هذه البلاد كانت كما رأيت معروفة مكشوفة ذات حضارة ونظم وعلوم ، والذى فعله أولئك المستكشفون هو أنهم عرفوا الطريق اليها ودرسوا أحوالها تمهيدا لاعلان الحرب عليها وتدمير حضارتها ثم استعما رها .

واحدة قائمة بين الخرائب ، والسبب في ذلك أن البلد إذ ذاك كان تحت رحمة الطوارق ، فكانوا يجوسون خلالها ويحاصرونها ويقطعون الطرق إليها ويرهبون أهلها ويستولون على ما يقدرون عليه من أهلها من الذرة والعسل والأرز والأقمشة وما إلى ذلك .

وقبل أن يموت حمادو الشيخ سنة ١٨٤٥ م لقي في سنة ١٨٣٨ م حاجاً سودانياً هو الحاج عمر الذى كان له دور كبير في مصائر هذه البلاد قبل وقوعها في أيدي الاستعمار .

ـ الحاج عمـــــر :

لم يكن الحاج عمر من الفولانيين ولكنه كان من التكاررة ، وقد ولد في سنة ١٧٩٧م بقرب بلد بودور في إقليم الفوتافورو أي السنغال ، واسمه الكامل عمر سيدو تال ، وقد نشأ مسلماً ورعا ذا اتجاه ديني قوي ، فمضى من شبابه الباكر باحثاً عن الشيوخ في نواحي الفوتا تورو والفوتاجالون وهي حوض نهر غمبيا ، ولقي عثمان دان فوجيو في سوكوتو وحمادو الشيخ في حمد اللاي .

ثم ذهب إلى الحج ، وعاد ليصبح خليفةً الطريقة التيجانية في ناحيته ، وأخلص في العبادة وفي خدمة أهل الطريقة ، فارتفع شأنه بينهم وأصبح من أصحاب البركات أو ممن يمنحون البركة للناس ويستجاب دعاؤهم ويستطيعون نقل العلم من صدورهم إلى صدور الأتباع كما يقول مريدوه . وتمكن من توثيق روابطه مع زعماء المسلمين في بلد السودان ، فأهداه الكانمي امرأة تقية اتخذها زوجة ، وأهداه محمدِ بلّو اثنتين واحدة منهما من قرابته وأهل بيته .

وعلا شأن الرجل فثارت مخاوف زعماء البلاد ، فرأى أن الأصوب ليطمئن قلوبهم أن ينزوي في قرية صغيرة هي ونجيراي في موضع حصين في جبال الفوتاجالون .

وهناك تجمع حوله أنصاره ، وأخذت أعدادهم تزيد ، حتّى إذ أحس أن عددهم أصبح كبيراً جعل منهم جيشاً من التكاررة وهاجم مراكز الماندنجي أي الماليين وهاجم البمبارة سادة إقليم كَعَارْتَه وانتزع من أيديهم بلدة فيورو .

واجتذب اسمه ألوفاً كثيرة من الأتباع بسبب ما ذاع من تقاه وعلمه وتوفيق الله إياه ، فقرر الإستيلاء على كل حوض السنغال أي إقليم الفوتاتورو بجيش قوامه ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكنه لقي مقاومة من سكان الفوتاجالون ، فاستنجدوا بالفرنسيين ، فأرسلوا قوة من الجيش بالمدافع والبنادق ، فأوقفت تقدم جيوش الحاج عمر وردته عما كان يريد بعد معركة قصيرة عند قرية المدينة قرب كايس في السنغال .

واتجه الحاج عمر شرقاً ، ودخل بلاد البامبارا ، واشتبك معهم في حرب لقي فيها بعض الهزائم ، ولكنه انتصر في النهاية ، وتمكن من القبض على ملك بامبارا واستولى على بلدة سيجو ووقع في أسره أميرها وهو حفيد حمادو الشيخ فقتله .

ثم اتجه الحاج عمر نحو تُنْبُكت واستولى عليها وضمها إلى مملكته الواسعة التي شملت بلاد الماسينا والفوتافورو . ثم اشتبك في قتال مع أمير من أمراء الماسينا وانهزم وفر هارباً إلى الجبال سنة ١٨٦٤م واختبأ في مغارة ، ولكنه مات مختنقاً بالغازات المنبعثة من البارود الذي كان يطلق عليه أو الذي كان هو يدخره معه . وحاول أكبر أبنائه الحكم بعده ، ولكن أمره لم يستمر إلا بضع سنوات .

وكان الحاج عمر مسلماً ورعاً وتقياً صادقاً ، ومما يؤثر عنه أنه كان لا يدع صلاة تفوته حتّى أثناء المعارك ، فكان ينتحي جانباً ويصلي بينما السهام تَهِسُّ في أذنيه ورصاص البنادق يخطف من حوله ، وكان عادلا على الجملة في حكمه

ولكنه كان عنيفاً قاسياً مع خصومه ، وربما كانت هذه الخصلة من مستلزمات الرياسة والحكم في الظروف التي عاش وعمل فيها .

ولم يكن النظام الذي وضعه لدولته متيناً أو محكماً فكان رعاياه يطيعونه لهيبته وتقاه دون أن يفكر هو في تأييد هيئة الحكم التي أقامها بنظام محكم ، فلما خلفه ابنه أحمدو استمر يحكم في العاصمة سيجو وما حولها في حين خرج البامبارا عن حكمه ، وأسرع أخواه حبيبو ومختار بإعلان انفصالهم عنه وانضموا إلى الفرنسيين الذين كانوا إذ ذاك يتوغلون في البلاد . وتحرج مركز أحمدو في سيجو ففارقها مع نفر قليل من أصحابه واعتزل الدنيا في ناحية من نواحي بلاد الحوسى حتى مات سنة ١٨٩٨م .

وقام ابن أخ الحاج عمر يسمى التيجاني بأمر سيجو ، ولكن حروباً وقعت بينه وبين رئيس من رؤساء ماسينا يسمى بالبو وشيخ من شيوخ تنبكت يسمى البكائي . واستمر النزاع بين الثلاثة حتى وصل الفرنسيون في توغلهم في بلد السودان من مصب السنغال شرقاً ، فقضوا على الثلاثة ومدوا سلطانهم على شمال وادي النيجر فيما بين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٢ ميلادية .

ـ ســـــاموري :

وكان آخر من حاول إنشاء دولة إسلامية في السودان الغربي قبل الاستعمار الغربي رجلا من الماندنجي يسمى ساموري الطوري (توري) لافيا ، وقد ولد في وادي الباولي حوالي ١٨٣٥م وكسب أنصاراً كثيرين ، وكان مسلماً صحيح الإيمان ولكنه لا يصل في هذا إلى شأو الحاج عمر ، وعندما نهض بالأمر وأراد إنشاء دولة فيما يعرف الآن بجمهورية غينيا كان الفرنسيون قد رسموا خططهم لبسط سلطانهم على كل هذه البلاد ولهذا كانت حركته محكوماً عليها بالفشل من أول الأمر . ويذهب الفرنسيون في كتاباتهم إلى القول بأنه كان رئيس عصابة

لا رئيس دولة ، وأنه كان يحكم بالإرهاب ، فأي قرية لا تدفع له الإتاوة سلط عليها رجاله فنهبوها وأحرقوها ، وهذا كله غير صحيح لأن الذين كانوا ينهبون القرى ويحرقونها إذا لم تعطيهم مايطلبون وقد كانوا هم المستعمرين .

وقد صارع ساموري الاستعمار صراع الأبطال ، واتخذ لقب الإمام واشترى لجنوده البنادق من مخازن الإنجليز التي أنشأوها على السواحل . وتمكن الفرنسيون بما لديهم من المدافع من إرغام الإمام ساموري على الإنسحاب إلى مرتفعات غينيا ، وأخرجوا رجاله من ساحل العاج ، فاتجه نحو ما يعرف اليوم بفولتا العليا . وهناك وجد نفسه محصوراً بين القوات الفرنسية الزاحفة من الشرق وقوات فرنسية أخرى صاعدة من بلاد الموسِّي أو الموشِّي ، وقوات بريطانية كانت صاعدة مع مجرى النيجر ، فارتد ساموري إلى شمال ليبريا الحالية ، وطارده المستعمرون حتى وقع في أسرهم في سبتمبر ١٨٩٨م ، مع ابنه وزوجته فنفوهم إلى الجابون وهناك مات سنة ١٩٠٠م .

وبموت ساموري الطوري انتهى أمر الدول الإسلامية في السودان الغربي وورثها كلها الاستعمار ، وبدأ يمد لسلطانه ويثبته بالحديد والنار ، ولا يسع المتتبع لهذا التاريخ إلا أن يعجب بما قام به أهل السودان الغربي من المسلمين من جهود في سبيل إنشاء دولا قومية واسعة منظمة يرعاها رجال عظماء من الماندنجي والفولا والتكرور ، وقد رأينا فيما مضى أنها كانت دولا مجيدة أنشأها رجال عظماء لا يقلون عن طراز الأكابر من منشئي دول الأسلام ، ورأينا كذلك أن هذه الدول أنشأت لأهل السودان الغربي دولا مجيدة وحضارات زاهرة ، قضى عليها الاستعمار في زحفه . ولم يكتف بذلك بل اجتهد في تشويه سمعتها وسمعة رجالها حتى حسب الناس أن بلاد إفريقية عندما دخلها الأوروبيون كانت قبائل همجية من أكلة لحوم البشر . وأن الأوروبيين هم الذين أخرجوا هذه البلاد من تلك الظلمات إلى النور . ولكن الأوهام والأكاذيب تذهب

جفاء ولا يبقى إلا الحق وحده ، وها نحن نكشف عن أمجاد إخواننا الإفريقيين وما أنشأوا من دول وحضارات قبل أن تهبط عليهم لعنة الاستعمار .

والحق أننا مقصرون أشد التقصير في حق إخواننا أهل السودان الغربي الذين دخلوا الإسلام طواعية وعن إقتناع ، وتحمسوا له وعملوا على نشره في بلادهم وأنفقوا الأموال في استقدام أهل العلم والفقهاء إلى بلادهم لتوسيع آفاق العلم بالإسلام هناك ، حتى أصبحت غالبية أهل السودان الغربي حتى شمال ما يعرف الآن بالكونغو أو زائير بلاداً إسلامية ، وكان الإسلام ينتشر بين أهلها على مهل عندما فاجأهم الاستعمار الذي عمل بجد على وقف التقدم الإسلامي ، لأن الاستعمار الغربي في القرن الماضى قام على عمادين : الحرب والدين ، وإلى جانب الجندي الأوروبي الذي كانت مهمته تحطيم كل ما يجد في طريقه من معالم العمران المحلي الإسلامي في إفريقية ، لكي يقول بعد ذلك أنه دخل البلاد فوجد أهلها يعيشون في العصر الحجري فعمل على إدخال الحضارة في بلادهم.إلى جانب هذا الجندي دخل رجل الدين ليقضى على الإسلام وينشر المسيحية . وقد صدّق الناس هذه الأكاذيب أول الأمر ، وجاء وقت أصبحت هذه الأكاذيب وكأنها حقائق ، وارتسمت في أذهانهم صورة مُزرية للإفريقي قبل الاستعمار : صورة رجل عار متوحش يسير وفي يده حربة ليقتل من يقابله لا سيما الرجال البيض .

بل بلغ من إصرار أهل الغرب على هذه الدعوى أن غسلوا أدمغتنا من هذه الناحية حتى نجاريهم فيها ونرسم أهل إفريقية في هذه الصورة الظالمة ، بل أصبحت صورة الرجل الأبيض جالساً في إناء طبيخ كبير (قزان) ورجال سود عرايا يرقصون حوله وبأيديهم الحراب في انتظار أن ينضج الأوروبي المسكين فيأكلوه . أصبحت هذه الصورة مألوفة لنا ونقلناها في صحفنا .

والآن يتجلى لنا كذب ذلك كله ، فما كان أهل البلاد التي دخلها الإسلام

من إفريقية بهمج أو متوحشين أو أكلة لحوم بشر ، بل كانوا شعوباً ذات حضارات ودول ونظم ، وكانوا مسلمين منهم العلماء والفقهاء وبلادهم تزدان بالمساجد . ومن الأسف أن السود في الولايات المتحدة كانوا أنشط منا في العمل على تكذيب هذه الدعاوي ولديهم الآن كراسي الأستاذية في بعض الجامعات لدراسة تاريخ إفريقية قبل الاستعمار وأثناءه ، وما قصة « الجذور » لالكساندر هيلي إلا صدى لذلك الاهتمام ، ولعلك قرأتها لترى أن أجداد هيلي هذا كانوا مسلمين من الماندنجي ، أسره تجار الرقيق وباعوه في الولايات المتحدة .

● الاسلام فى السودان الأوسط

ـ الكانم والبرنو

يقصد بالسودان الأوسط النواحي المدارية الشاسعة الممتدة من الضفاف الشرقية للنيجر الأوسط حتّى منطقة بحيرة تشاد ، ثم المناطق التي تلي ذلك شرقاً حتّى دارفور ووادای وهي الجزء الغربي من السودان النيلي .

وسنتكلم هنا عن أربع مناطق قامت فيها دول إسلامية كبيرة هي منطقة الكانم والبرنو ثم منطقة الحوسَى المعروفة بالهاوزا ثم منطقة دارفور .

تقع منطقة الكانم والبرنوا حول بحيرة تشاد ، وهي بحيرة كانت واسعة المساحة غزيرة المياه في الماضي ، ولكنها تجف شيئاً فشيئاً ، وهي الآن مستنقعات تتخللها الجزر ، وفي وقت ليس بالبعيد ستجف هذه البحيرة تماماً وتصبح أراضيها مناطق زراعية .

وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في زمن مبكر مقبلا من إقليم فزان الذي فتحه المسلمون أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد نافع بن عبد القيس الفهري وهو زوج أخت عمرو بن العاص ووالد عقبة المشهور ، وفي خلافة يزيد بن معاوية سنة ٥٠هـ/٦٧٠م أعاد عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري فتح هذه البلاد وثبّت أقدام الإسلام فيها ثم انحدر جنوباً فأدخل في رحاب الإسلام إقليم كوار وهو إقليم يتكون من سلسلة من الواحات الصغيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب حتّى تصل إلى إقليم تشاد . وبسبب هذه السلسلة من الواحات

يصف الفرنسيون إقليم كوار بأنه دهليز واحات ، وهذا الدهليز جزء من جمهورية تشاد اليوم .

ويحتل إقليما فزان وكوار مكانة هامة بالنسبة لتاريخ إفريقية ، فهما يكونان معاً الطريق الأوسط الذي كان الناس يعبرون بواسطته الصحراء الكبرى ، وهي بحر الرمل الأكبر ، أما الطريق الشرقي فهو طريق وادي النيل : ينحدر الناس حتّى اسنا ، ثم من إسنا يمتد طريق الأربعين حتّى دارفور ووادي ، ومن هناك إلى منطقة تشاد والسودان الأوسط .

أما الطريق الغربي فهو يمر في أقصى غربي القارة محاذياً لساحل الأطلسي ، وبدايته من الشمال في سجليماسه ، ثم يعبر الناس الصحراء مسافة شهرين قريباً ومن الساحل معتمدين على آبار قليلة توجد على مسافات طويلة حتّى يصلوا إلى أودغشت وهي الباب الشمالي للسودان الغربي .

انتقل الإسلام إذن عن طريق فزان وكوار إلى السودان الأوسط ، وهناك قامت جاليات إسلامية من زمن مبكر ، وخلال العصر الأغلبي الذي امتد نيفا وقرنا من الزمان (٨٠٠ – ٩٠٩ م) في بلاد إفريقية (وهي تونس الحالية مضافاً إليها إقليم طرابلس وإقليم قسطنينية في الجزائر وكان يسمى إذ ذاك إقليم الذاب) نشط هذا الطريق وأخذ أهمية تجارية وسياسية ودينية خاصة . وكانت القوافل تشرع من القيروان إلى طرابلس ومن طرابلس إلى مرزق وكانت أكبر مدن فزان ثم بِلْما وهي أكبر واحات كوار ويسميها العرب كاوار وعندها تقوم أكبر مناجم الملح في تلك المنطقة ، ومن هناك إلى كوكا وهي عاصمة منطقة الكانم والبرنو في إقليم تشاد . وعندها أيضاً ينتهي الطريق الغربي الهابط من إسنا إلى دارفور ووادي ثم منطقة تشاد .

والحقيقة إن إقليم بحيرة تشاد وإقليمي وداي ودارفور كانت كلها تكون في الماضي السحيق إقليماً واحداً يظن أنه قامت فيه في القديم حضارة

ذات شأن ، فقد وجدنا عند سفح جبل أوري في دارفور آثار مدينة ذات أسوار يقوم فيها قصر كبير يظن أنه إما قصر ملك أو مركز تجاري للقوافل ، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن هذه المدينة ولكن المخلفات التي وجدت فيها آتية من كل نواحي دارفور ووادي وتشاد ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعيش في هذه المنطقة شعب عريق يسمى شعب ساو أو صاو .

ويظن أن دماء شعب صاو هذا لا زالت تجري في شعب الكانِم الحالي أو الكانمبو أو في شعب التوبو الحالي أيضاً الذي يسميه العرب كُنُوري ويسمي هو نفسه باسم ليدا . ولفظ كَنُوري معناه رجال الحصى ، وهم رعاة أتوا من ناحية جبال تِبِستّي ، وملامحهم ليست زنجية رغم سواد بشرتهم ، وهؤلاء التوبو لا ينسبون أنفسهم إلى العرب أو إلى السودان أو إلى البربر أو المصريين أو الطوارق ويغلب أنهم بقية سكان الصحراء الأصلاء الأول .

ولكن أقرب الفروض إلى الصحة أن التوبو فرع من البربر ، وفي أوائل القرن الحادي عشر وصل إلى إقليم الكانم شعب من الرعاة يظنّ أنهم من بربر الصحراء من أهل كوار انهزموا في الصراع مع أعدائهم فاتجهوا إلى الجنوب واستقروا شمالي بحيرة تشاد واختلطوا بمن وجدوا هناك من السكان ، وكان هؤلاء البدو مسلمين وقد تمكنوا من إقامة دولة لهم سميت أولا باسم الكانم ثم اسم البورنو ثم أصبحوا شعبين منفصلين ، واحد يعيش شمالي بحيرة تشاد وهو شعب الكانِم والثاني يعيش إلى غربها وهو شعب البُرنو ويصفهم رحالة العرب بأنهم أهل سيف أي أهل حرب وقتال ، وقد ظلوا يحكمون منطقة بحيرة تشاد ثمانية قرون بعد ذلك ولم ينته أمرهم إلا على أيدي الفرنسيين سنة ١٨٤٣ م .

ولابد عند الكلام على انتشار الإسلام في إقليم تشاد ووادي ودارفور من أن نقول كلمة عن قبيلة بربرية تسمى زغاوة – تكتب أحياناً زواوة

وزوارة ، هاجرت من موطنها الأولى في منطقة القبائل شرقي مدينة الجزائر الحالية ، وانتقلت إلى إقليم فزان ، ومن هناك تفرعت منها فروع اتخذت مواطنها في الصحراء شرق فزان وغربها ، وهاجرت كتلة كبيرة منها إلى إقليم واداي ثم دارفور ، وهناك اتخذت لنفسها مواطن جديدة . والغريب في أمر هذه القبيلة أن رجالها كانوا ذوي نشاط كبير في نشر الإسلام ، فما حلوا في ناحية إلا حوّلوا أهلها للإسلام ، وإلى هذا الحماس يرجع الفضل في انتشار الإسلام في نواح كثيرة من الصحراء وإقليم بحيرة تشاد ثم واداي ودارفور غربي السودان النيلي بصورة عامة .

وشاركت كذلك في نشر الإسلام في هذه النواحي جماعات كثيرة من البربر المهاجرة والسودانيين المتحمسين ومهاجرة العرب مثل عرب الشوا (تحريف للشاوية)(١) وأولاد سليمان الذين غادروا مواطنهم في فزان عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون ، ومن فروع الشوا في غربي السودان السلامات وخزام والجعاذنه والمحاميد والدكاكير .

وأول من نسمع عنه من ملوك هؤلاء القوم هو الملك حومي أو هومي الذي حكم بين سنتي ١٠٨٥ و ١٠٩٧ م وكان مسلماً وقد اتخذ لقب السلطان . وقد توفي وهو عائد من الحج إلى مكة . وخلفه ابنه دونامه وكان شديد التعلق بالإسلام حتى لمنه حج ثلاث مرات ومات في حجته الثالثة .

---

(١) الشاوية نسبة الى الشاة ، فهم رعاة الشياه والاغنام ، ولهذا يعرفون فى المصطلح العلمى لاجناس افريقية بالمرعاة الصغار Les peitis pasteurs أما رعاة البقر والجاموس والجمال والخيل فيسمون فى الجملة بالنفارة أو البجارة ، وهم كبار الرعاة Les grands pasteurs ويذهب ابن خلدون الى أن رعاة الابل لا يدخلون فى البقارة أو الشاوية ، وانما هم البـــدو الموغلون فى البداوة المتابدون فى الفقر ٠٠ انظر المقدمة (طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ١١٠ وما يليها) وآراء ابن خلدون هنا محل نقد كثير ٠

وبلغت الدولة أوجها في أيام سلطان يسمى دونامة أيضاً ويلقب باسم ديبالامي وقد حكم من سنة ١٢١٠ إلى ١٢٢٤م على قول ومن ١٢٢١ إلى ١٢٥٩م على قول آخر . وكان أبوه السلطان سيلما أول سلطان للكانم من أصل سوداني صريح . وقد أنشأ السلطان دونامة ديبالامي قوة كبيرة من الفرسان عدتها ٣٠،٠٠٠ فارس مكنت له من توسيع رقعة مملكته حتى وصلت إلى حدود فزان شمالا ومن واداي شرقاً إلى حوض النيجر غرباً ، وبسط سلطانه على شعب صُنْغَيْ ولم يكن هذا الشعب قد نهض بعد نهضته التي تحدثنا عنها . وفي أيامه نشطت التجارة مع مصر والمغرب نشاطاً عظيماً ، واتخذ سلطان الكانم لنفسه سفيراً مقيماً في القاهرة مهمته الإشراف على تنظيم قوافل التجارة والحج ولمعاونة تجار الكانم ، وفي سنة ١٢٤٢م أنشيء في الأزهر رواق خاص لطلاب الكانم ، وتولى السلطان النفقة على طلاب الرواق من ماله ، وكان لقبه الرسمي في مصر « ملك الكانم وسلطان البرنو » ، وبهذا اللقب ذكره القلقشندي في صبح الأعشى . وأنشأ دونامه ديبالامي علاقات مماثلة مع السلطان الحفصي في تونس ، وقد حدثنا عنه القلقشندي في صبح الأعشى حديثاً طويلا .

وفي عهد السلطان إدريس حفيد دونامه ديبالامي (١٣٥٣ – ١٣٧٦م) زار ابن بطوطة بلد الكانم ووصفه بالرخاء وامتداد الأمن ، ولكن الرحالة الألماني بارت Barth الذي زار السودان في أوائل القرن التاسع عشر يحكى أن أمر سلطنة الكانم ضعف بعد أيام إدريس وثارت عليها بعض شعوب السودان التي كانت خاضعة له مثل الصاو وهم سكان البلاد الأصليين والتوبو سكان جبال نبستي وقبائل المولالة الضاربة حول بحيرة فترى الصغيرة الواقعة جنوبي بحيرة تشاد . وقد عجز سلطان الكانم عن التغلب على البولالة ، وكذلك فشل ابنه عمر الذي يقال إنه حكم فيما بين سنتي ١٣٩٤ و ١٣٩٨ م . واضطر سلطان الكانم نتيجة لذلك إلى الانتقال من بلد الكانم إلى ناحية البرنو الواقعة

غربي بحيرة تشاد وعاصمتها كوكا ، وأصبح سلاطينهم يلقبون من ذلك الحين بسلاطين البرنو ، واستمر الصراع مع البولالة قرناً من الزمان حتّى تمكن السلطان إدريس كاتاكارمي من التغلب عليهم وإعادة سلطان الكانم عليهم من جديد ولكنه لم يتمكن من احتلال عاصمتهم . وقد حكم هذا السلطان فيما بين سنتي ١٥٠٤ و ١٥٢٦م .

وقد بلغت سلطنة البرنو أقصى قوتّها في عصر السلطان إدريس ألاَوْمَا الذي حكم في النصف الأخير من القرن السادس عشر ربما سنة ١٥٧١م إلى سنة ١٦٠٣م ، وقد اتصل إدريس هذا بوالي إيالة تونس التّركي وحصل منه على بنادق ومدربين . وبهذا السلاح الجديد تمكن إدريس من تثبيت سلطانه ومد رواقه حتّى شمال ما يعرف اليوم بالكمرون وبسط سلطانه شرقاً حتّى بحيرة فيتّري . وتمكن كذلك من التغلب على قبائل التوبو في جبال تبستّي ومد سلطانه على إقليم كوار واحتل عاصمتها بِلما وملَك مناجم الملح الشهيرة غربها . وقد قتل إدريس ألاَوْمَا في إحدى غزواته .

وصمدت سلطنة البرنو قرنين بعد ذلك ، ولكن الصراع الطويل مع البربر والطوارق أنهك قواها ، وانتهى أمرها بأن سيطرت عليها دول الحوسّى . وفي القرن التاسع عشر تعرض البرنو لهجمات الفولا . واضطر أحمد بن علي سلطان البرنو إلى الاستعانة عليهم بالقائد المشهور محمد الكانمي وكان يعيش في القاهرة . فأقبل وتولى الأمر ، ومن ذلك الحين أصبح صاحبَ السلطان في دولة البرنو وهو لم يعلن نفسه سلطاناً ولكنه اكتفى بلقب الشيخ الكانمي ، وأدار الأمور وولى السلاطين وعزلهم كما شاء من مقامه لنفسه في مدينة كاكا على الشاطيء الغربي لبحيرة تشاد . ولقب السلطان هناك يطلق على رئيس القبيلة أو الناحية .

وعندما توفي الشيخ الكانمي سنة ١٨٣٥م خلفه ابنه عمر وتولى السلطان

كله كما كان أبوه ، بينما ظل السلاطين مجرد رمز بلا سلطان أو حيلة . ثم إن عمر اتهم السلطان القائم إبراهيم أو إبرام بالتآمر عليه فقتله ، وتولى السلطان سنة ١٨٤٦ ووضع بذلك حداً لتاريخ أسرة سَيْف أو السَّيْفية التي ظلت تحكم تلك البلاد تسعة قرون .

وفي أيام السلطان عمر هذا وفد على بلاد البرنو نفر من رحالة الألمان الذين كانوا يجوسون خلال بلاد إفريقية المدارية طلائع الاستعمار والتدخل الأجنبي من أمثال بارث Barth وفوجل Vogel ورولفس Rolfs وناختيجال Nachtigal وفي التقسيم الاستعماري العام لإفريقية كانت هذه البلاد من نصيب الفرنسيين .

● بلاد الحوسى

الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير Air التي تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ومعناه في لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتتسع منطقة الحوسى حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالي نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشقها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوباً ، فإما تبددت في الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر وصارت فروعاً منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبي من هذه الجبال خصب وعامر بالخضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطوري الذي يقصه الحوسي عن أنفسهم يقول أن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير في القرن الحادي عشر الميلادي ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان واستقروا في ناحية جوبير من نواحي جنوبي الصحراء الكبرى شمالي نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة ١٠٤٦ ميلادية ، فإن بني هلال بن عامر بن صعصعه ومن صاحبهم من قبائل سليم بن منصور اجتاحوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبي برقة وطرابلس واندفعوا غرباً ، فتهاربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى

الغرب والجنوب ، وتوالى هذا التدافع حتّى وصلت الجماعات السودانية المهاجرة إلى الغابات الاستوائية ، ولا صحة للقول بأن القبائل البربرية الّتي اندفعت إلى الجنوب ودفعت أمامها غيرها كانت قبائل الطوارق ، لأن الطوارق في أصلهم شعب إفريقي قديم كان يعمر الصحراء الكبرى ، وقد ظلوا في مواطنهم حتّى دخلت الصحراء الكبرى خلال القرن الثاني عشر الميلادي بقايا قبائل صنهاجة الصحراء الّتي أقامت دولة المرابطين ثم انهزمت أمام الموحدين ، ففر من استطاع الفرار من بقاياهم ممن أبى الخضوع للموحدين إلى الصحراء ، وخاصة عندما احتدم الصراع بين الموحدين وبقايا المرابطين يقودهم بنو غَانِيّة المسوفيون . وكانت إحدى قبائل صنهاجة الصحراء هذه تسمى تارْجا أو تاركا هاجر بعضها إلى نواحي تلمسان في العصر المرابطي ، وبقي في الصحراء معظمها في مواطنهم الأولى في الصحراء الواسعة بين مجرى وادي درعة جنوبي المغرب الأقصى ووادي السنغال ، وامتدت منهم فروع ناحية الشرق وتفرقت في نواحي الصحراء الكبرى فأصبح الكارجيون أو التاركيون منتشرين في الصحراء انتشاراً واسعاً .

ــ الطــوارق :

فلما لحق بهم الهاربون أمام الموحدين من بني عمومتهم من بقايا قبائل صنهاجة الصحراء تزايدت أعدادهم وازدادت قوتهم ، وسادوا معظم الأقاليم الصحراوية القاحلة في قلب الصحراء الكبرى . وأصبح يطلق على هؤلاء الصحراويين جميعاً اسم تارجا أو تاركا وقد عرف هذا الاسم على طارقاً والنسبة إليه طارقي والجمع طوارق ، وهذا هو أصل هذا الشعب العريق القوي الذي يعمر الصحراء الكبرى ويعرف فجاجها شبراً شبراً ، وقد اشتهروا باللثام الذي يغطون به وجوههم ، وبملابسهم الزرقاء ، وهي من نسج أيديهم ويصبغونها بالنيلج وهو كثير في واحات صحراء مصر الغربية .

وقد طال الصراع بين الطوارق والفرنسيين ، وعجز هؤلاء عن سيادتهم فهادنوهم وهابوهم وسموهم بأمراء الصحراء الزرق .

والطوارق مسلمون فيهم شهامة وحمية ، وهم لا يعتدون على أحد ، وإليهم يرجع الفضل في المحافظة على إسلام الصحراء الكبرى ، فقد أراد الفرنسيون أن ينشروا المسيحية في بعض نواحي الصحراء وخاصة ناحية الهُقّار التي تسمى أهُجّار وأرسلوا إلى عاصمة هذا الاقليم ، وهي واحة تامنواست عدداً من الرهبان المبشرين اشتهروا باسم الآباء البيض Les Pères Blancs وانتشروا في الصحراء يبشرون بالمسيحية ، فلا زال الطوارق يلحون عليهم بالغزو حتى أبادوهم .

ونعود إلى الحَوْسَى فنقول إن إسمهم هذا ليس اسم جنس معين ، بل هو اسم لغة اشترك في الكلام بها عدد من القبائل المتكلمة بها ، فغلب عليها كلها اسم الحوسى ، وعدد الحوسى في أيامنا خمسة ملايين نسمة تقريباً ، وهم يعيشون في مواطنهم التي ذكرناها من شرقي حوض النيجر إلى حدود بلاد البرنو في الشرق .

وكانت للحوسى لغة تكتب بحروف خاصة ، وقد كتبوا بلغتهم كتباً كثيرة . وعندما غزت بلادهم قبائل الفولا في القرن التاسع عشر الميلادي قضوا على كل ما وجدوا من كتب الحوسى ، فضاعت بذلك وثائق كثيرة كان من الممكن أن تزيدنا علماً بهم .

وتحكي المأثورات الشعبية الحوسية قصة أسطورية عن أصل الدول السبعة التي تتألف منها بلادهم وهي كانو وكاتسينا وبيرام وزجزج (أوزاريه) وداور وزنقزه .

وأهم دول الحوسى هذه هي دولة كانو التي تقع اليوم في شمال جمهورية نيجيريا ، ولها تاريخ طويل كتب في القرن التاسع عشر على الأغلب ، ويحكى

هذا التاريخ أن أول ملك لكانو كان الملك باجودا ، وهو حفيد بطل أسطوي يسمى أبو يزيد يقال إنه قتل مسْخاً هائلا كان يعيث في البلاد فساداً على أيام ملكة تسمى دُودْرَه .

وقد دخل الإسلام بلاد الحوسى في القرن الرابع عشر الميلادي أثناء حكم ملكهم ياجي (١٣٤٩ – ١٣٨٥م) ، وقد أدخل الإسلام إليهم علماء ودعاة قدموا من بلاد مالي ومن بلاد البرنو ومن السودان النيلي . وقد اختلط الإسلام هناك بعناصر وثنية كما كان يحدث كثيراً في البلاد الإفريقية نظراً لقلة المعلمين أو لقلة علمهم .

وكانت كانو بلداً زاهراً غنياً بالتجارة والتجار . وكان تجار الرقيق يأخذون أحياناً رقيقاً من الحوسى عرفوا بالذكاء والاجتهاد والقـوة على العمل .

وفيما بين سنتي ١٥١٣–١٥١٦م خضعت كانو لأسْكيا محمد سلطان صُنْغَيْ . وقد توالت الغزوات على بلاد الحوسى ، فسادها الفولا لفترة من الزمن القرن السابع عشر وعلى أيديهم انتهى حكم أسرة ياجودا سنة ١٨٠٧ بعد أن حكمت كانو ثمانية قرون .

وقد اشتهرت من بين بلاد الحوسى كاتْسينا ، وينسب إنشاؤها إلى ولد من أولاد أبي يزيد يسمى كومايو ، وكانت تقوم بالحكم فيها قبل وفوده أسره أخرى تتزوج من بناتها واستقل بالملك في كاتسينا حوالي ١١٠٠م ، ولكن الأمر لم يدم في بيته طويلا ، لأن أسرة أخرى خلفته في القرن الثالث عشر وظلت تحكم هناك إلى القرن الثامن عشر .

وكانت كاتسينا مركزاً تجارياً هاماً إذ أنها كانت تقوم على طريق القوافل بين مصر ومالي ، وكان هذا الطريق يخرج من البهنسا في شمال الصعيد ويتجه

نحو واحة الفرافرة (الفرفرون) فالواحة البحرية (البحرين) ثم إلى سيوه (سنتريه) فَجَغْبوب فمُرْزُق ثم إلى غاتْ ومن ثم إلى مالي ، ولهذا فقد كانت هذه الدولة الحوسية تنافس كانو في الرخاء والنشاط .

وكانت بلاد الحوسى التي ذكرناها دويلات صغيرة أو كبيرة تقوم كل منها في مدينة يحكمها مجلس من مشايخها ويرأسه الملك المحلي . وقد دخل الإسلام هذه البلاد كلها من مالي على أيدي الماندنجي في القرن الرابع عشر . ومن هنا نفهم كيف تمكنت هذه الدول من إقامة التعاون فيما بينها للمحافظة على بلادها ودينها وهو الإسلام . وجدير بالذكر أن دول الحوسى أقامت نظاماً يشبه نظام الحكام الذي عرفته القبائل العربية في الجاهلية ، فإذا طالت الحرب بين دولة من دولهم وأخرى اتفق الطرفان على تحكيم واحد من الحوسى ممن اشتهروا بالحكمة ومعرفة القانون العرفي السائد بينها ، فيحكم بينهم ويرضون بحكمه . وعندما أسلم الحوسى ودخلت الشريعة السمحاء بلادهم أصبح الحكام من الشيوخ ذوي العلم والحكمة والفهم . وعندما دخل الانجليز نيجيريا وجعلوها مستمرة لهم لم يجدوا من شعوب النيجر أرقى أو أكثر حضارة من الحوسى بفضل الإسلام ، وأصبحت كانو من عواصم نيجيريا أيام الاستعمار وإن كان المستعمرون قد عمدوا إلى النهوض بمدينة أخرى من مدن نيجيريا قريبة من البحر تسمى لاجوس ، وهي من إنشاء البرتغاليين ، فقد كان البرتغاليون في القرن الخامس عشر يقيمون على السواحل الإفريقية حصوناً يستعملونها مخازن لبضائعهم ومراكز لصيد الرقيق السوداني وبيعه ، وكانت هذه الحصون تسمى باسم المصانع Feiturias وكانت منها لاجوس Lagos ومعناها البحيرات ومفردها لاجو Lago .

وإلى الحوسى والطوارق يرجع الفضل في المحافظة على الإسلام في نواح

شاسعة من نواحي إفريقية المدارية ، فأما الطوارق فقد حموا الصحراء وأما الحوسى فقد حافظوا على إسلام مناطق النيجر العليا ، وإلى غرب بلاد الحوسى امتدت بلاد الفولا أو الفولانيين وهم مسلمون ، وإلى شرقهم الكَنُوري أصحاب بلاد الكانِم والبُرنو فهذه أربعة شعوب مباركة دخلت الإسلام سلماً دون حرب ، وأقامت دولا وحضارات وحافظت على الدين في بلادها ونشرته في فجاج إفريقية المدارية والاستوائية .

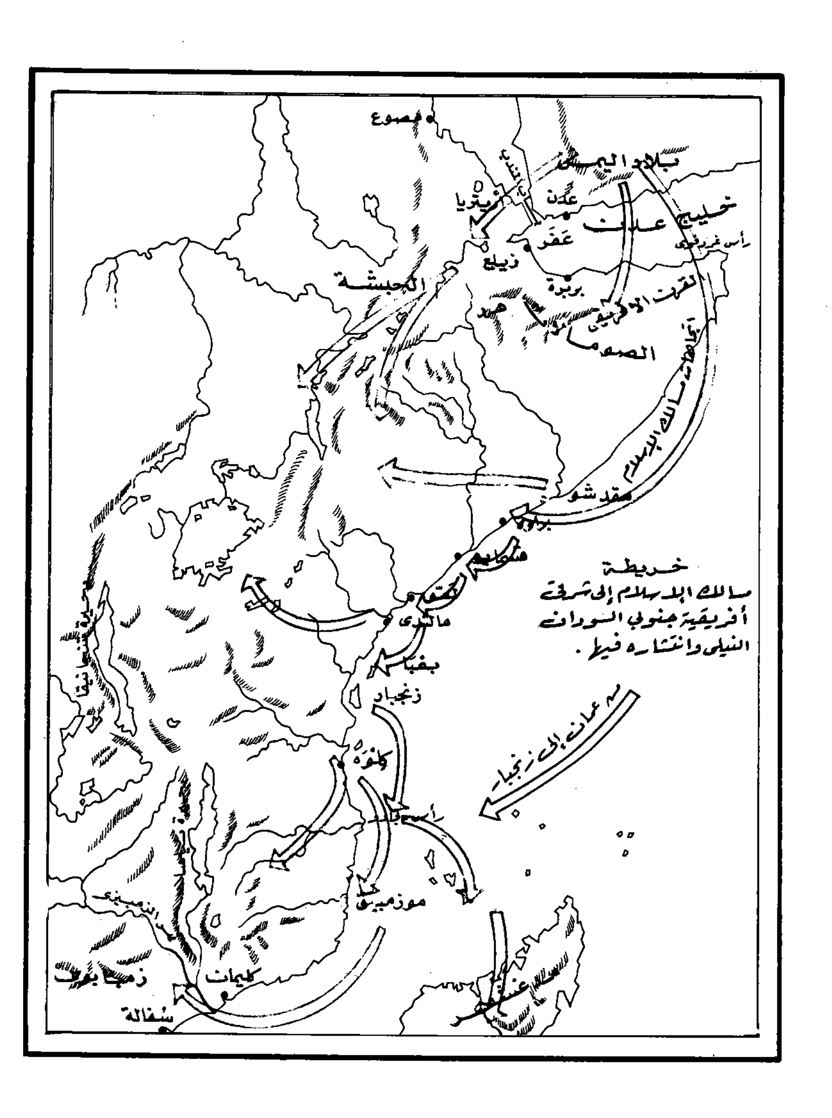
انتشار الاسلام في السودان الشرقي أو النيلي

كان معظم وادي النيل عند الفتح العربي لمصر مكوناً من بلاد مسيحية تمتد حتى منطقة الجزيرة المعروفة اليوم في جمهورية السودان ، وكانت هذه البلاد المسيحية تبدأ بمصر نفسها ، وتليها جنوباً في منطقة النوبة أو وادي حلفا مملكة النوبة أو نوباتيا كما تسمى في النصوص اللاتينية ، وكانت مملكة النوبة تمتد من جنوبي أسوان عن تافَة إلى مدينة ماما الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل ، وتقابلها على الضفة الغربية المدينة التي سماها العرب باسم المقس الأعلى .

وتلي مملكة النوبة جنوباً مملكة مَقُرَّه ، وتمتد جنوباً حتى الأبواب أو الكَبُوشيّة جنوبي ملتقى النيل بنهيره العطبرة أو الأتبره .

وبعد ذلك إلى الجنوب كانت تقوم مملكة مسيحية ثالثة تسمى عَلْوَه ، وتصل حدودها الجنوبية إلى جنوبي مدينة الخرطوم بقليل . وما يلي ذلك جنوباً كانت بلاداً وثنية يعيش أهلها على الفطرة .

ولم تكن مسيحية هذه البلاد واضحة المعالم أو عميقة الجذور ، إنما اقتصرت المسيحية في الغالب على البيوت الحاكمة ، وقد أوصلها إليهم رهبان مصر في العصر البيزنطي عندما اشتد أباطرة الروم في اضطهاد الأقباط لإرغامهم على ترك مذهبهم اليعقوبي الذي تمسكوا به والدخول في مذهب الملكانية وهو المذهب الذي اختاره وأقره أباطرة دولة الروم ، وأرادوا فرضه على الناس ، فنفروا منهم وكان الاضطهاد وكانت المذابح ، ومن هذه المذابح فر نفر من الرهبان إلى الجنوب أو إلى الصحارى ، وفي كل مكان هربوا إليه أنشأوا الأديرة . وإلى هؤلاء الرهبان يرجع قيام الممالك المسيحية التي ذكرناها .


مصوع
بلاد اليمن
عدن
خليج عدن
رأس غردفوي
زيلع
عفر
بوبرة
الحبشة
الصومال
مقدشو
خريطة
ممالك الإسلام في شرقي أفريقية جنوبي السودان النيلي وانتشاره فيها.
ماليندي
بمبا
زنجبار
كلوة
موزمبيق
زمبابوي
سفالة

وكان دخول الإسلام مصر رحمة لأهلها وراحة لهم من ظلم الروم ، وكان رئيس المصريين هو المقوقس الذي خاطبه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم « عظيم القبط » أي رئيس المصريين ، وكان المقوقس رجلا مصرياً أصيلا ، وهو ليس قيرُس ممثل دولة الروم كما ظن المؤرخ بطلر(١) . وكان للمقوقس أخ يسمى بنيامين كان بطريق القبط ، واضطهده الروم ففر منهم ، فلما دخل العرب مصر أمن لهم وعاد إلى كرسيه وسماه العرب أبا ميامين . واسم المقوقس تسمية عربية لهذه الشخصية ، وقد عرفه بها من دخل مصر من العرب قبل الإسلام مثل عمرو بن العاص وحاطب بن أبي بلتعه ، وهي مشتقة من لفظ قَس .

وكانت النوبة أو نوباتيا معتبرة من الناحية الحضارية امتداداً لمصر في الجنوب ومن الناحية السياسية كانت منطقة انتقال بين مصر وبقية وادي النيل جنوباً ، وعندما قام عبد الله بن سعد بن أبي السرح بحملة على النوبة سنة ٣١هـ/٦٥٢م وعقد معاهدة البقط(٢) مع صاحب النوبة أصبحت النوبة بالفعل امتداداً جنوبياً لمصر الإسلامية وحليفاً دائماً لمصر ومجالا لنشاط أهلها التجاري ، وبالفعل لم تكن توجد بين مصر والنوبة حدود فاصلة كان تجار البلدين والسفار من الجانبين يعبرونها دون تعقيد . وقد نشأت في النوبة جالية إسلامية حول المسجد الذي أقامه عبد الله بن سعد في دنقلة وتعهد ملك النوبة بالعناية به في معاهدة البقط التي عقدها مع المسلمين . وقبيل توغل عرب الكنز في النوبة

---

(١) الف بطلر Battler كتاب فتح مصر ، وترجمه الى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وعن هذه الترجمة أخذ كل المؤرخين العرب القول بأن قيرس Cyrus هو المقوقس حتى أبطلنا نحن هذا القول فى دراسة لنا وقد نشرت فى القسم الاسلامى من كتاب جامع عن الحضارة المصرية .

(٢) تعريب للفظ Pactum اللاتينى بمعنى المعاهدة .

وقضائهم على النصرانية في النوبة كان الإسلام قد عم أهلها حتى ليمكن القول إن مصر امتدت جنوباً حتى المقس الأعلى . ويفهم من نص الصلح المعروف بالبقط الذي عقده عبد الله بن سعد مع ملك النوبة أنه شمل مملكة مَقُرَّه أيضاً ، فهو يقول « لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض عَلْوَه » والمراد فيما نعتقد أن هذا العهد شمل مملكة مقرة أيضاً على اعتبار أنهما مملكتان مسيحيتان متجاورتان تستطيعان معاً التعهد بمراعاة الصداقة مع المسلمين وعلوة كانت تقع إلى جنوبي مقرة ، ولهذا كان الكثيرون من كتاب المسلمين يطلقون لفظ النوبة على نوباتيا ومَقُرَّه معاً .

وعلاقات العرب وبلاد النوبة وما يليها جنوباً قديمة جداً ترجع إلى ما قبل الإسلام بكثير ، فقد كان التجار من اليمن يعبرون البحر الأحمر باستمرار وتستقر جماعات منهم في مواقع شتى من حوض النيل . وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحِمْيَريون على وادي النيل الأوسط . وقد خلفت هذه الحملات جماعات من اليمنيين استقرت في أرض البُجَة أو البُجاه وبلاد النوبة ، وتذهب بعض الروايات إلى أن الغارات وصلت بلاد المغرب بقيادة شخص أسطوري يسمى أفريقسُ بن أبرهة ذي المنار ملك حمير ، ويزعمون أن إفريقية (وهي تونس) سميت بهذا الاسم نسبة إلى أفريقس هذا ، وهذه مجرد أسطورة طبعاً لأن اسم أفريقية Africa مشتق من اسم قبيل من الناس كانوا يسكنون غرب ما يعرف اليوم بتونس إلى الغرب من قرطاجنة ويسمون باسم أفري Afri ، فسميت البلاد خارج قرطاجنة باسم Africa نسبة إليهم ، ثم انسحب الاسم على القارة كلهـــا .

وكذلك هاجرت جماعة من الحضارمة في القرن السادس الميلادي

إلى بلاد البُجَه على ساحل البحر الأحمر واختلطوا بهم ونشأت عن هذا الاختلاط جماعة تمكنت من الوصول إلى الحكم عرفت باسم الزنافج . وقد انتقل هؤلاء الزنافج فيما بعد إلى الجنوب وأسسوا مملكة البَلَو التي عرفت باسم مملكة بني عامر في إقليم طوكَر .

كذلك كان تيار الهجرة العربية إلى مصر عن طريق سيناء مستمراً طول العصور القديمة ، وكانت هجرتهم تتم أحياناً في صورة عدوان خطر كما حدث في غارة الهيكسوس أو الرعاة ، وكان فراعنة مصر يجتهدون في إيقاف هذه الهجرات واتقاء شر عدوان القبائل الصحراوية على الوادي ، ولكن هذا التسرب كان مستمراً ، يذكر ابن خلدون أن الكثير من بطون قضاعة ، هاجروا إلى سيناء وصحراء مصر الغربية واستقروا فيها ، ويذكر بصورة خاصة قبيلة تسمى الضجاغِم وذكر القلقشندي من عرب سيناء بطوناً من جهينة وبلى ، وكان هؤلاء العرب يستقرون شرقي الدلتا ثم ينساحون جنوباً ويختلطون بأهل مصر ويصلون إلى بلاد النوبة ويختلطون بهم . وقد زادت هجرة العرب إلى مصر وانتقال جماعات منهم إلى بلاد النوبة بعد الإسلام كما سنرى ، وادي ذلك إلى انتشار الإسلام في النوبة (أي نوباتيا) وبلاد مَقُرَّه أي حتى سُوبَا على النيل الأزرق جنوبي الخرطوم الحالية ، والحق أن الكلام عن أن بلاد النوبة ظلت مسيحية إلى القرن الرابع عشر الميلادي كلام لا يطابق الحقيقة ، لأن الحقيقة أن الذين ظلوا على المسيحية هناك هم أفراد البيت المالك ونفر من كبار رجال الدولة ، أما بقية النوبيين فقد دخلوا الإسلام جماعة بعد جماعة كما ذكرنا ، وأكثر ما ساعد على ذلك موقف المسلمين المرن من أهل النوبة ، فهم لم يعتبروهم أعداء يواصلون حربهم فيؤدي ذلك إلى تشددهم في التمسك بالمسيحية وإنما عقدوا معهم عقداً هو أشبه بالحلف وإن كان لا يفرط في سيادة المسلمين . وقد أحسن البلاذري عندما قال : « ليس بيننا

وبين الأساود عهد ولا ميثاق ، إنما هي هدنة بيننا وبينهم) (١) .

ــ بلاد البُجَة : جزء من دولة الاسلام:

البجة شعب ينسب إلى أصل حامي كانوا ــ ولا يزالون ــ يسكنون النواحي الجبلية من حد أسوان إلى ما يقابل جزر دهلك عند مُصَوّع على ساحل البحر الأحمر . وهم كالنوبيين والأحباش جنس أسمر اللون يمتاز بالذكاء والنشاط والقدرة على التجارة ، وهم مشهورون بالشجاعة في الحرب ، وهم ليسوا ثمرة اختلاط بين البيض والسود كما يظن ، بل هم جنس قائم بنفسه لا نعرف على وجه التحقيق أصله . وهم من الناحية الحضارية استمرار لمصر في الجنوب ، ومركزهم الحقيقي هو ساحل البحر الأحمر قبالة النوبة ، فقبائلهم تروح وتغدو دائماً أبداً إلى مواطنها في مصر ، وهم كانوا حَمَلَة التجارة المصرية إلى الجنوب وقد زادت هذه الصلة بينهم وبين مصر بعد الفتح الإسلامي ، فكثر دخول المسلمين من مصر عبر البحر الأحمر إلى بلادهم .

وفي أول الأمر لم يجد ولاة مصر من العرب ما يدعو إلى غزو بلاد البُجَة وإخضاع بلادهم الواسعة إلى الحكم الإسلامي إخضاعاً مباشراً ، ولكن توالى عدوانهم على ناحية أسوان ونهبهم أراضيها اضطر الخليفة المأمون إلى إرسال حملة لحربهم يقودها والي مصر عبد الله بن الجهم في سنة ٢٣١ / ٨٤١ ، فقام بغزو بلادهم واضطرهم إلى توقيع معاهدة خضوع للخلافة ، وكان رئيسهم إذ ذاك يسمى كنون بن عبد العزيز . وبمقتضى هذة المعاهدة أصبحت بلادهم ملكاً للخليفة وأهلها بما فيهم رئيسهم رعية لأمير المؤمنين ، وفُرض عليهم

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : طبعة أوربا بتحقيق دى خوبة·لايدن سنة ١٨٦٦م،وقد اعتمد البلاذرى فى هذا القول على يزيد بن أبى حبيب وهو من سبى النوبة وكان يعيش فى مصر ·

الخراج وفُتحت أبوابهم للمسلمين دون قيد أو شرط . ونزحت إلى بلادهم جماعات من العرب وخاصة من بَلِي وجُهَينة . وفي نهاية القرن السابع عبرت البحر الأحمر إلى بلاد البجة جماعات من هوازن عرفت بالحلافقة ، انتقلت فيما بعد إلى ناحية تاكا في السودان .

وفي منتصف القرن الثامن الميلادي لجأ إلى بلاد البجة نفر من بني أمية هاربين أمام العباسيين ، وسيكون لأولئك الأمراء شأن في السودان فيما بعد ، ثم إن علماء الآثار وجدوا قبوراً إسلامية على ٧٠ كيلو متراً غربي سواكن يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي .

وكان العرب يتسربون أيضاً جماعات إلى أرض النوبة ويستقرون فيها دون أن يمنعهم ملوكها من النصارى ، ولكن ذلك لم يمنع ولاة مصر ، وولاة الصعيد الأعلى من الإصرار على ضرورة أخذ الضريبة التي قررها البقط من الجزية النوعية والعبيد ويبدو أنهم كانوا يرون في أداء هذه الجزية توكيداً لطاعة النوبيين لدولة الإسلام . وقد حاول ملك النوبة زكريا بن يوحنس في أيام المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٣م) التخلص من سيادة المسلمين بتحريض من ابنه « قيرقي » وهو جورج في لغة اليوم وجيْور جيْيوس في لغة الرومان وجاورْ جيْيوس في لغة الأقباط ، ولكي يكون زكريا على بينة من أمره قبل أن يدخل في حرب مع المسلمين نصح ابنه بالذهاب إلى بغداد ليتعرف على حقيقة قوة المسلمين ، فلما ذهب بهره ما رأى من جند الخلافة وما شاهده من فخامة البلاط وغنى بغداد . وكان ذلك أيام المعتصم . وقد لقيه قيرقي وحظي بإكرامه ، واتفق معه على أن يدفع بقط سنة واحدة كل ثلاث سنوات ولكن المعتصم رفض أن يزيل المَسْلَحَة – أي القاعدة العسكرية – التي أقامها المسلمون في مدينة القصر .

ومن أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي بدأت تظهر للعرب أهمية مناجم الذهب في وادي العلاقي ، وكان البجة لا يعيرونها كبير أهمية ،

فزاد إقبال العرب على هذا الوادي الذي يقع في الطريق بين أسوان وميناء عيذاب خاصة وقد تبين وجود مناجم لحجر الزمرد بها ، فأصبحت الناحية تعرف بأرض المعادن وكثر توافد الناس عليها واشتهر أمرها .

وعندما أسقط العرب من الديوان أيام المتوكل ٨٤٧ / ٨٦١م ثارت نفوس زعماء العرب ، خاصة وقد بدأ الخلفاء يولون على الولايات رجالا من الأتراك ، وعمد ابن المدبِّر والي مصر إلى فرض إتاوات كبيرة على العرب ، فثاروا مرة بعد أخرى وانهزموا أمام الجند التركي ، وزج بالكثيرين منهم في السجن . وأمام هذه الظروف أخذت جماعات منهم تهاجر إلى الجنوب ، وعندما أعد أحمد بن طولون حملة لغزو البلاد النوبية – طامعاً في أرض المعادن – انضم إليها عرب كثيرون معظمهم من ربيعة وجهينة ، وقد قاد هذه الحملة مغامر عربي كبير واسع الطموح هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العُمَري .

تقدم العمري بمن معه حتى وصل إقليم شنقير (أبو حمد) ماراً بمنطقة الذهب في العلاقي ، وقرب شنقير اكتشف مواقع جديدة للتبر وتغلب على قوات الملك قيرقي وأنشأ لنفسه ورجاله مركزاً دائما على النهر ، وهناك قام قتال بينه وبين جماعات من العرب من سعد العَشيرة وقيس علان كانت تسكن قريباً من هناك ، فانهزم إلى الشمال ، ولكنه تمكن من مد نفوذه شرقاً حتى عيذاب وشمالا حتى أسوان ، وعمرت هذه الناحية برجاله عماراً واسعاً . وخاف أحمد بن طولون من أن يمد العمري سلطانه إلى مصر ، فأرسل جيشاً لمحاربته فانتصر على الجيش وأوغل شمالا حتى ادفو سنة ٨٦٩م . ثم عاد إلى منطقة المعادن . ثم وقع خلاف شديد بينه وبين جماعات من عرب رُبيعة مُضَر كانت ضاربة هناك ، وفي أثناء المعارك قتل العمري على يد رجل من مضر ، وانتهت بذلك مغامرة هذا الرجل الذي ولد في المدينة المنورة ثم هاجر إلى مصر واشتغل بالتعليم ثم تحول إلى محارب مغامر .

وكان نفر كبير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم قد استقروا حول أسوان . فلما مات العمري وقعت بينهم حرب شديدة للسيادة على منطقة المعادن في العلاقي ، فانتصر في الصراع فخذ من ربيعة و انفردوا بأرض المعادن و صاهروا البجة واختلطوا بهم وقويت شوكتهم بهم .

ويفهم من كلام طويل للمسعودي في « مروج الذهب » أن الإسلام عم جماعات البُجة نتيجة لكثرة نزول العرب بلادهم واختلاطهم بهم ، وكان معظم أولئك العرب من ربيعة فاشتد ساعدهم بالبجة ،فتمكن أمرهم بأرض المعادن في العلاقي وكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم ، واختطوا لأنفسهم قرية تسمى النّماس في بلاد المعدن وحفروا الآبار وعملوا على نشر الإسلام في بقية بلاد البجة حتّى وصل الإسلام إلى جزيرة سواكن فاعتنق أهلها الإسلام وعرفوا باسم الحاسة .

وفي نفس الوقت كانت جماعات أخرى من عرب قحطان وربيعة وقريش قد مكّنت لنفسها في منطقة أسوان ثم امتدت حتّى احتلت نواحي كثيرة في إقليم مُريس والمراد بها شمالي النوبة ، و نشرت الإسلام بين أهلها ، وبانتشار الإسلام هناك انقطعت صلة الرق التي كانت تربط الرعايا بالملوك في النوبة وأصبح أهل النوبة أحراراً بفضل الإسلام . وتحولت هذه المنطقة إلى بلاد إسلامية ، ولم يبق خارجاً عن نطاق الإسلام إلا أهل مَقُرّة الأصليين الذي يسكنون جنوبي الجنادل القافية . وكذلك دخلت في نطاق الإسلام كل بلاد البُجة حتّى مصوع . وقد تم ذلك خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي .

وقد اجتهد الفاطميون أول استقرارهم بمصر إلى مهادنة عرب شمال السودان والبجة ، وفي تلك الأثناء تمكن زعيم من عرب ربيعة من إنشاء امارة قبلية في أسوان ومد نفوذها في إقليم مُريس وهي أرض النوبة القديمة المعروفة

باسم نوباديا أو نباته ، ثم وقعت فتنة بين عرب ربيعة أنفسهم قتل فيها رئيسهم أبو مروان بشر بن اسحق فخلفه ابن عمه أبو عبد الله محمد بن علي المعروف باسم أبي يزيد اسحق ، فسكنت الفتنة ، ومد أبو يزيد بن اسحق سلطانه حتّى خضعت له كل النوبة القديمة ، وفي حكمه اختلط النوبيون بالعرب وأصبحت النوبة عربية نوبية . وتحالف آل أبي يزيد اسحاق سيد ربيعة النوبة مع الفاطميين وعاونهم في القبض على أبي رِكوة وهو أمير أموي أندلسي هاجر إلى برقة واجتذب حوله أنصاراً كثيرين فأراد الانفراد ببرقة فبادر الفاطميون لحربه واستعانوا في ذلك بأحد أحفاد أبي يزيد ويسمى أبا المكارم في القبض على أبي ركوة وقتله سنة ١٠٠٩م فلقّبه الخليفة الحاكم بكنز الدولة وأصبح هو وأفراد بيته يسمون ببني الكنز أو الكنوز و هم من ربيعة و لا زالوا إلى الآن في منطقة أسوان ومنازلهم تمتد إلى كِرُشكو .

فلما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية وأقام الدولة الأيوبية سنة ١١٧١م سارت علاقاته أول الأمر سيراً طبيعياً مع الكنوز ، ثم طمع في أرضهم ووقعت حروب بين الكنوز وصلاح الدين وانتهى الصراع بنزوح الكنوز نهائياً عن أسوان واستقرارهم في بلاد النوبة واختلاطهم بأهلها اختلاطاً تاماً ، ويعتبر هذا إيذاناً بتحول النوبة كلها إلى أرض عربية بالفعل ، وكان ذلك أيام السلطان العادل أخي صلاح الدين الأيوبي ووارث سلطنته .

ـ المسلمون يقضون على مملكة مقرة المسيحية :

تقع فرضة عيذاب تجاه مدينة قسطل الواقعة على النيل في أرض مريس إلى شمال النوبة ، وميزتها الكبرى أنها تقع قبالة جدة من أرض الحجاز .

ويرجع السبب الأكبر في انتعاش عيذاب في ذلك الوقت ، وهو النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي إلى توافد الناس إلى أرض المعادن في وادي

العلاقي من ناحية ، وإلى سيطرة الصليبيين على سواحل الشام وقطعهم طريق البر من مصر إلى الحجاز ، فاتجه الحجاج والتجار المصريون والمغاربة والأفارقة من القاهرة إلى قوص ثم إلى أسوان ثم إلى المُحَرَّقة في أرض النوبة . ومن هناك يبدأ واد يخترق الصحراء الشرقية استخدمه الناس طريقاً للتجارة والمواصلات . وهو يشق أرض العلاقي وينتهي عند عيذاب .

ومن أوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أصبحت عيذاب هي ميناء مصر الرئيسي على البحر الأحمر ، ومنها يبحر الناس إلى جدة . ومع أن عيذاب تقع في بلاد البجة أو البجاه إلا أن سلاطين مصر أيام الأيوبيين وضعوا أيديهم عليها ، وأقاموا فيها والياً مسئولا عن الميناء ووادي العلاقي . واعتبرت الإدارة الأيوبية ثم المملوكية رؤساء البُجة مسئولين عن أمان هذا الطريق ، وسمحوا لهم في نظير ذلك بالحصول على نصف المكوس التي كانت تُجْبَى على المبحرين من عيذاب إلى جدة .

وكانت هناك أجرة مقررة يدفعها المسافرون إلى مكة بالإضافة إلى ضريبة خاصة لشريف مكة ، فلا يؤذن لحاج بدخول السفينة إلا إذا أدى الضريبتين معاً للربان ، فلا ينزل الرجل إلى الأرض في جدة إلا إذا دفع الربان ضريبته لرجال الشريف . ويقرر الرحالة والجغرافيون ومنهم ابن حوقل والإدريسي وابن جبير وابن بطوطة أن البُجة نجحوا في تأمين الطريق والميناء حتى أصبح من أأمن الطرق في بلاد المسلمين . وقال ابن جبير أن المسافر لو ترك متاعه على الطريق وغاب عنه لم يمسه أحد حتى يعود صاحبه ويأخذه . ولا عجب في ذلك فقد عرف البجاة بالأمانة ، ولا زال خلفاؤهم وهم البِشارية مشهورين بذلك .

وقد زاد سلطان المماليك على عيذاب مع الزمن ، فكانوا يختارون لولايتها رجلا من خيرة رجالهم ، نظراً لما كانت تدره عيذاب من الأموال . وفي أيام

السلطان ركن الدين بيبرس نجد دولة المماليك تصل جنوباً حتى تصل إلى سواكن سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م وتصبح هذه المنطقة كلها جزءاً من سلطنة مصر والشام . ونتيجة لسيطرة المماليك على هذا الميناء ـ عيذاب ـ ووصول سلطانهم إلى سواكن أصبحت مملكة مقره تحت رحمة المماليك والمسلمين .

وقد حاول داوود ملك جنوب النوبة ـ أي مَقُرة ـ الفكاك من ضغط الإسلام على بلاده فقام في سنة ٦٧١هـ /١٢٧٢م أيام السلطان بيبرس بالإغارة على ثغر عيذاب فتحركت السلطنة المملوكية لدرء هذا الخطر ، وأرسل بيبرس جيشاً قوياً سنة ٦٧٤هـ/١١٧٦م للرد على عدوان داوود وتمكنت القوات المملوكية من احتلال دنقلة وطرد داوود وتعيين رجل آخر من بيته يسمى سَكَندَه أو شَكَندر (وهو اسكندر) ملكاً على بلاد النوبة ووقع سكندر مع ممثلي السلطنة المملوكية وثيقة أقر فيها أنه تابع لسلطان مصر وأن مملكته جزء من سلطنة المماليك وقبل شكندر كذلك أن يؤدي لسلطان مصر نصف دخل بلاده من الجبايات ، ولهذا فإن هذا التاريخ (٦٧٤هـ/١١٧٦م) يعتبر حاسماً في تاريخ وادي النيل وتحوله إلى الإسلام . ومن ذلك الحين أيضاً نجد أن التقاسيم الإدارية المملوكية تشمل بلاد النوبة على اعتبار أنها جزء من مصر .

وقد حاول بعض ملوك النوبة بعد وفاة بيبرس استعادة استقلالهم ، ولكن السلطان قلاوون واصل تقليد بيبرس وأولى بلاد النوبة كل اهتمامه . وطال الصراع بين قوات المماليك وملوك دنقلة وخاصة سمامون المسمى أيضاً كامون ، وفي سنة ٦٨٥هـ/١٢٧٨م أرسل قلاوون حملة كبرى ضم إليها محاربين من قبائل العرب النازلة في إقليم قوص وما يليه جنوباً وأهمها أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبني هلال ، وتولى قيادة الحملة رجل من أكابر قواد قلاوون وهو الأمير سنجر المسروري المعروف بالخياط يساعده الأمير عز الدين أيوب السيفي السلاح دار متولي قوص أي

حاكمها ، وقد تمكنت هذه الحركة من القضاء على سمامون واحتلت دنقلة بصورة نهائية ، وأقام قلاوون الأمير أيدَمر حاكماً مقيماً في دنقلة ، وأقام أميراً نوبياً يسمى سعد الدين ملكاً على النوبة تحت إشراف أيدمر .

وهذه الحرب لا تعني أن المسلمين أدخلوا الإسلام في النوبة بالسيف ، لأن معظم أهل النوبة قد أسلموا فعلا ، ولم يبق على المعارضة إلا بقايا البيت المالك السابق وبعض أنصاره ، وكان هؤلاء يريدون أن يستعيدوا السلطان ليضعفوا المسلمين ويضطهدوهم ، فتدخل سلاطين المماليك حماية للإسلام ، وسنرى مصداق ذلك فيما يلي من هذا الحديث .

ولم تكن هذه نهاية الصراع بين المماليك وبقايا المسيحية في مقرة بل توالت حلقاته ومن الواضح أن المماليك شعروا بأنه لا بد من تحويل السودان كله إلى بلد إسلامي ما دام أهله قد أسلموا حتى تأمن مصر ويأمن السودان أيضاً ، فلجأوا في أثناء الصراع إلى طريقة تدل على ذكاء ، وهي أخذ المعارضين وخاصة الأمراء وزعماء القوم أسرى إلى القاهرة وإسكانهم في قلعة الجبل وإكرامهم والتودد إليهم وتحبيب الإسلام إليهم ، فكان الكثيرون منهم يستجيبون للدعوة ويصبحون أنصاراً للإسلام ومن هؤلاء ابن أخت الملك داوود وهو أمير تربى في مصر وأسلم وتسمى سيف الدولة عبد الله برشِمْبو النوبي .

فلما استوثق الناصر محمدبن قلاوون من إسلامه اختاره ملكاً على النوبة سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م ، وأرسله مع قوة عسكرية يقودها الأمير ايبك جهارك عبد الملك إلى دنقلة . ولم يجد عبد الله برشمبو معارضة إلامن ناحية بيت كنز الدولة . فقدكان هذا البيت قد اندرج في أهل البلاد وأصبح نوبياً ، وتطلع إلىالملك ، وما دامت الإدارة المملوكية قد قررت تعيين ملك مسلم على النوبة فالأحرى أن يختار ذلك الملك من بني الكنز فهم من أصل عربي وهم مسلمون . وهذه كانت حجة كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز

عندما وفد على « الأبواب السلطانية » طالباً تعيينه والياً على النوبة ، ولكن المماليك كانوا لا يثقون في بني الكنز ففضلوا مرشحهم لأنه كما قالوا « تربية أيديهم » . وهكذا تربع على عرش النوبة أول ملك مسلم سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م .

ولكن عبد الله برشمبو لم يحسن الإفادة من الظروف المواتية التي أتيحت له ، فأساء معاملة النوبيين « وتعاطى نوعاً من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة ، وعامل أهل البلاد بشدة وغلظة فكرهوا ولايته » (١) .

وبعد ذلك بقليل عاد إلى البلاد كنز الدولة قادماً من القاهرة ، فلما وصل إلى بلدة الدَّو (الدِّر) سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م التف حوله النوبيون ونادوا به ملكاً ، فتقدم والتحم رجاله برجال عبد الله برشمبو وهزموهم وقُتل برشمبو في القتال ، وتولى كنز الدولة المُلك ، وقد حاول رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون التخلص من كنز الدولة لأن المماليك عامة كانوا يكرهون العرب ويخافونَهم ، وقد انتصر عليهم أول الأمر ولكنهم تمكنوا من عزله سنة ٧٢٣هـ/١٣٣٢م وإجلاس مرشح لهم على العرش، وأخيراً سنة ٨٢٣هـ/١٤٣١م تمكن كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز من الفوز بالعرش بصورة نهائية . ووقف إلى جانبه عرب النوبة جميعاً وكانوا هم الفئة السائدة في البلاد من زمن طويل ، وإلى هؤلاء العرب يرجع الفضل في نشر الإسلام في مقرة فأصبحت هي الأخرى بلداً إسلامياً ، ورغم استقلال كنز الدولة بملك النوبة إلا أنه من الناحية الواقعية كان تابعاً لمصر . وكانت بلاده جزءاً من مصر وسلطنتها . وقد أنشأ كنز الدولة بعد استقراره في العرش أول مسجد جامع

---

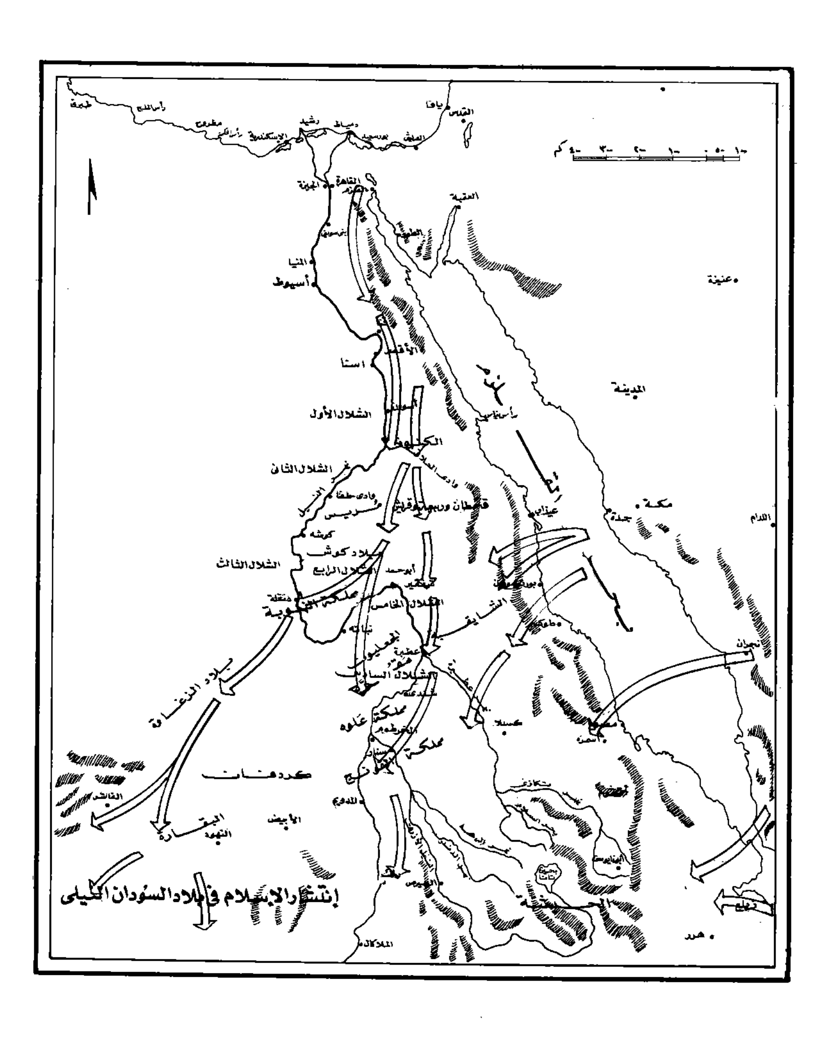
(١) النويرى ، نهاية الارب ، حـ ٣ ورقة ٩٩ نقلا عن د٠مصطفى محمد مسعد فى كتابه «الاسلام فى النوبة فى العصور الوسطى» القاهرة ١٩٦٠م ، ص ١٦٧ ٠

في دنقلة . وكانت المسيحية قد تلاشت إذ ذاك تماماً من النوبة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وقد ساعد على القضاء على المسيحية في النوبة هجرة أعداد كبيرة من عرب بني جهينة إلى النوبة في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وقد كان لعرب بني جهينة هؤلاء من الأثر في تاريخ الإسلام في النوبة مثل ما كان لبني هلال في إفريقية والمغرب الأوسط : كلاهما عاث في البلاد أول الأمر وأشاع فيها الفوضى ، ثم استقروا واختلطوا بالناس ، وأتموا إسلامهم وتعريبهم وحولوا البلاد إلى بلاد عربية إسلامية .

ـ نهاية مملكة علوة المسيحية وامتداد نطاق الاسلام والعروبة الى جنوبى موقع الخرطوم الحالى وانفتاح بقية وادى النيل للاسلام :

لم يكن من الممكن أن تظل مملكة علوة ـ التي تقع جنوبي مملكة مَقُرّة ـ بمعزل عن الأحداث التي ذكرناها . فقد كانت جماعات العرب تتسرب إلى أراضيها وتستقر فيها آتية من مصر والنوبة حيناً وعبر البحر الأحمر حيناً آخر . ثم إن سلطان مصر المملوكية كان قد وصل إلى أراضيها ، فقد امتد هذا السلطان حتى شمل كل بلاد البُجة وشمل دهلك ومصوع (١) . وكان المماليك قد

(١) قال ذلـــك الاب فرانسيسكو الفاريت Francisco Alvarez الذى قام برحلة الى افريقية للبحث عن مملكة الاسقف يوحنا Prester Jones أو Prespiter Jones المسيحية التى قيل أنها فى وسط آسيا ثم قيل انها الحبشة · وقد قرأت ملخصا لكتاب رحلته فى دائرة معارف «اسباسا كالبى» الاسبانية فى مادة الحبشة · وهو رجل متعصب شديد الكراهيـة للاسلام والمسلمين ، وهو ينكر وجود الاسلام فى معظم نواحى شرق افريقية والسودان ويقول دائما ان الناس فى كل مكان ينتظرون رسل المسيحية ، وقد أعطانا عن الحبشة ومسيحيتها صورة بشعة جدا ، وظاهر من كلامه


إنتشار الإسلام في بلاد السودان النيلي
القدس
يافا
رشيد
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
الجيزة
العقبة
المنيا
أسيوط
عنيزة
الأقصر
اسنا
المدينة
الشلال الأول
الشلال الثاني
الشلال الثالث
الشلال الرابع
الشلال الخامس
الشلال السادس
مكة
جدة
عيذاب
دنقلة
مملكة علوه
كردفان
الأبيض
كسلا
سنار
الخرطوم
نجران
بلاد الزغاوة
البقارة
هرر

وضعوا أيديهم على ثغر سواكن وكانت ثغر مملكة علوة على البحر الأحمر ، أضف إلى ذلك أن كنيسة علوة كانت تابعة قبل زوالها لكنيسة الإسكندرية .

ولكن الزحف الإسلامي هدد علوة من ناحية الجنوب الشرقي أيضاً : من ذلك الإقليم الواسع الواقع جنوبي دارفور والممتد إلى إقليم بحيرة تشاد . هناك كان يسكن قبيلة من الناس يسمون زغاوة أو زواوة الذي سبق أن ذكرناه وهم مجموعة من القبائل البربرية المسلمة زحفت إلى الجنوب واستقرت في واداي ودارفور وكردفان من زمن بعيد . وكان لهؤلاء الزغاويين نشاط تجاري كبير ، ومع قوافلهم سار دعاة الإسلام ، ولهذا نجد أن لزغاوة على الرغم من قلة معرفتنا بهم أثراً كبيراً في نشر الإسلام في المناطق الواقعة بين حوض النيل وإقليم تشاد . ثم نجدهم يغيرون على أراضي مملكة عَلْوَة ويشكو الملك « أدور » علوة (وكان يلقب بملك الأبواب نسبة إلى مدينة الأبواب عاصمته ، وتقع على نهر النيل جنوبي مدينة مروى القديمة) من عدوانهم على ناحية من بلاده تسمى الأنج أو العنج .

ثم ان عرب قبيلة جُذام انسحبوا من الصعيد جنوباً ودخلوا بلاد الزغاوة وسيطروا عليها ، ومن هناك أخذوا يغيرون على كل ما جاورهم حتى شكاهم ملك البرنو إل السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م .

ويلاحظ كذلك أن العلاقات المباشرة بين كنيسة الإسكندرية وكنائس

أنه يضرب صفحا عن انتشار الاسلام فى بلاد علوة ، ولكن يهمنا من كلامه قوله بأن المسيحية كانت قد تلاشت من هنا وقد أشار الى الاب الفاريت د٠مصطفى محمد مسعد فى كتابه عن الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى٠ ص ١٨٦ ، ولكنه لم يقرأ موجز رحلته الموجودة فى مادة Abisinia فى دائرة معارف Espasa Calpe الاسبانية ٠

علوة كانت قد انقطعت منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، فلم تعد مصر ترسل أساقفة أو قساوسة إلى النوبة ، فخلت الكنائس من القسس وهجرها الناس وأخذت تتداعى ، وقد قرر سائح برتغالي زار النوبة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي وقال « ان هؤلاء النوبيين يجهلون ديانتهم ، فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين ولا باليهود ، ويقال أنهم كانوا على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ، ولم تبق لهم عقيدة ويأملون أن يكونوا مسيحيين(١) .

وإذا كانت مملكة علوة سائرة في طريق الاضمحلال والتفكك من أوائل القرن الرابع عشر الميلادي فإن القضاء عليها تم في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) وكان الذين أجهزوا عليها هم العرب والفونج حلفاؤهم .

ذلك أن سقوط مملكة علوة وتحولها إلى بلاد إسلامية يسكنها عرب ونوبيون مسلمون يختلط بعضهم ببعض شيئاً فشيئاً فتح الباب أمام هجرة عربية ضخمة تشبه هجرة قبائل الهلالية إلى المغرب في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تلك هي هجرة قبائل جهينة . ولم تكن كلها من الجهنيين ، بل غلب هذا الإسم على مجموع ضخم من القبائل العربية انسابت من صعيد مصر إلى أرض البطانة (أي النوبة) واستمرت في سيرها حتى استقرت في أرض الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض واتخذت مواطن لها على ضفاف النيل الأزرق حول موقع مدينة سنار . وكما تدافعت قبائل البربر من لواته وهواره ونفوسة

---

(١) كانت جزر دهلك قد دخلت فى الاسلام من زمن بعيد ، فقد كانت معدودة من توابع بلاد العرب ، وكانت تتبع فى الغالب صاحب السلطان فى اليمن ، وفى العصر العباسى كانت دهلك منفى للمغضوب عليهم من الخلفاء . وكان الاسم يطلق على الجزر وشاطىء افريقية المقابل لها .

إلى الغرب أمام موجة الهلالية فكذلك تهارب أهل النوبة وعلوة إلى الجبال أمام الموجة الجهنية وطلبوا الأمان في جبال حوزا وكاجا وشمال كردفان . ولم يصدق ابن خلدون عندما حمل على الجهنيين واتهمهم بتخريب البلاد في طريقهم ، لأن الذي ثبت بعد البحث أنهم كانوا قوماً مسالمين يزحفون طلباً للأرض الخصبة والمرعى ، وأنهم أصبحوا سادة هذه البلاد عن طريق المصاهرات مع النوبيين والعلاقات الطيبة معهم . وإذا كانت الفوضى قد سادت عقب استقرارهم في البلاد ودامت وقتاً طويلا فقد كان سببها الحروب بين العرب أنفسهم — لا الصراع بينهم وبين أهل البلاد ، بالضبط كما فعل الهلالية في المغرب .

وقد انتشرت هذه القبائل في أرض الجزيرة كلها ، وكان بعضها من عرب الشمال أي العدنانية ، و بعضها من عرب الجنوب أي القحطانية ، و من سلائل العدنانية في الوقت الحاضر الكواهلة (بنو كاهل) والمجموعة الجُعَلية والرشايدة (هؤلاء هاجروا إلى السودان عبر البحر الأحمر من الحجاز والباقون أتوا من مصر) أما القحطانيون فيمثلهم الجهنيون .

وينتسب إلى الكواهلة البشاريون (من البجة) وبنو عمار ، من البجة أيضاً ويسكنون من أحواز سواكن إلى أريتريا . ولهذا فالأغلب أن الكواهلة (من العدنانيين) نزلوا في أول الأمر في بلاد البجة على ساحل البحر الأحمر ، ثم ثم انساحوا غرباً في حين سارت بقية الجهنيين مع النيل حتى ملتقى النيلين وأرض الجزيرة ومناطق النيل الأزرق ، وكان الكواهلة ينزلون الأرض بإذن من أهلها ويدفعون لأهلها مالا أشبه بالإيجار ، فإذا كثرت أعدادهم وثبتت أقدامهم وضعوا اليد على الأراضي وادعوا ملكيتها .

أما المجموعة الجُعَلية فتجمعت حول النيل الأبيض جنوبي الخرطوم الحالية وامتدوا شمالا حتى دنقلة وجنوبها ، وتكاثروا في أرض الجزيرة والنوبة

واتجهوا إلى الغرب نحو كردفان . وكانوا في كل مكان يختلطون بمن يعاونونهم من عرب قدامى ونوبيين وسودانيين .

وينسب الجُعَليون أنفسهم إلى إبراهيم الملقب بجُعَل ، وهو من نسل العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . ومن الواضح أن الجعليين لم يكونوا من أول الأمر قبيلة واحدة ، بل كانوا قبائل شتّى تجمع بعضها إلى بعض كما كان الحال مع الجُهَنيين ، ويغلب على الظن أنهم بدأوا الزحف من صعيد مصر إلى الجنوب من أوائل القرن العاشر الميلادي ولكن جماعاتهم لم تتعاظم إلا في القرن الرابع عشر ، وعندما سقطت دولة مَقُرَّة اندفعوا إلى الجنوب في القرن الخامس عشر .

والراجح أن الجعليين ساروا مع الجهنيين ،فلما وصلوا إلى جنوبي ملتقى النيلين افترقوا ، فأما الجعليون فقد اتجهوا شمالا بشرق حتّى دنقلة ، وكانوا عرباً حضرا فاستقروا ونشروا الثقافة العربية واختلطوا بالناس وذابوا فيهم حيث وصلوا ، وأما الجهنية — وهم مقاربون للجعليين في الأعداد— فقد اتجهوا إلى حوض النيل الأزرق و أرض البجة سائرين في أعقاب أجدادهم ممن كانوا يعيشون في الأصل في منطقة ينبع في جزيرة العرب ثم عبروا النيل إلى أرض البجة أرسالا من وقت مبكر يصعُب تحديده ، ثم أخذوا يتوسعون حتّى وصلوا سواكن في القرن الثالث عشر ، ثم لحقت بهم الموجة الكبرى من بني جنسهم ، وهم جهنيون هاجروا إلى صعيد مصر وتكاثروا فيه وانضمت إليهم قبائل أخرى أهمهم بنو رفاعة ثم انساحوا نحو الجنوب كما ذكرنا .

والخلاصة أن الجهنيين ومن انضم إليهم من الجعليين وبني رفاعة أزالوا مملكة علوةَ المسيحية وأزالوا أثر هذه الديانة من وادي النيل وانتشروا في بلادها من النيل الأزرق إلى كردفان في حين قام عرب الكنوز ومن انضم إليهم بإتمام إسلام بلاد النوبة وشمالي السودان إلى ملتقى النيلَين وبعض أرض الجزيرة .

(الباب الثاني)

العرب ونشر الاسلام :

وهنا موضع ملاحظة لا بد أن نبديها ونحن نتكلم عن هجرات العرب وما أدت إليه من تعريب أهل البلاد التي هاجروا إليها وإتمام إسلامهم . فإن الذي يُفْهَم من كلام ابن خلدون ومن تابعه من المؤرخين المحدثين — وخاصة الغربيين منهم — هو أن العرب في هجراتهم كانوا يجتاحون البلاد اجتياحاً وينهبون ما يصادفهم من خيراتها ويعتدون على أهلها ويسومونهم خطه الخسف كما يقول في مصطلحه . وقد خصص الفصل السادس والعشرين من الباب الثاني من أبواب المقدمة وموضوعه : « العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال(١) للكلام في موضوع العرب والعمران ، وقال : الفصل السادس والعشرون في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب (٢) .

« والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم ، فصار لهم خِلْقَة وجِبِلّة ، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران ، ومناهضة له ، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناهض للسكون الذي به العمران ومنافٍ له ، فالحَجَر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصب أثافي القدر ، فينقلونه من المباني ، ويخربونها ويعدمونها لذلك . . » إلى آخر ذلك الكلام الذي يستطيع القارئ مراجعته فهو مطبوع بأيدي الناس ، وإنما نحن نناقشه هنا وندحضه ، لأن رأينا في الأمر يختلف عن رأيه كل الاختلاف ،

---

(١) ابتداء من هذا الباب الثاني فى ص ١١١ من المقدمة ، طبعة دار الشعب فى القاهرة بدون تاريخ .

(٢) ص ١٣٤ وما بعدها من نفس طبعة المقدمة .

فإن الذي نعرفه من حقائق التاريخ هو أن العرب دخلوا بلاد عمران وحضارة قديمة قائمة في العراق والشام ومصر ، فما هدموا مدينة ولا نقضوا بناء ، ولا أخذوا أحجار الأبنية ليتخذوها أثافي للطبخ ، ولا انتزعوا سقوف البيوت لإيقاد النار ، وإنما الذي نعرفه أن عمران العراق والشام ومصر زاد بدخول العرب ، وزادت فيها المباني واتسعت خِطة الزروع ، وفي البلاد التي كانت قَبليّة قبلَهم استقر الناس وأنشأوا المدن ، فما كان في هضبة إيران قبل الفتح العربي مدينة تسمى مدينة شرقي هَمَذان ونَهاوَند ، وإنما كانت كلها محلات وقرى صغيرة تتناثر مثل الواحات أو جزائر الصحراء حتى جبال طُخارستان فمُدنت القرى وتحولت محلات الواحات إلى مدن كبرى بما استنبط العرب من أساليب تجميع المياه وخزنها تحت الأرض في الجِباب وجمعها فوق الأرض في الصهاريج وشَقّ الترع ليجري فيها الماء ويروي الأراضي الواسعة ، ولفظ « قناة » الذي انتقل إلى لغات العالم كلها عربي ، لأنهم كانوا أول من أجرى القنوات بنظام محكم ، ونقلوا إلى كل بلد دخلوه نظام حفر القنوات التحتية على نظام الكِظامات التي كانت معروفة عندهم في بلادهم ، وكانت الكظامات تحفر في باطن الارض لتوصيل مياه العيون بعضها ببعض حتى يمكن حفر آبار بين العين والعين لري الأرض وعرفوا هذه القنوات التحتية باسم المجاري ، وبفضل شبكات المجاري العربية نشأت مدن كبرى مثل مراكش ومجريط في الجناح الغربي لعالم الإسلام ، ومرو ومرو الروذ وهراة وبلخ وما إليها في الجناح الشرقي .

وحقيقة الأمر أن كلام ابن خلدون لا يصدق إلا على جماعات قليلة من الأعراب ممن انسلخوا عن جماعات القبائل الكبرى وشذوا عنها وعاشوا على حافات بلاد العمران والأرياف ممن لا يقاس عليهم ولا تصدر الأحكام بناء على تصرفاتهم .

أما العرب ، عرب الجماعات القبائلية الكبرى التي هاجرت إلى الأمصار خلال موجة الفتوح الأولى في صدر الإسلام ، وعرب الجماعات القبائلية الكبيرة التي هاجرت إلى بلاد مصر والمغرب والسودان ابتداء من القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي ، فلم يكونوا أهل نهب وتخريب ، بل كانوا أهل تعمير وتحضير وتعريب ونشر إسلام ، فما كان عرب بني هلال بن عامر ابن صعصعه ومن صاحبهم من بني سليم بن منصور (وكلهم من مضر) بأهل نهب وسلب ، ولاهم خربوا بلاد المغرب ، وإنما كان الخراب قد استشرى فيه قبل دخولهم بسبب سوء حكم الدول التي توالت على حكم المغرب قبلهم من بني الأغلب والفاطميين من بعدهم ، ومن عجب أن يقال إن بني هلال وبني سليم بن منصور لما دخلوا المغرب في منصف القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي خربوه ، فكيف لم يخربوا صعيد مصر قبل ذلك وقد أقاموا فيه قبل ذلك دهراً ؟ فكيف تحولوا إلى نهابين بمجرد دخولهم أرض المغرب ؟ إن قصة كيفية دخول الهلالية كلها إلى المغرب مشكوك فيها ، وقد ناقشناها بما فيه الكفاية في كتابنا في تاريخ المغرب ، ونفينا عن العرب تهمة التخريب التي لصقت بهم من أيام ابن خلدون .

ويهمنا أن نؤكد هذا المعنى ونحن الآن نتحدث عن دخول أمم كثيرة عالم الحضارة والدين والبناء والتعمير على يدالعرب الذين دخلوا البلاد مهاجرين آمنين . فهؤلاء لم يخرجوا ولم يدمروا ولا هم استذلوا الناس وأخضعوهم للمغارم ، وإنما هم اختلطوا بهم وصاهروهم ، وعلموهم الإسلام واللغة العربية . فأما العرب الأول فقد كانت فيهم إنسانية ومرؤة بسبب قربهم من عصر النبوة ، فكان الناس يألفونهم ويحبونهم ويسعون إلى الاتصال بهم ، ففي الأندلس كان أهل البلاد يجدون في العربي عشيراً حسناً وصديقاً ودوداً ، فانتشر العرب آمنين في شتى النواحي وصاهروا الناس وصاروا منهم ، حتى

من بقي في بلاد المسلمين من القوط ، وكانوا هم الأعداء الذين أزالهم العرب من الطريق ليوصلوا الإسلام إلى أهل البلاد ، حتّى أولئك القوط استعربوا وصاهروا العرب وصار أبناؤهم عرباً بالروح ، وظهر من بينهم علماء وأدباء يزدان بهم تاريخ الإسلام من أمثال أبي بكر بن القوطيةالفقيه المؤرخ ، وهو حفيد سارة القوطية من بنات الملوك ، وعبد الملك بن بشكوال ، وجده بشكوال كان أسبانياً نصرانياً .

ولا حاجة بنا إلى الكلام على ما كان من تقاربٍ وتآخٍ بين العرب الأول وأهل البلاد حتّى أن رجال القبائل كانوا يتنافسون على العرب ، فتجهتد كل قبيلة في أن ينزل بها عربي ، فيبدأ معلماً لأفرادها وينتهي رئيساً لها ، ويتزوج منها ويسرع بإسلامها ، وخاصةإذا كانآل البيت العربي منآلإدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخيه سليمان .

ولم يكن الهلاليون مكروهين من أهل المغرب ولا مخربين لديارهم وإنما هم دخلوا بلاداً تسودها الفوضى فأدلوا بِدِلوِهم فيها ، وخاضوا معركة بقاء انتهت باختلاطهم بالناس وإسراعهم بإسلامهم ، ولولا (إرادة الله) ثم الهلالية لما تم إسلام أهل المغرب وتعريبهم على النحو الذي نراه اليوم ، وهذا هو السببفي كراهة المستشرقين الفرنسيين لهم وحملتهم عليهم مستعينينبكلام ابن خلدون ، والسبب في الكراهة أن الهلالية هم الذين أكملوا استعراب المغرب ، فلما دخل الفرنسيون وحاولوا زحزحة الناس عن الإسلام استحال عليهم ذلك ، وظل أهل المغرب عرباً مسلمين وهزموا الفرنسيين في النهاية .

هناك أيضاً في السودان نجد أن ماكمايكل MacMaickel وغيره من الباحثين الانجليز يكرهون بني رفاعة وجهينة وبني الكنز ، ويزعمون أنهم نهبوا البلاد وخربوها ، والسبب في تلك الحملة أنهم يعرفون أنه لولا الجهنيين

والجعليين وبني رفاعة لظل مركز العروبة والإسلام قلقاً في السودان ولاستطاعوا أن ينفذوا سياستهم في السودان .

والحقيقة التي أريد أن أصل إليها بهذا الكلام هي أن هجرات العرب سواء أكانت فردية أو جماعية كانت من أقوى العوامل في نشر الإسلام في نواحي الأرض . ولقد تولت شعوب إسلامية كثيرة فتح البلاد للإسلام مثل الفرس والترك بشتى صنوفهم ، ولكن العرب وحدهم هم الذين فتحوا البلاد والقلوب معاً . وجعلوا مما فتحوا بلاد عروبة وإسلام حقاً كما ترى في فتوح العراق والشام ومصر والمغرب والسودان ، أما ما فتحه غيرهم فلا يصل قط إلى هذه النتيجة الحاسمة ، وإليك ما فتحه الأتراك العثمانيون من بلاد أوروبا ، فإنه لم يخلف على ضخامته إلا إسلاماً قليلا ، وكان الأفغان وأبناء المغول أحسن حظاً في الهند ، ولكن العرب كانوا أنجح الجميع للخصائص الإنسانية التي ذكرناها ، وسبحان ربك الذي اختار نبيه من بين هذا الجنس الطيب الحسن العشرة القريب من القلوب ، ففتح به البلاد وقلوب العباد ، والله أعلم حيث يضع رسالاته .

● مملكة الفونج

هذه أول دولة إسلامية ذات قواعد سياسية وإدارية ونظام قائم تظهر في السودان النيلي جنوب مصر . وعلى الرغم من أن ألقاب ملوكها تبدو أحياناً غير عربية ، إلا أن الفونج أنفسهم يقولون أنهم عرب ، وكانوا يدونون وثائقهم بالعربية ، وكانوا ينسبون أنفسهم إلى بني أمية . ولا بد لهذا أن نعتبرهم دولة عربية إسلامية كما اعتبروا هم أنفسهم .

وقد اختلفت الآراء في الطريق الذي دخلوا به منطقة ما بين النيلين ، فيقول بعض المؤرخين أنهم دخلوا وادي النيل من الغرب وأنهم فرع من ملوك البُرنو ، وهناك من يقولون أنهم كانوا في الأصل فرعاً من قبائل الشُّلُك . أما هم فيقولون أنهم من نسل أمراء من أمية الذين فروا من العباسيين : ذهبوا إلى الحبشة ثم صعدوا مع النيل الأزرق حتّى منطقة سنار . ويؤيد هذا الرأي المسعودي والمقريزي .

وعلى أي حال فقد كان الفونج يعتبرون أنفسهم دولة عربية إسلامية ، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نأخذهم ، وقد ظهروا في وقت اشتدت فيه الحاجة في وسط السودان إلى دولة قوية تقر النظام وتؤمن الناس ، لأن دولة علوة وتسمى في النصوص السودانية بدولة العَنْج كان أمرها قد ضعف تماماً وتكاثرت القبائل العربية في بلادها وقامت الحروب بينها حتّى أصبح حوض النيل الأوسط مقسماً إلى ممالك ومشيخات كثيرة لا تكف عن الحرب بين

بعضها و بعض ، وكانت تسود كل منطقة قبيلة قوية تتمكن من إشعار البقية بقوتها ، ورئيسها يسمى شيخ المشايخ ويلقب بالمل أو المانجل . وكانت نتيجة هذه الفوضى أن تعطلت التجارة ، بل نلاحظ أن التجارة مع مصر اضطربت تماماً في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، وظهرت الحاجة إلى إقامة نظام سياسي يشمل هذه المنطقة كلها ويقر الأمن فيها .

في هذه الظروف ظهر رجل قوي موهوب هو عمارة دنقس من بين قبائل الفونج التي استقرت في منطقة سِنّار على النيل الأزرق ، وكان مركزهم في جبل مويا على بعد ٢٠ كيلومتراً تقريباً إلى غرب سنار الحالية ، فجمع رجاله وقرر القيام بالقضاء على بقايا دولة العنج وإقامة نظام إسلامي جديد ، ثم تحالف مع عبد الله جَمّاع شيخ عرب القواسمة من جُهينة وحلفائه الكثيرين ، وكانوا يسودون المنطقة الواقعة عند ملتقى النيلين وما يليه شمالا . وفي سنة ٩١٠هـ/١٥٠٥م التقى الحلفاء مع قوات العنج عند بلدة تسمى أربجي كان قد أسسها عربي يسمى حجازي بن معين حوالي سنة ١٤٤٧ وانتصروا على العنج وفرت بقاياهم إلى جبال فازوعلي وكردفان ، واختفت بقيتهم في سكان البلاد من المسلمين ودخلو الإسلام .

وعقب ذلك قامت دولة الفونج وحدودها من سواكن شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً ، ومن أقصى جبال فازوعلي جنوباً إلى الشلال الثالث شمالا أي أنها شملت معظم أراضي مملكتي مَقُرّة وعَلْوَة السابقتين .

وقد انفرد عبد الله جماع بالقسم الشمالي من المملكة وجعل عاصمته مدينة قِرِي (قرب خانق سَبْلوقة) أما عمارة دنقس فقد بسط سلطانه على الجنوب واتخذ مدينة سنار عاصمة له ، ويقال إنه هو الذي أنشأها .

وكانت حدود المملكة من الشمال بلدة حَنَك ، وعندها تبدأ الحدود الجنوبية لمصر المملوكية في ذلك العصر . وحنك تقع عند الشلال الثالث ،

ويذهب نَعُوم شقير(١) إلى أن مدينة أربجى (قرب المسلمية) أصبحت الحد الفاصل بين منطقة نفوذ عمارة دنقس ومنطقة نفوذ عبد الله جماع . وكان كلاهما لا يحكم مباشرة بل عن طريق المُكوك أي شيوخ القبائل . ويقال أن إنفراد عبد الله بهذه المنطقة الشمالية تم في أواخر أيام عمارة دنقس .

وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين مدت حدودها من مصر جنوباً حتى سواكن ومصوع فقد احتلتهما ووضعت فيهما حاميتين عسكريتين ، وذلك بعد ثلاث سنوات من استيلاء العثمانيين على مصر أي سنة ١٥٢٠م وعرف عمارة دنقس كيف يقنع سلطان العثمانيين بأنه ملك مسلم وأن سكان بلاده عرب مسلمون وألا داعى لأن تخشاهم الدولة العثمانية على سلطانها .

وقد تعاقب على مملكة الفونج بعد عمارة دنقس ثلاثة ملوك أقوياء ثم أخذت تضعف . وفي أيام الملك عدلان وداي الذي انتهى سنة ١٦١١م قامت الحرب بين بلاد عبد الله جمّاع (العَبْدِلاَّب) ومملكة الفونج ، وكان شيخ العبدلاب يسمى عجيب ، وقد انهزم الشيخ عجيب وقتل وفرت عائلته إلى دنقلة ، فقام رجل صالح هو الشيخ إدريس وَد الأرباب وتوسط بين الجانبين ، وتم الصلح بينهما وأذِن عدلان لعُجَيل بن عجيب بأن يعود إلى منطقة سلطان أبيه ، وكان عجيب الذي ذكرناه ذا عناية كبيرة بالدين والثقافة فكان يكرم العلماء والصالحين وقد أنشأ رواقاً للسنارية في الأزهر وآخر في مسجد المدينة المنورة .

ومع أن عدلان وَد أي أثبت كفاية في عمله إلا أن أهل مملكة الفونج

---

(١) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية (القاهرة ١٩٠٤م) حـ ٢ ص ١٠٨ .

عزلوه وأقاموا مكانه بادي سيد القوم فسلك مع العبدلاّب سياسة عنف وقوة وانتزع السلطان على الأقاليم الشمالية من يد الشيخ عجيب ووضع يده على دنقلة وكانت مركز الحدود والجمارك بين المنطقتين . وفي أواخر سنوات حكم الفونج إستقلت قبائل الشايقيه التي كانت تسكن منطقة حلفا في منطقة العيدلاب وكان هذا مظهراً من مظاهر تفكك مملكة سنار فقد انقسمت إلى مشيخات قبائلية كل منها مستقلة في ناحيتها ومن أقوى للهذه المشيخات العبدلا ، والجلالين والمجاذيب والمرافاب والشايقيه وكانت هذه الأخيرة تسكن أبعد هذه المناطق إلى الشمال وكانوا قبائل شتّى لا تنقطع الحرب بينها وكانوا يسيطرون على منطقة وادي حلفا كلها ويملكون أكبر مدن المنطقة مثل أبي حمد ومروي وكورتي .

وكانت كل هذه الجماعات القبلية السودانية التي نشأت عن تفكك دولة الفونج تعتبر نفسها قبائل عربية ، وكان دينها الإسلام ، وكان أفرادها يتمسكون به تمسكاً شديداً ولكن على طريقتهم . فقد كان العلماء والفقهاء من مصر قد تكفلوا بتعريف أهل السودان بالإسلام ، وأتم هذه المهمة طلاب السودان الذين رحلوا لطلب العلم في مصر أو في الحجاز وعادوا فقهاء وشيوخاً أجلاء ، ومن هؤلاء أولاد جابر الأربعة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، وهم أولاد جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية ، وكلهم درسوا في الأزهر وعادوا إلى مواطن الشايقية ونفع الله بهم خلْقاً كثيرين ، وقد هاجر أيضاً إلى بلاد الفونج نفر من علماء الأزهر أشهرهم الشيخ محمد القناوي ، وقد علم في بربر وأريجى وسنار ولكنه استقر في بربر وأنشأ فيها مسجداً يصلي ويلقي دروسه فيه ، وتخرج على يديه الكثيرون من أوائل علماء السودانيين .

وكانت أولى علائم دخول السودان ميدان التاريخ محاولة محمد علي صاحب

مصر فتح السودان ابتداء من سنة ١٨٠٧م وتوسيع حدود مصر حتّى تشمله ، وقد بدأت العملية سنة ١٨٢٠م ، ومهما قيل في محاولة محمد علي فتح السودان ، فهي في الحقيقة كانت نداء قوياً أيقظ السوادن ونبه أهله إلى أنه قد أصبح عضواً في أسرة الإسلام والعروبة الكبرى وأن عليه أن يأخذ نصيبه من آلام هذه الأسرة ومسرّاتها .

والسودان ، ذلك البلد العربي العزيز من البلاد الّتي دخلها الإسلام دون حرب ، دخلها بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، فدون تدخل من أي دولة إسلامية كان الإسلام يسري في بلاد السودان في هدوء ويملأ القلوب حتّى أصبحت الدول المسيحية هناك مظهراً لا ينطوي على مَخْبر ، ولم يكن يتمسك بالمسيحية هناك إلا البيوت الحاكمة ونفر من القساوسة علمهم بالإسلام قليل . ولم يكن ما فعل بنو رفاعة والجهنيون أكثر من إتمام عملية كانت تسير في في طريقها في هدوء .

وقد كان ولا بد أن يتحول السودان النيلي إلى بلد إسلامي بسبب قربه الشديد من جزيرة العرب واستمرار هجرات العرب إلى بلد السودان عبر البحر الأحمر ولكن العملية تأخرت بعض الشيء ، لأنه لا بد لسيادة الإسلام الفعلية في أي بلد مّا من تنظيم يتولى العمل ورجال يسألون عنه ، وهذا هو الذي قام به بنو رفاعة وعرب جهينة ودولة الفونج ، ثم واصلت العمل مصر أيام محمد علي وإن كانت أساليب الإدارة المصرية أيام محمد علي لم تكن منصفة لا لأهل السودان ولا لأهل مصر . ومع ذلك فقد كانت وحدة مصر والسودان أيام محمد علي وما بعدها إلى أواخر أيام إسماعيل من أكبر العوامل في إتمام إسلام السودان ، ولولا أن إسماعيل الخديوي عهد في إدارة السودان لزبانية الاستعمار من أمثال السير صمويل بيكر ثم تشارلس غوردون لأصبح

السودان كله من شماله لجنوبه إسلاماً خالصاً ، بل لامتدت دولة الإسلام حتى شملت وادي النيل كله ، فقد أنشأت مصر أيام إسماعيل مديرية خط الاستواء أو أكواتوريا ؛ ووضعت سياسة ثابتة لنشر الإسلام في مناطق منابع النيل ، وتوافد العلماء والفقهاء من مصر إلى هناك . وما أفسد هذا العمل الجليل كله إلا الانجليز ، وهم وراء متاعب العالم العربي كله من السودان إلى فلسطين .

● الاسلام فى بقية شرق افريقية

يبدو للناظر من بعيد أن انتشار الإسلام في شرق إفريقية أمر لا يحتاج إلى طويل بحث نظراً لموقعه الجغرافي على الضفة الغربية للبحر الأحمر في مواجهة الحجاز ، وهو مهد الإسلام ، واليمن وهو أيضاً مركز رئيسي من مراكز الدعوة إلى الإسلام ثم نظراً للعلاقات الوثيقة التي ربطت شرق إفريقية بالجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده .

ولكن شرقي إفريقية وخاصة فيما يتعلق بما يقع منه إلى الجنوب من السودان النيلي معقد التركيب الجغرافي والبشري ، وأبسط ما يدل على ذلك أن مصر والسودان الشمالي والأوسط قد تمّ تعريبهما من قرون بعيدة بينما لم تتعرب السنة سكان الصومالات بعد . وهذا يبدو غريباً ، لأن شرقي إفريقية المواجهة لجزيرة العرب ـ بما في ذلك الحبشة ـ تلقى من جزيرة العرب لغاته السامية وعناصر حضارته الأولى قبل الإسلام بزمان طويل . وكان الذين أقاموا مملكة أقشوم أو أكسوم القديمة مهاجرين من اليمن إلى إقليم تيجراي .

أما المسيحية فقد وصلت إلى نفس هذه المنطقة (الحبشة) وافدة من مصر وقد حملها إلى هناك راهبان مصريان اسكندرانيان في قصة معروفة . ونحن إذا شككنا في القصة فإننا لا نستطيع الشك في نتائجها وهي أن مملكة أقشوم أصبحت بلاداً قبطية الديانة أي مسيحية على المذهب المونوفيزي أي مذهب الطبيعة الواحدة الذي سمي فيما بعد بالمذهب اليعقوبي ، وأصبحت أقشوم والحبشة تابعتين للكرازة المرقسية أي الكنيسة المصرية المنسوبة إلى الحواري مرقص ، ومن الاسكندرية كان ـ ولا يزال ـ يفد على الحبشة أسقف كنيستها ،

إذ أنها كانت أسقفية تابعة للاسكندرية ، ولم يصبح أسقف الحبشة مطراناً إلا فيما بعد . وإلى هذا الخيط الرفيع الذي يربط الحبشة إلى الاسكندرية يرجع السبب في بقاء المسيحية في الحبشة بعد أن قطعها الإسلام قطعاً تاماً عن مراكز المسيحية في أوروبا . وإذا كان الإسلام قد استطاع أن يغزو ممالك السودان القبطية فلأن أراضيها سهول استطاع العرب اكتساحها شيئاً فشيئاً ، فإن نواة الحبشة – أي نواة مسيحيتها – كانت في الأقاليم الجبلية المرتفعة ، فلم يصل إليها الإسلام والمسلمون في سهوله . ويعلل بعض الباحثين الغربيين بقاء المسيحية في الحبشة بأن المسلمين عجزوا عن قهر الأحباش المتعلقين بقمم الجبال وسطوح الهضاب ، والحقيقة أن المسلمين لم يحاولوا فتح الحبشة في عصر اندفاعهم الأول .

والحق كذلك أن المرتفعات مهما كانت لم تقف قط حائلا بين العرب وبين فتح أي إقليم إذا شاءوا ذلك ، وجبال الحبشة ليست أمنع من جبال أفغانستان التي اقتحمها العرب وأدخلوا أهلها رحاب الإسلام ، ولا هي أمنع من جبال الأطلس ولا كان الأحباش بأشجع من البربر . ولكن العرب الذين استولوا على جزيرة دهلك ومدينة مصوع الواقعة على الساحل القريبة منها لم يهتموا كثيراً بالتوغل في الداخل ، ربما لأنه لم يوجد في دفعة الفتح الأولى رجل يلفت نظر الخلافة إلى ضرورة توجيه قوي كافية نحوها . وكانت اتجاهات الفتوح تتوقف كثيراً على وجود رجال أفذاذ من القادة نجحوا في تنبيه دولة الإسلام إلى أهمية فتوح البلاد التي تلي ولاياتهم ، ولولا قتيبة ابن مسلم لما بذل المسلمون كل ذلك الجهد لفتح بلاد الترك ، ولولا محمد ابن القاسم لما وثب المسلمون إلى حوض السند هذه الوثبة الباسلة ، ولولا عقبة بن نافع ما اهتمت الدولة الإسلامية بأمر المغرب الاهتمام الذي جعل بلاد المغرب كلها بلاد إسلام ، كذلك الأمر مع طارق بن زياد وموسى

ابن نصير بالنسبة للأندلس ، ومسلمة بن عبد الملك ومحاولات الاستيلاء على القسطنطينية .

وعلى الرغم من ذلك فقد تكفلت القبائل العربية المهاجرة عبر البحر الأحمر أو الزاحفة من مصر بغزو بلاد البجة ثم بلاد عفر والدناقل ، وإلى هذا يرجع الفضل كما رأينا في ظهور أهمية ثغر عيذاب كرأس معبر من الحجاز إلى إفريقية واستولى أولئك العرب أيضاً على زيلع وسيطروا منها على طريق هَرَر التجاري المؤدي إلى أعالي الحبشة ، وكثر استعمال تجار العرب لهذا الطريق ، وكالعادة سار الإسلام مع التجار وطرق التجار ونشأت على طول هذا الطريق المؤدي إلى قلب الحبشة إمارات أو مشيخات صغيرة إسلامية مثل رافات وأدلَ ومُورة وهُبَط وجِداية جنوبي نهر هَوَش ، وانتشر الإسلام بين قبائل سِدامة الحبشية المستقرة وما حولها من قبائل البدو . ودخل في الإسلام كذلك ملوك بلاد كوش وأهمها فتجر ودواره وهديه وبلى ، وأصبحت مدينة هَرَر في بلاد مملكة دواره مركزاً إسلامياً هاماً وإن تكلم أهلها لغة سامية خاصة بهم . وقد أصبحت هذه الممالك الإسلامية الصغيرة نطاقاً حال بين امتداد الحبشة نحو الجنوب والجنوب الشرقي . وكان الصراع دائماً وعنيفاً بين هذه الممالك وملوك الحبشة . وفي أوائل القرن السادس عشر ، وفي سنة ١٥٢٧ م على وجه الدقة ظهر بين المسلمين زعيم قوي هو الإمام أحمد جرافي الذي تمكن من فتح الحبشة وأزال ملك النجاشي ، لكن هذا الرجل لم يعش طويلا إذ قتل في المعارك سنة ١٥٤٢ م ، وتفرق رجاله .

ولكن الاتجاه إلى إدخال الحبشة في الإسلام تجدد مرة أخرى عندما هاجرت قبائل الجالو الوثنية إلى داخل الحبشة في موجات متعاقبة ابتداء من سنة ١٥٣٧م تقريباً — وقد هاجرت هذه القبائل إلى منطقة سدامه شرقي بحر الغزال ، وكانت فيها جماعات إسلامية كثيرة فازالتها فلم يبق الإسلام

إلا في هرر وما تبعها من الأراضي وبلاد عَفَر والصومال . وتوسعت قبائل الجالو واحتلت هضاب الحبشة . وقد أسلم بعضهم وتنصر البعض الآخر . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الحبشة تعاني من مصاعب داخلية أتاحت للجالين المسلمين أن يضعوا يدهم على الكثير من أراضي الحبشة ، ووجد الكثير من قبائلهم مثل الوَلّلُو وراية وبيجو في الإسلام وسيلة تمكنهم من العيش متميزين عن الأمهريين ، وقد حاولت قبائل الجاللو المسلمة أن تسيطر على النجاشية وهي نواحي المرتفعات .

وخلال القرن التاسع عشر كمل إسلام قبائل الجاللو على يد تجار المسلمين ودعاتهم ، فأصبحت كل أراضيهم إسلامية ، وبفضل هؤلاء جميعاً أصبحت كل القبائل الساكنة في حوض نهر جِبِه إسلامية وأهمها قبائل جُمّا وجيرة ، وليمُّو وجِمّه وحيمه أبّا جفار فيما بين سنتي ١٨٢٠ و ١٨٧٠م .

وخلال القرن التاسع عشر أيضاً تحولت معظم قبائل أريتريا إلى الإسلام وكانت قبل ذلك مسيحية . ومن بين هذه القبائل التي أسلمت مجموعة القبائل المتكلمة بلغة التيجري و القبائل الثلاثة المسماة ببيت أسجيدي و قبيلة ماريا وقبيلة بيلين أبو بوغوص المشتغلة بالزراعة ثم قبيلتا مانسا وبوك .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي عادت الحبشة فتماسكت واستعادت وحدتها فنهضت من جديد واستطاعت إيقاف تقدم الإسلام في أراضيها وقام على رأسها أباطرة أقوياء مثل تاوضروس Theodore ويوحنا ثم مِنِلِيك الذي استعان على المسلمين بمعونات أوروبية وقد حكم مِنِلِيك من سنة ١٨٨٩ إلى ١٩١٣م وتمكن هؤلاء الثلاثة من توسيع رقعة الحبشة حتى ضمت داخل حدودها أعداداً كبيرة من المسلمين والوثنيين .

وعلى الجملة فهناك أربع مناطق ينتشر فيها الاسلام فى هذا الجزء من شرقى افريقية المجاور لمدخل البحر الاحمر هى :

١ – يمتد الإسلام بطول ساحل البحر الأحمر ، وهنا يسكن خليط من السكان من أصل حامي (مثل الزّيلَعَوي) وثقافتهم عربية الطابع تتجدد باستمرار نتيجة لتوالي الهجرات العربية من اليمن وعسير .

ويتبع هذه المنطقة الساحل الذي يمتد جنوب القرن الإفريقي وما فيه من البنادر أي المدن بعد أن تم إدماجها في الصومال . وثقافة أهل هذه المنطقة سواحلية (أي بانتو) .

٢ – مناطق الهضاب العليا والوسطى التي تسيطر عليها سياسياً دولة الحبشة المسيحية . وثقافة أهل هذه المنطقة ليست إفريقية . وهنا تسكن جماعات الجَبَرتية وهم أحباش مسلمون أصلا، وأهل الجالا الشماليين مثل البيجو والرايا والوالو (وهؤلاء مسلمون) .

٣ – السهول الشرقية والشرقية الجنوبية وكذلك أهل هَرَر ، وهنا منازل قبائل البدو من عَفَر (أو الدناقل) والصوماليين . وقد احتلت قبائل الجلاللا بعض هذه المناطق . وهذه المنطقة إسلامية كلها الآن . ولم تَسِر العروبة إلى جانب الإسلام بين أهل هذه النواحي الحاميين (البجه وعَفر وساهو والصومال والجاللا) فظلت لغاتهم وتقاليدهم حامية كما كانت .

٤ – ورابع هذه المناطق الإسلامية هي منطقة جنوب غربي الحبشة (منطقة الجيبه) حيث دخلت في الإسلام جماعات من سكان سدامة والميشاجاللو .

وإنه لمن الغريب أن المسلمين سهوا عن فتح الحبشة خلال العصور الإسلامية الأولى مع أن الحبشة كانت متجراً للعرب في الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف الحبشة وملكها على أيامه معرفة طيبة ، وقد اختارها لتكون مهجراً أميناً للمستضعفين من أصحابه عندما ثقلت عليه أيدي كفار قريش ، فكان من الطبيعي نتيجة لذلك كله أن يستكمل العرب فتح اليمن بفتح الحبشة ، لأن الحبشة واليمن كانتا دولة واحدة خلال حقب طويلة قبل

الإسلام ، ولو أن المسلمين قصدوا الحبشة في عصر الفتوح الأولى لما وجدوا أي صعوبة في فتحها ، فقد كانت مسيحية أهلها سطحية جداً ، وكان التقارب بين المذهب اليعقوبي الذي سادها والإسلام ظاهراً ، وبالفعل يظهر أن النطاقين الأول والثاني من مرتفعات الحبشة و هما نطاق الديجا و الدُواينْاديجا دخلا في الإسلام ، ولم يبق على المسيحية إلا أهل المرتفعات العالية ، وكانوا من القلة بحيث لم تشعر دولة الخلافة بضرورة توجيه جيش خاص لفتح هذه المرتفعات ويبدو كذلك أن المسلمين لم يجدوا من النجاشي أي معارضة للإسلام فقد كان النجاشي المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا متسامحاً لا يضع العراقيل أمام الإسلام ، وما دام متسامحاً فلم يعد هناك ما يدعو لحربه جرياً على سنة الإسلام . وقد أطمع تساهل المسلمين قسس الأحباش فتمسكوا بعقيدتهم وحرضوا الناس على البقاء عليها ، ومرت السنون وانكسرت حدة موجة الفتوح الأولى فسكت المسلمون عن الحبشة فظلت المسيحية على حالها فيها علي الرغم من انقطاع الحبشة عن بقية العالم المسيحي ، فإن المسيحية ظلت منتعشة فيها بفضل اهتمام كنيسة الاسكندرية بها ، وقد غابت الحبشة عن أنظار العالم كله قروناً متطاولة ، حتى المسيحية الأوروبية نسيتها ، وتحولت الحبشة المسيحية عند الأوروبيين خلال العصور الوسطى إلى بلد أسطوري يقع في آسيا أو إفريقية ويعمل فيه أسقف أسطوري يسمى القس يوحنا أو Prester Jones كما يقال في اللغات الأوروبية ، وقد أشرنا إلى الراهب البرتغالي الذي زار الحبشة في القرن الثامن عشر ، ونفر مما رآه ، ووصف الأحباش بأنهم غاية في الجهل والبعد عن المسيحية .

وقد تذكرت أوروبا بلاد الحبشة المسيحية أثناء حركة الاستعمار ، فحاول البرتغاليون الوصول إلى الحبشة ، ووصل إليها بعضهم وعاد إلى أوروبا ببعض أخبارها .

وتنبهت البابوية في القرن الثامن عشر إلى أهمية الحبشة كنقطة ارتكاز للدعوة المسيحية في إفريقية ، وأخذت ترسل العيون والجواسيس خلال البحر الأحمر متنكرين في هيئات مسلمين ، وقد وقع الكثيرون من هؤلاء الجواسيس في أيدي المسلمين فعاقبوا بعضهم وأطلقوا سراح البعض الآخر ، وقد أقامت حكومة المماليك مركزاً للرقابة في القصير وآخر في برقيق عند رأس بناس ، وكان الذين نبهوا المماليك إلى ذلك الخطر هم حلفاؤهم البنادقة ، لأن أولئك الجواسيس كانوا يخرجون إلى مصر من البندقية في زي التجار ، وقد كتب الكثيرون من أولئك الجواسيس كتباً عن رحلاتهم . ولكن الحبشة لم تتحرك وتنهض من جديد إلا مع حركة الاستعمار ، وكان أول ملوكها الذين حاولوا الإفادة من حركة الاستعمار هو تاوضروس الذي ذكرناه أوتيودور ، وكان ملكاً غريب الأطوار عنيفاً في عدائه للإسلام ، وقد كتب عنه ألان مورهيد فصلا كبيراً في كتابه عن النيل الأزرق .

وملاحظة أخيرة قبل أن نختم هذه الإشارة القصيرة إلى الحبشة وهي أننا نحن العرب أهملنا البحر الأحمر إهمالا معيباً على طول تاريخنا ، فهذا هو البحر الوحيد على الأرض الذي يعتبر بحراً عربياً حقاً ، فالبلاد المطلة عليه كلها عربية ، وقد انفردت سفن العرب بالملاحة فيه عصوراً متطاولة ، ولكننا أهملناه ولم ننشيء فيه المواني والمرافيء مع أن ذلك حيوي لنا ، وقد كتبنا في هذة الناحية بشيء من التفصيل في مقدمة الكتاب الجامع الذي تنشره دار المعارف بمصر بالتعاون مع منظمة اليونسكو .

● انتشار الاسلام فى جنوب القرن الافريقى

كان شرق إفريقية دائماً من المناطق الغنية بمنتجاتها التي تلقى في بلاد الغرب قبولا واسعاً ، ولهذا كثرت هجرة العرب إليه واستقرارهم على سواحله من قديم الزمان لممارسة التجارة ونقلها إلى الشام وبلاد الروم ، وكان مضيق باب المندب معبراً مألوفاً إلى إفريقية قروناً كثيرة قبل الإسلام وعندما ظهر الإسلام ودخلت فيه بلاد اليمن بدأ اليمانيون يحملون الإسلام إلى إفريقية في كل سواحل الصومالات ، وكذلك فعل الحضارمة والعمانيون بعدهم ، وكلهم أخذوا الإسلام معهم إلى الساحل الإفريقي شمال القرن وجنوبه . وبعد قليل من الزمن أصبح الإسلام الدين السائد على السواحل ومضى يشق طريقه إلى دواخل القارة .

وقد قسم العرب الساحل الافريقى الذى ألفوا الوفود عليه الى أربع مناطق :

١ – ساحل البربرة عند قرن إفريقية وإلى غربه وجنوبه وأهله كوشيون . وجنوبي مقدشو تلقى سكاناً هم خليط من الكوش والزنج .

٢ – بلاد الزنج أوساحل الزنج ، وكانوا وثنيين في جملتهم وقد أنشأوا مدناً تجارية ساحلية ، وكانوا يخضعون لملك لهم في ممبسة .

٣ – ساحل سُفالة وهي أرض الذهب ولهم ملك قاعدته صيونة .

٤ – أرض الوقواق وهي ما يلي ذلك من الساحل جنوباً ، وهي أرض مجهولة لا نعرف عنها إلا القليل .

وكان المسيطرون على تلك المدن التجارية كوشيين في حين أن السكان أنفسهم من البانتو . وكان هؤلاء الأخيرون يتحركون نحو الشمال مع الزمن حتى نجدهم في جنوب ساحل البربرة بين سنتي ٥٠٠ و ٨٠٠ ميلادية .

وعندما كتب المسعودي كتاب (مروج الذهب) سنة ٩٣٤م كان هذا الساحل جنوبي القرن لا يزال وثنياً ، ولكن الإدريسي الذي كتب بعد ذلك بقرنين (سنة ١١٥٣ م) يؤكد أنهم دخلوا الإسلام وأن كل مواقع ساحل البربرة قد دخلوا في الدين ، أما الزنج جنوبهم فيذكر الإدريسي أنهم كانوا ما يزالون كفاراً فيما عدا سكان جزيرة لم يذكر اسمها والغالب أنها زنجبار . وبعد ذلك بقرن من الزمان (سنة ١٢٥٤) يذكر علي بن سعيد المغربي في كتابه « بسط الأرض في طولها والعرض » أنهم أصبحوا مسلمين وخاصة قادتهم ورؤساؤهم ، وأن مدن الساحل الإفريقي الشرقي قد أصبحت مدناً إسلامية .

وهذه المدن الساحلية هي مقدشو وبراوة ومركة ولَمُّوباتَه ومَلِندي وما فيه وكلوه ، كانت لها كلها علاقات تجارية منتظمة مع جزيرة العرب والخليج العربي والهند وما يليها شرقاً . وكان الكثير من هذه المدن الساحلية يقوم على جزر قرب الشاطيء .

وفي الشمال من ذلك الساحل الإفريقي الشرقي نجد أن الإسلام أوغل في الداخل حتى غلب على أهل إقليم سِدامه . وإلى الداخل من ذلك الإقليم كانت تسكن قبائل بادية لا تشجع الناس على الدخول في أرضها ، ولكن الإسلام أوغل فيها برفق وهذه القبائل من شعب البانتو وهم لم يكترثوا للدخول في الإسلام أول الأمر ولهذا كان إسلامهم بطيئاً .

أما الإفريقيون السواحليون ومعظمهم من البانتو فقد كانوا مسلمين ، وكان اهتمامهم بالتجارة عظيماً ولكن الخلافات والمنازعات كانت قائمة بينهم على الدوام ، وقد شغلهم هذا عن الاهتمام بنشر الإسلام في الداخل

ورائهم . وقد تحولوا نتيجة لاختلاطهم بالعرب إلى جماعة بشرية قائمة بذاتها تميزت بخليط ثقافي إسلامي بانتوي . ونشأ عندهم طراز ثقافي يسمى عادة بالشيرازاي فيما بين سنتي ١١٥٠ و ١٥٠٠ م .

والشيرازية منسوبون إلى علي بن سلطان بن الحسن بن علي ابن أحد سلاطين شيراز من جارية سوداء ، وقد نفر من إخوته من أمهات بيضاوات فأخرجوه من البلاد سنة ٩٧٥م ، فذهب إلى إفريقية مع أولاده الستة وبضع مئات من المهاجرين ، واشترى جزيرة صغيرة سميت كلوة واستقل هو وأصحابه بالتجارة وتبعهم في ذلك أولادهم ومن دخل الإسلام معهم ونشأت منهم جماعة الشيرازية .

وقد أنشأ الشيرازية مراكز تجارية كثيرة على الشواطيء الإفريقية ، وفي القرن الثاني عشر كانوا قد سيطروا على التجارة على الساحل الإفريقي من مالِندي إلى موزمبيق ، وفي القرن الثالث عشر ضرب سلطان كلوة عملة نحاسية هي أول عملة تضرب في إفريقية جنوب خط الاستواء ، وقد زار ابن بطوطة كلوة سنة ١٣٣٢م وقال إن سكان سلطنة كلوة كلهم سود مسلمون . وقد نشر الشيرازية الإسلام داخل البلاد ونشأت هناك حضارة متميزة تسمى حضارة الزنج ازهرت إزهاراً عظيماً في القرن الرابع عشر الميلادي ، ولقد امتد مجال الحضارة الشيرازية حتى سُفالة ، واتسع نطاق تجارتهم حتى الهند بل إلى الصين ، فكانت لها وكالة تجارية في بكين ، وكان حجم تجارتهم ضخماً إلى درجة أن علماء الآثار وجدوا مقادير عظيمة جداً من قطع الخزف الصيني إلى جوار كلوة . وفي سنة ١٤١٥ م أرسلت كلوة سفارة إلى بكين خرجت من ماليندي ولقيت كل إكرام في بلاط بكين ، وأعادها الأميرال الصيني تشينج–هو بسفنه إلى ماليندي .

وقد اختفت هذه الثقافة خلال فترة سيادة البرتغاليين على تلك السواحل

وبعد ذلك أخذ يسود طراز جديد من الثقافة الإفريقية العربية يسمى بالسواحلي وهو يحمل طابعاً حضرموتياً ظاهراً .

وقد أضرّ البرتغاليون بتطور هذه الثقافة الإسلامية ضرراً بليغاً مع أنهم لم يحتلوا إلا نقطاً قليلة على الساحل الإفريقي ، ولكنهم كانوا قوماً مخربين منهومين إلى المكاسب والمغانم سريعين إلى استخدام النار مع الناس ، فكان أذاهم بليغاً من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر بالإسلام وأهله حين تمكن العمانيون من طرد بقاياهم وتخريب قواعدهم . وكان لسلاطين عمان علاقات نشيطة مع ساحل إفريقية ومواقع العمانيين على الساحل الإفريقي وخاصة زنجبار . وكان أهل هذه المواقع خوارج إباضيين ولكنهم لم يقوموا بأي جهد لنشر مذهبهم في إفريقية .

وفي خلال هذه الفترة أيضاً « من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر الثامن عشر » شهد الساحل الإفريقي موجات متصلة من مهاجري اليمن وكان في جملة المهاجرين نفر من الفقهاء ، فأدخلوا المذهب الشافعي بين أهل السواحل ، وعني هؤلاء الفقهاء بكتابة السواحلية بحروف عربية ، وكانت قبل ذلك لغة غير مكتوبة ، وأدخلو فيها أيضاً موضوعات الشعر العربي وأوزانه . ومن اختلاط العناصر الحضارية الإسلامية مع بقايا الحضارة الشيرازية والبنتوية(١) تكون نسيج الحضارة السواحلية المعروفة لنا اليوم ، وهي حضارة غلب عليها آخر الأمر الطابع الإسلامي .

وكان سلطان العمانيين قليلا على مراكزهم التجارية على الساحل الإفريقي

---

(١) نسبة الى شعب البانتو Bantous وهو اسم يطلق على جماعات كبيرة من الافارقة تسكن شرق القارة جنوبى خط الاستواء ، وهم يتكلمون لغة واحدة وان كانت أجناسهم وأصولهم شتى .

حتى تولى السلطان سعيد بن سلطان سنة ١٨٥٦م ، وقد تمكن هذا السلطان القوي من تثبيت نفوذه في مسقط ثم اتجه باهتمامه إلى الساحل الإفريقي ، وأنشأ في جزيرة زنجبار قاعدة لسلطانه هناك . وعصر هذا السلطان يعني تاريخاً حاسماً في تاريخ الساحل الشرقي الإفريقي . فإن نشاط المسلمين التجاري بدأ يوغل خلاله في داخل القارة ، ومع أن المسلمين وصلوا في أيامه إلى داخل القارة عند تنجانيقا والكونغو ونياسا ، وأنشأوا محطات تجارية في عمق القارة إلا أن اهتمامهم بالتجارة كان أشد من اهتمامهم بالدعوة . فلم يدخل على أيديهم في الإسلام إلا نفر قليل ممن ربطتهم بالعرب روابط تجارية مباشرة في ذلك الحين . والحقيقة أنه لم يتسع أمامهم الوقت للقيام بعمل حاسم من أعمال الدعوة ، لأن الاستعمار كان يتوغل إذ ذاك في داخل القارة ، وقد وقف حائلا دون انتشار الإسلام . ومع ذلك فيمكن القول أنهم فتحوا الأبواب للإسلام ، فلم يلبث الدعاة أن أوغلوا في القارة ولم يلبث الإسلام أن أخذ ينتشر في إفريقية الاستوائية .

ونتيجة لهذا نجد أن الذين دخلوا الإسلام من البانتو في المنطقة الاستوائية أو جنوبها هم الذين كانت لهم علاقات تجارية وثيقة مع العرب والسواحليين أول الأمر . أما انتشار الإسلام على نطاق واسع في تنجانيقا فيرجع إلى سنة ١٨٨٠م بعد احتلال الألمان لتلك المنطقة . ويذهب أهل الاستعمار من الألمان إنهم ساعدوا على انتشار الإسلام في إفريقية لأنهم فيما يقولون سهلوا طرق المواصلات وأقروا الأمن في البلاد ولم يقوموا بأي عمل يوقف سير الإسلام ، ويقولون أنهم تركوا الإسلام ينتشر لأنهم رأوا فيه نوعاً معقولا من التنظيم الاجتماعي يساعدهم على الحكم ، وكذلك يقولون أنهم وجدوا في الشريعة الإسلامية نوعاً من النظام القانوني المفيد في إقرار السلام ، والحقيقة أن أمم الغرب المستعمرة كانت مهتمه في المكان الأول بالاستيلاء على الموارد

واستغلال الثروات ، وفي أحيان كثيرة ظنوا أن إنشغال الأهالي بالدين يصرفهم عن التنبيه إلى النهب الذي كان يصيب ثروات بلادهم القومية . ولنضف إلى ذلك أن شعب البياو الذى يسكن المناطق الساحلية الممتدة من كِلْوة إلى موزمبيق وجدوا في الإسلام تشريفاً لهم وارتفاعاً بمستواهم عن غيرهم فأقبلوا عليه ونالوا به الصدارة والوجاهة ، وبلادهم الآن تتميز عن غيرها بالمساجد الجميلة الطابع الإفريقي المتميز . وإليهم يرجع الفضل في إطلاق اسم دار السلام على موضع فرصفه صغيرة مقابل جزيرة زنجبار ، وقد ازدهرت المدينة وأصبحت عاصمة تنجانيقا ثم تنزانيا اليوم .

ولقد ترك السواحليون أثراً عميقاً في جماعات السود في قلب إفريقية ونشروا الإسلام بين قبائل كثيرة تسكن اليوم تنزانيا وكينيا مثل الزرمو وماثومبي في دلتا نهر روفينجي ، فدخلت القبائل النازلة هناك الإسلام ولم يتمكن الإسلام بعدُ من الانتشار الواسع بين البانتو ولكنه ينتشر بينهم بسرعة أما عدم انتشاره بصورة حاسمة في جنوب السودان فيرجع إلى السياسة المعادية للإسلام التي انتهجها الانجليز بعد انفرادهم به .

محاولة انشاء الوطن المصرى السودانى في القرن التاسع عشر وأثره فى انتشار الاسلام فى وادى النيل :

ويكمُل الكلام عن تاريخ الإسلام في إفريقية المدارية والاستوائية بالإشارة إلى محاولة إنشاء وطن مصري سوداني على يد حكام مصر في القرن التاسع عشر ، وهذا هو الاسم الذي ينبغي أن يطلق على ما يسمى خطأ بفتح مصر للسودان أو امبراطورية مصر في السودان أيام محمد علي وإسماعيل . إنما الحقيقة كما يقول المؤرخ الجليل شفيق غربال هي أن القرن التاسع عشر كان عصر إنشاء القوميات الكُبرى كالقومية الإيطالية والألمانية والروسية

وغيرها ، وكلها محاولات توحيد بلاد تشترك في ظروف جغرافية وتاريخية وحضارية ولغوية ودينية واحدة . ومحمد علي في محاولته فتح السودان كان يرمي دون أن يشعر إلى إيجاد وطن مصري سوداني يشمل وادي النيل كله ، واستمر في المحاولة ابنه عباس وأحفاده سعيد وإسماعيل ومن شاركهم في ذلك العمل ، والعملية مهما كانت دوافعها في أيام محمد علي إلا أنها كانت إكمالا لما تم على يد عرب جهينة ورفاعة المهاجرين من مصر من نشر الإسلام في شمال السودان ووسطه وتحويله إلى بلاد عربية إسلامية ، ثم جاءت الخطوة الثانية عندما استقلت مصر في القرن التاسع عشر وشعرت أن كيانها السياسي لا يستقيم إلا إذا كانت عضواً في أسرة قومية كبيرة تشمل وادي النيل كله بالضبط كما كان رجال الوحدة الألمانية يعملون على خلقها من الإمارات والممالك الألمانية المتناثرة من الراين إلى الدنيبر .

وليس هنا مجال تفاصيل الأعمال العسكرية التي قامت بها مصر في السودان أيام محمد علي وأولاده ، ولكن يكفي أن نذكر أن هذه الأعمال مهما قيل في نقدها فقد كانت السبب الرئيسي في تثبيت قواعد الإسلام في وادي النيل حتى بحر الغزال ، وهي صاحبة الفضل في إيصاله إلى منابع النيل ، فلو لم تقم مصر بهذه الأعمال لكان مصير السودان جنوبي سنار والدويم هو نفس مصير بقية بلاد إفريقية الاستوائية وما يليها جنوباً : كانت قد تحولت إلى بلاد مسيحية أو ذات أقلية إسلامية . وليس إلى الشك سبيل في أن هذه الجهود المصرية هي التي رسمت الحدود السياسية للسودان كما نراه اليوم ، فالمصريون هم الذين مدوا حدود بلد السودان النيلي حتى خط الاستواء ، بل كانت بحيرات منابع النيل جزءاً من دولة مصر والسودان وسميت بمديرية خط الاستواء أو اكواتوريا وإلى المصريين يرجع الفضل بعد إرادة الله في إيصال الإسلام إلى منابع النيل بصورة منتظمة ومتصلة ، فمنذ سنة ١٨٢١م وهي السنة التي دخلت السودان فيها أول حملة مصرية حتى سنة ١٩٢٤م وهي السنة التي نجح الانجليز

فيها بأساليبهم المعروفة في فصل السودان عن مصر والانفراد به على أمل تحويله إلى مزرعة انجليزية يستغلونها لحسابهم ، خلال تلك الفترة الطويلة عمل المصريون على نشر الإسلام وإرسال الشيوخ وإنشاء المعاهد الدينية والمدارس في كل بلاد السودان مما ربط شعوب السودان النيلي بعضها ببعض وجعلها شعباً سودانياً واحداً لغته العربية وديانته الإسلام ، وهذا أعظم كسب حققه الإسلام والعروبة في إفريقية منذ قرون طويلة ، فقد أصبح أكبر أقطار القارة الإفريقية وهو السودان بلداً إسلامياً عربياً يتصل بعدد كبير جداً من البلاد الإفريقية ويفتح أبوابها للإسلام ، فالسودان مفتوح الأبواب على تشاد وجمهورية إفريقية الوسطى وزائير وكينيا وأوغندا وتنزانيا وبوروندي ورواندا والحبشة وعفر والصومال وارتيريا ، فهو على ذلك قاعدة إسلامية كبرى في القارة الإفريقية ، وذلك يفرض عليه مسئوليات كبرى حيال الإسلام والعروبة .

ولكي تتبين لنا أهمية الدور الإسلامي العربي الذي قامت به مصر في السودان فلننظر إلى ما فعله الانجليز في السودان الجنوبي بعد أن انفردوا به وأخرجوا المصريين منه ، فقد اتجهت همهتم إلى صبغ السودان الجنوبي بصبغة إنجليزية غير إسلامية وأنشأوا للسودان بذلك العمل مشكلة كبيرة . ولو لم يبادر المصريون إلى التدخل في السودان لحماية وادي النيل من أن تبتلعه الموجة الاستعمارية لكان لبلاد السودان اليوم تاريخ آخر .

وإننا لنفخر اليوم بالصحوة المهدية ونعتبر محمد أحمد المهدي من كبار زعماء العروبة والإسلام ، مع أن الانجليز كانوا قد شوهوا سمعته بعد أن قضوا على حركته بالطريقة البشعة التي قام بها رجال مثل اللورد كتشنر ، وهذا مثل صغير من أمثلة تصرف الانجليز في السودان ، ولا نزاع في أن حركة المهدية كانت بعيدة الأثر في نشر الإسلام في السودان وتعميقه وتحويله إلى قاعدة كبرى من قواعد الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية .

خاتمـــــة

وبعد فقد آن أن نقف بهذا الحديث المستطاب عن الإسلام الفاتح ، الإسلام الذي تنفتح له القلوب وتنشرح به الصدور إذا مسها نسيمه وخالطتها بشاشته . كانت رحلة طويلة ولكنها ممتعة ، فقد رأينا فيها الإسلام ينتقل من فم لقلب ، ويطير من بلد لبلد ويملأ الدنيا بنوره بفضل الله سبحانه ، وبما أودعه فيه الحق من خفة على القلوب وقرب من النفوس الظامئة إلى نور الله وعدله وأمانه وثوابه .

ولو نظرنا الى مصدر جغرافى لرأينا أن ما فتحه الاســــلام بنفسه أضعاف ما فتحه المسلمون ، ولا زال الاسلام فاتحا مظفرا الى يومنا هذا والحمد لله ٠

ولكن الظروف تتغير والدنيا تتبدل ، وفي القارة الآسيوية تقف للإسلام اليوم الشيوعية الشوهاء ، وفي إفريقية تحاول بعض الحكومات الجديدة وعلى رأسها غير مسلمين ومن ورائهم التبشير والمبشرون ، فيلجأون إلى إغلاق الطرق في وجه الإسلام حتى البلاد التي ساعدها ويساعدها المسلمون على كسب استقلالها وحل مشكلاتها تلجأ إلى هذه السياسات ، ومن واجب أمم الإسلام أن تفتح عيونها وأن تضع صالح الإسلام فوق كل صالح ، فلا صداقة إلا على أساس إطلاق الحرية للإسلام ليسير في الناس ، ولا معاونة إلا على قدر موقف هذه الدولة أو تلك من الإسلام .

لقد أكرمنا الله بالاسلام ، فلا أقل من أن نكرم نحن أنفســـنا بالقيام بحقه فهو البداية وهو النهاية ، وهو صاحب الفضل علينا جميعا ، فما من خير فى حياتنا الا ومصدره الاسلام ٠ وما من شيىء نفخر به الا وأصله الاسلام ٠ ومهما بذلنا فى سبيله من جهود فلن تكون الا بعض ما له علينا من حقوق ٠

محتويات الكتاب

موارد مختـــارة
(أصـــول ومراجع)

أولا : موارد عربية

إبراهيم علي طرخان ، مملكة غانة ومملكة مالي ومملكة صنغاي . الخرطوم .

إبن الأثير ، علي بن أحمد بن أبي الكرم ، الكامل في التاريخ . طبعة بيروت سنة ١٩٦١م وما بعدها حـ ٦ ، ٧ ، ٨ .

أحمد بابا التنبكتي ، تكملة الديباج المذهب لابن فرحون . نشرة المستشرحه شيربونو بقسطنطينة بالجزائر سنة ١٩١٠م .

الإدريسي ، أبو عبد الله محمد ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الطبعة الكاملة للكتاب بعناية نفر من العلماء . نشرة معهد الدراسات الشرقية بجامعة نابولي في إيطاليا ابتداء من سنة ١٩٧١م .

بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٣٣م .

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، رحلة ، ابن بطوطة ، طبعة بيروت ١٩٨٥م .

البكري ، أبو عبيد عبد العزيز : المُغرب في وصف إفريقية والمغرب (جزء المسالك والممالك) بتحقيق البارون ماك ــ جوكين دي سلان باريس ١٩١١م .

البلاذري أحمد بن يحي بن جابر : فتوح البلدان ، بتحقيق د. صلاح المنجد القاهرة ١٩٥٨م ثلاثة أجزاء .

البروني : أبو الريحان محمد بن أحمد : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، بتحقيق إدوارد سخاو لاييزج ١٨٧٨ – ١٨٧٩م وأعادت طبعه مطبعة المثنى في بغداد بالأوفست .

الجرنائي ، أبو الحسن علي ، زهرة الآسي في بناء فاس ، فاس ١٩٢٢م .

حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي .
الجزآن الثاني والثالث ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ١٩٧٦م :
– الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤م .
– إنتشار الإسلام في شرقي إفريقية ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٤م .

الحسن بن محمد الوزان الزياني ، (ليو الإفريقي) ، وصف إفريقيا ، نقله إلى العربية عبد الرحمن حميدة الرياض ١٩٧٩م .

ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ، المقدمة ، طبعة دار الشعب في القاهرة بدون تاريخ .
– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء القاهرة ١٢٨٤ هـ .

ابن خرداذية ، كتاب المسالك والممالك ، بتحقيق دي خوية ، لايدن ١٨٨٩م .

ابن أبي ديفار القيرواني ، المؤنس في أخبار إفريقية تونس ، وتونس ١٢٨٨هـ .

ابن أبي زرع ، أبو الحسن بن عبد الله أو صالح بن عبد الحليم : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخيار ملوك المغرب ومدينة فاس ، طبعة الرباط ١٩٣٨م .

سعد الدين الزبير ، امبراطورية رابح الزبير ، القاهرة ١٩٥٣م .
السعدني ، عبد الرحمن ، تاريخ السودان ـ نشرة المستشرق هوداس في باريس سنة ١٨٩٨م .
السلاوي الناصري ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الطبعة الثانية الدار البيضاء ١٩٥٤م في ١٠ أجزاء .
الطبري ، محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم دار المعارف بالقاهرة ، الجزءان ٩ ، ١٠ القاهرة .
د. عبد الرحمن زكي ، تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقية القاهرة ١٩٨٨م .
عثمان دان نوديو : الفرق بين ولاية أهل الإسلام وولاية أهل الكفر بتحقيق م . هيكست ، نشر في مجلة الدراسات الشرقية الإفريقية التي تصدرها مدرسة الأبحاث الشرقية الأفريقية التابعة لجامعة لندن ، مجلد ٢٣ عدد ٢ سنة ١٩٦٠م .
ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب . أربعة أجزاء بإشراف د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٢م .
العتبي ، تاريخ على هامش الفتح الوهبي ، القاهرة ١٢٨٦ هـ .
فيصل السامر ، الإسلام في أندونيسيا ، عالم الفكر مجلد١٠ عدد٢ سنة ١٩٧٩م . ص ٤٧٩ وما بعدها .
القلقشندي ، شهاب الدين أحمد ، صبح الأعشي ، طبعة دار الكتب المصرية ، الجزء الثامن .
محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة القاهرة ١٩٦٢م .
محمود كعت ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ،

نشره مع ترجمة فرنسية المستشرق هوداس . باريس ١٨٦٣م .

المسعودي ، أبو الحسن علي ، مروج الذهب ، طبعة القاهرة في ٤ أجزاء ١٩٥٣م.

مظهر بن طاهر المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، ٦ أجزاء ، باريس ١٨٩٩ — ١٩٥٧م .

المقدس ، شمس الدين أبو عبد الله محمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦م ، وأعيد طبعه بالأوفست في بغداد .

مؤلف مجهول ، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، نشره مع ترجمته فرنسية هوداس لي باريس ١٩٠١م .

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، كتاب البلدان مع كتاب « الاعلان النفيسة » لابن رُسته . نسخة بالأوفست دون تحقيق أوسنة طبعة .

ثانيا : موارد أجنبية :

Amadou Hamate Baot Dogeb, L'Empire peul du Macina. Paris 1956.

Amir. Aly, Sayed, A short History of the Soracens London, 1953.

A.J. Arberry, ex. The Legocy of Persia. Oxford, 1953.

Arkell, History of the Sudan to 1921.

Arnold, Sir. Thomas, the Preaching of Islam 3 ed. revised by Reynold O. Nicholson. London, 1935.

Bertaux, Pierre, L'Afrique de la préhistore à l'époque contemporaine. Paris, 1973.

Beroud Vilfars, L'Empire de Gao. Paris, 1942.

Bovill, E.W., Coravans of the Old Sohara. London - Oxford, 1933.

Browne, Edward G., A Litirary History of Persia from the earliest times until Firdawsi. London, 1919.

R. Capot Rey, Le Sohare Français. Paris, 1933.

Charles Monteil, Les Banbara de Segou et du Kaarta. Paris, 1924.

Cornevin, Histoire de l'Afrique des Origins à nos jours. Paris, 1964.

Crawford, O.S.G., The Fung Kingodm of Eennar 1951.

Urvoy, Y., Histoire des populations du Sudan Central. Paris, 1936.

— Histoire de l'Empinre du Bornou. Paris 1949.

Fage, J.D,. Ghana. A Historical Interpretation. London, 1969.

Ferrand, Gabriel, Relations des Voyages et textes géographiques arabes, persans et turques relatifs à l'extrème Orient du VII au XVIII siècles (2 vols). Paris, 1912.

De Gobimeau, Religion et philosophie dans l'Asie Centrale. Paris, 1866.

Groaf, A History of Indonesia. 1960.

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. Leipzig, 1925.

History of East Africa :

Vol 1 by R. Olivier and G. Mathew;

Vol 2 by V. Harlow and E.M. Shilver;

Vol 3 by Mangery Perham and R.E. Robinson Oxford, from 1963 to 1966.

Hurgronje, Smouck, Politigue Musulmane de la Hollande. Paris, 1980.

Hurgronje, Snouck, Collected Writings. Vol. IV Leiden, 1962.

Lewis, Bernard, The Arabs in History. London, 1954.

Mauny, Tableau géographique de l'Ouest Africain du Moyen. Age, d'aprés les oeuvres éorites, la tradition et l'arohéologie. Dakar, 1961.

Nadi Hassan, History of Persian Novigation. London, 1962.

Niven, C.R., A Short History of Nigeria. London, 1949.

R. Oliver and J.D. Fage, A short History of Africa. London, 1962.

Richard Molard, Histoire de l'Afrique Française. Paris, 1952.

Rouch, J., Les Songhay. Paris, 1957.

J. Spenser Trimingham, A history of Islam in West Africa. London - Oxford, 1969.

Trimingham, Spencer, Islam in the Sudan. London, 1956.

Van Denberg, Le Hadramawt et les colonie Arabes dans l'Inde. Paris, 1948.

Vlekke, Bernard, Nusantra, A History of Indonesia. Bruxelles, 1961.

Westermann, Geschichta Afrikas Koeln 1952.

Wertheim, W.F., Indonisian Society in Transition. London, 1956.

Wingfield, R.J., The History of Old Ghana, Mali and Songhai. Cambridge, 1957.